فلسفة التذوق الصوفي

بين علماء الرسوم وعلماء الحقيقة

محمد المنشاوي



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اســم الكتاب : (فلسفة التذوق الصوفي)

بين علماء الرسوم وعلماء الحقيقة

المـــــــؤلف : محمد المنشاوي

رقــم الإيداع :

الطبعة الأولى 2012



إهداء ..

- إلى أمي رحمها الله، التي تركت على ملامحي منذ رحيلها ، مسحة حزن لا تفارقني أبدا !!

- إلى ملاكي الحارس وحسنة دنيتي زوجتي مني فؤاد ..

محمد المنشاوي..

مقدمة

الحمد لله .. أسبغ على عباده النعم ، وسخر لهم البر والبحر ، والشمس والقمر ، والظلمة والضـــياء ، والليل والنهار ، ســبحانه وتعالى ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ ..[الكهف:1]

وأشهد ألا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، ولا سمى له ، ولا ولد له ، ولا صاحبة له، ولا مثيل له ، ولا شبيه له ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ..

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وخيرته من خلقه ، وأمينه على وحيه ، وسفيره بينه وبين عباده ، أرســله رحمة للعالمين ، وقدوة للعاملين ، ومحجة للســالكين وحجة على العباد أجمعين ، ورضـــى الله تعالى عن أهل بيته المكرمين وورثته المحمديين ووارثه الكامل الذى يرثه علما وعملا وحالا .. ثم أما بعد : ..

تعتمد الكتابة الصــوفية كغيرها من الكتابات الأخرى على قواعد علمية ذوقية ومصــطلحات فنية تمثل الأســاس فى منهجها ، هذه القواعد والمصــطلحات فى معناها وتركيبها تأتى إشــتقاقا من صــميم التجربة الصــوفية المتميزة ، بشــكل جعلها مســتقلة بتجربتها الوجدانية الخاصـــة والمتفردة بالمواجيد والأذواق القلبية ، مبنية على القرآن والسنة المطهرة ..

يأتى ذلك على اعتبار أن ما يصل إليه الصوفى من العلم هو كهيأة المكنون مصداقا لقول الرسول ﷺ : « **إن من العلم كهيأة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله فإذا قالوه لا ينكره عليهم إلا أهل الغرة بالله** » ، وهذا الأمر هو الذى جعل ثمرات التجربة أكبر بكثير من أن تستوعبها العبارات عند حصول الترقى الروحى وما يصحبه من أحوال المواجيد ..

وقد نبه أبو حامد الغزالى رحمه الله على هذه المسالة ، بأنه متى عبر الصوفى عما يجده فى قلبه فقد غلط غلطا لا يمكن الاحتراز منه ، فالصوفى ليس بالمتمرد على اللغة بل يلاطفها ويتعرف عليها بما هى عليه وما تقدر أن تحمله من معان ، لكنه يحتفظ لنفسه بالمدلول الحقيقى لها الذى يترجم أحواله ومقاماته ، متجها أحيانا إلى التبسيط لإرشاد العامة أو ترشيد الخاصة ..

وليست الكتابة الصوفية هى تلك التى تعتمد على الثقافة الصوفية نتاج ما جمعه كاتبها من تراكمات لمطالعاته وقراءاته قبل أن يصبح صوفيا بل هى تعريف لمقام الصوفى مهما اختلف مما ينفى عنها بكل حال من الأحوال أن تكون لسانا مترجما للمخزون الثقافى الذى يكون الصوفى قد اكتسبه نفسه من قراءاته فى شتى مجالات المعرفة ..

فالكتابة هنا ليست تنميقا للأسلوب أو اختيارا للألفاظ بل هى إملاء إلهى ، يقول ابن عربى عن فتوحاته : فوالله ما كتبت منه – يقصد الفتوحات – حرفا إلا عن إملاء إلهى وإلقاء ربانى أو نفث روحى فى روع كيانى ..

فيتعين على من يتصدى للكتابة الصوفية ألا يكون فقط من ذوى الثقافة الصوفية الكسبية الناتجة عن القراءات والمطالعات والمخزون الثقافى من وراء هذه المطالعات ، بل يتعين أن يكون من ذوى الأذواق الصوفية ولا أقول ممن يأخذون عن تلقى إلهى بل على الأقل أن يكون ذا ذوق صوفى ، تصديقا للقول بأن التجلى هو بداية الذوق ، ولا أذهب إلى القول بوجوبية أن يكون من ذوى المقامات والأحوال ، فبغير هذا الذوق لن يكون معبرا صادقا عن حاله وأحوال ذوى المقامات من أهل الله أهل الكشف العارفين بالله الذين تولى الله تعليمهم ..

وجاء فى كتاب جواهر المعانى لأحمد التيجانى أن أبا يزيد البسطامى كان يخاطب علماء عصره قائلا : أخذتم علمكم عن علماء الرسوم ميتا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت ..

والسـجال بين علماء الرسـوم من أهل النظر والظاهر والفقه والتشـرع وبين أهل الله أهل الكشف أهل الباطن علماء الحقيقة ، قد هدأ عندما جاء حجة الإسلام الإمام الغزالى وألف كتابه القيم « إحياء علوم الدين » بعد أن نقح طرق التصـوف بجميع آدابه وأركانه وا صطلاحاته ، مقرا بما أقره المشايخ ومنتقدا لما يستوجب النقد ، الأمر الذى أَلَّف من جد يد بين هذين التيارين المباركين اللذين يبدوان كأنهما مختلفان ، ووفق بينهما بانسجام تام ..

بحيث أن كثيرا من الصوفيين الذين أتوا من بعده وجدوا علمهم لونا من ألوان العلوم الشـرعية ، وبعدا من أبعادها ، فانتعشـت الوحدة والتعاون فى كل مكان ، حتى إنهم انسـجموا والتقوا مع الذين كانوا يطلقون عليهم اسـم علماء الرسـوم اسـتخفافا بهم ، وظهور توضـحيات متميزة فى علم التصـوف مثل الحقائق الوجدانية والذوقية الكثيرة كعلم الحال وعلم الخاطر وعلم اليقين وعلم الإخلاص ، وعلم الأخلاق .. و جدوا نقاط التقاء مشـتركة كثيرة لتوصـيلهم إلى الاتفاق والوفاق بين أرباب التصـوف وأهل الظاهر ..

ولما كان التصــوف طريقا للعبادة جل اهتمامه الباطن ، ويتناول الجانب الروحى للأحكام الشــرعية ومدى تأثيرها على القلب ، والأعماق التى تشــف الوجدان ، فهو بالنســبة للمســالك الأخرى أكثر عمقا وغورا وأوســع مدى وأصــعب فهما ، إلا أنه من حيث الهدف والمنطق نابع من الكتاب والسنة ،ولا ينافى أى طريق إسلامى آخر بل هو كالعلوم الشــرعية الأخرى ، يؤكد على روح العلم والمعرفة واليقين والإخلاص والإحسان وما شابهها من الحقائق ، مستندا إلى الكتاب والسنة والاجتهادات الخالصة للسلف الصالح ..

وبالتالى فمن الخطأ قطعا تناول المسألة ، وكأن هناك منافاة حقيقية بين أهل الحق من كلا الجانبين ، نظرا لأقوال ومفاهيم غير لائقة لقسم من الفقهاء على المتصوفة ، أو لقسم من المتصوفة على الفقهاء ، فإن عدد هؤلاء الذين يثيرون مثل هذا النزاع ويشاركون فيه ، يعدون قطرة من بحر بالنسبة لمن يسلكون طريق التسامح والعفو والصفح ، وفى الحقيقة أن هذا أمر طبيعى للغاية ، لأن مرجع كلا الطرفين واحد ، فمثلما يرجع الفقهاء إلى الكتاب والسنة فى الأحكام الشرعية ، يستند الصوفيون كذلك الى المرجعين نفسيهما ..

ولكن لابد من الإشـــارة إلى أن هناك من العلماء من غير الصـــوفية ، أقصـــد علماء الرســوم أو الفقه لا حظ لهم ولا ذوق فى التصــوف ومعرفة ما عليه أهل الكشــف لأنهم نقلوا علمهم عن ســابقيهم من نقلة العلم ، فإذا ما تحدث هؤلاء أو كتبوا ، اصــطبغت كتاباتهم وحديثهم الذى هو جماع ثقافات صوفية فقط بما هم عليه من ذوق غير صوفى ، فحجبوا أنفسهم بتمسكهم بظاهر الأمر عن التزود بما يعينهم على معرفة اللذة التى عليها أهل الله أهل الكشف من الصوفية ..

كما أن تعريف التصوف بعناوين مختلفة كعلم الباطن وعلم الأسرار وعلم الأحوال والمقامات وعلم السلوك وعلم الطريقة ، لا يعنى افتراقه عن العلوم الشرعية ، إذ أن هذه الأســماء والعناوين نابعة من تذوق أمزجة متباينة ومشــارب مختلفة للحياة القائمة على الشريعة طوال عصور مديدة وإدراكها بصور متنوعة ، لذا يعد انحرافا ومجانبة للصواب إظهار وجهات نظر الصــوفية أنها مختلفة فى الأســاس عن أفكار خدام الشــريعة واستنباطهم ..

ورغم أن هناك فى كل عصــر من العصــور متعصــبين بظاهر الأحكام الشــرعية من الفقهاء والمتكلمين والمفسرين من ناحية ومتشبسين من الصوفية من ناحية أخرى ، إلا أن أرباب الصراط المستقيم هم الأكثرية دائما بالنسبة إلى هؤلاء الذين فرطوا وأفرطوا ..

وإن كانت الطامة الكبرى أن خرج من عباءة علماء النظر والرسوم أجيال من المتشددين الذين تمسكوا بالحرفيات دون الجوهر ، وتمسكوا بالمظهر زيا وشكلا وسلوكا فقست قلوبهم وحجبتهم عن تذوق حلو الحديث وجمال المعنى فكانوا مثالا مغايرا لما كان عليه الرسول ﷺ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:4] فأعطوا صورة غير مناسبة للإسلام أمام غير المسلمين ..

لقد قالت لى سيدة بريطانية مسيحية مثقفة وأديبة تدعى «إيفا » ، ذات مرة أن ما تراه وتسمعه عن سلوك بعض الصوفية من خلق كريم و سلوك طيب يعطى صورة طيبة عن الإ سلام ور سوله ، على غير أولئك الذين أخذوا من الإ سلام ق شوره الخارجية وتركوا جوهره الغنى ... وأنها إذا ما أقبلت على التحول إلى الإ سلام سيكون ذلك بدافع أخلاق أهل التصوف ..

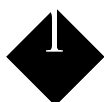
و قد رغبت فى هذا الكتاب أن أعرض لأمثلة عملية من أذواق القوم أهل الله أهل الكشف العارفين بالله ، ولبعض الدرر العلمية التى فتح الله بها عليهم ، فغا صوا فى بحور المعانى القرآنية ورأوا وشاهدوا ما لم يشهده أصحاب النظر والمنطق والفقه والظاهر وعلم القلم ، الذين اكتفوا بالسباحة فوق سطح هذه البحور وتركوا الأعماق لمن يحسن الغوص واستخراج اللؤلؤ ..

وســنرى من هذا العرض أن الفارق كبير فى المعرفة واللذة والطعم بين أولئك الذين اكتفوا بالنظر فى ظاهر الأمور وقشورها الخارجية من علماء الرسوم ، فحرموا أنفسهم وحرموا من يستمع لحديثهم ويقرأ كتاباتهم ويقلد نهجهم ، ويقتفى أثرهم من خير باطنها وبين أهل هذا الباطن وما فتح الله عليهم ، ونسـى عالم الرسـم أن لكل شـىء فى الوجود باطنا وظاهرا ، قشرا ولبا ..

وأرجوا الله ورسوله ﷺ أن أكون قد بينت ما قصدت ، ووفيت ما وعدت ، وأظهرت ما أكننت ، وأوصلت ما حملت ، وأديت ما استؤمنت ، فإذا جاء حسبما قصدت ، فالحمد لله والثناء عليه سـبحانه وتعالى بالوجه الذى يليق به وكما يحب هو سـبحانه وتعالى أن يثنى على نفسه ، وإذا كان غير ذلك من خطأ أو سهو أو تجاوز، فإنه من الشيطان ومنى ، وعزائى – إذا ما وقع ذلك لا قدر الله – أنى محب لله ومحب لرسـوله ﷺ وأهل بيته وليس على المحب من حرج ...

المؤلف

فلسفة التذوق الصوفي
بين علماء الرسوم وعلماء الحقيقة



الباب الأول

الصوفية والمتصوفة

الفصل الأول الشريعة والطريقة والحقيقة

الشــريعة ما ورد به التكليف ، والحقيقة ما ورد به التعريف ، فالشــريعة مؤيدة بالحقيقة والحقيقة مؤيدة بالـ شريعة ، فمن كل وجه كل شريعة حقيقة وكل حقيقة شريعة ، وفى عرف القوم يفرقون بينهما ، بأن الشريعة بواسطة الرسل ، والحقيقة تقريب بغير واسطة ، وقد يشار الى الـشريعة بالواجبات بالأمر ، والزجر بالحقيقة الى المكا شفات بالـسر ، والشريعة وجود الأفعال له، والحقيقة شهود الأحوال به ..

وقيل أن الـشريعة أوامر الله ونواهيه ، والحقيقة تـصريفه فيما يقـضيه ، وقيل: الـشريعة خطابه وكلامه ، والحقيقة تصريفه وأحكامه ، وقيل: الشريعة النهى والأمر ، والحقيقة ما قضى وقدر وأخفى وأظهر ، وقيل الشريعه أن تعبده والحقيقه أن تشهده ، وقيل: الشريعة دعوته والحقيقة تقريبه ومودته ، وقيل: الشــريعة الكتاب والســنة ، والحقيقة مشــاهدة القهر والمنة (□) ..

(□)المفاخر العلية فى المآثر الشــاذلية – أحمد بن محمد بن عباد المحلى الشــافعى المتوفى فى 1153 هجرية ص26 .

الحقيقة أن ترى أن الله عز وجل هو المتصرف فى خلقه ، يهدى ويضل ويعز ويذل ، ويوفق ويخذل ، ويولى ويعزل ، فالخير والشر والنفع والضر ،والإيمان والكفر ، والفوز والخسران ، والزيادة والنقصان ، والطاعة والعصيان ، بقضائه وقدره وحكمه ومشيئته ، ولا فلتة خاطر ، لا رد لحكمه ، لا معقب لقضائه وقدره ، ولا مهرب لعبده من معصيته إلا بتوفيقه ورحمته ، ولا قوة له على طاعته إلا بإرادته ومعونته ومحبته ، فعرفنا أن هذه الصفات التى صدرت بالقضاء والقدر حقيقة ..

وقد جمع الله سبحانه وتعالى بين الشريعة والحقيقة فى آيات كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ [التكوير :28] فهذه شريعة ، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير:29]فهذه حقيقة ، ومنها قوله تعالى ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [المدثر:55]فهذه شريعة ، ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[المدثر:56]فهذه حقيقة، ومنها قوله تعال تعليما لنا ، ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة:5]حفظا للشريعة ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة:5] إقرارا بالحقيقة ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة:5]فيه رد الأمر إلى الله

وأن العبادة بعونه وتسـخيره ، وقيل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:5]أى لا نعبد إلا إياك ولا نشـرك فى عبادتك غيرك فهذا مقام الشـريعة ، فإياك نعبد مقام الأبرار وإياك نستعين مقام المقربين ، فالأبرار قائمون لله والمقربون قائمون بالله ..

ثم أن الله أرسل الرسل وأنزل الكتب والإيمان والطاعة ، ونهى عن الكفر والمعصية، وأخفى عن العباد ما علمه من أحوالهم ، وما أراد من أفعالهم ، فما كان فى علمه القديم و سابق مشيئته شقيا منعه الطاعة ، فالاعتبار بالخاتمة وهى السابقة ، وله الحجة البالغة ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء:23]، فيجب على العبد أن يسـعى امتثالا للأمر، فإن أعطى شـكر وإن منع سـلم وصـبر فيجب أن نؤمن بالقدر ولا نحتج عليه ، ولهذا قال العلماء فى قول المشـركين: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام:148]أنه كلام حق أرادوا به باطلا فلا يقبل منهم ، فإنهم لم يقولوه توحيدا ولا تسـليما ، فإن ذلك لو قاله تائب من ذنب ورجوعه إلى حال الصلاح لكان مقبولا فى الشريعة ..

فالحكم بالأسباب ومراعاة الأمر والنهى عبودية و شريعة والنظر إلى تصريف الله فى خلقه توحيد وحقيقة ، فالحقيقة باطن الشـريعة ولا يغنى ظاهر عن باطن ولا باطن عن ظاهر ..

الحقيقة نتيجة الطريقة :

والحقيقة نتيجة الطريقة وليست الحقيقة نتيجة الشريعة ، قيل عن الشريعة والطريقة والحقيقة : إذا أكل الصائم عمدا بطل صومه فى الشريعة ، وإذا اغتاب أفطر صومه فى الطريقة ، وإذا خطر بباله ما سوى الله أبطل صومه فى الحقيقة ، فلا يمكن الوقوف على أسرار الحقيقة إلا بإثبات الأعمال المبينة ببيان صاحب الشرع لأن كل طريقة تخالف الشريعة كفر ، وكل حقيقة لا يشهد لها الكتاب والسنة فهى إلحاد وزندقة ..

السفينة والبحر والدر:

وقيل: أن الشريعة كالسفينة ، والطريقة كالبحر ، والحقيقة كالدر ، فمن أراد الدر ركب فى السفينة ثم شرع فى البحر ثم وصل الى الدر ، فمن ترك هذا الترتيب لا يصل الى الدر، فأول شيء وجب على الطالب هو الشريعة والمراد منها هو أوامر الله ورسوله من غسل ووضوء وصلاة وصوم وغير ذلك من الأوامر والنواهى ، والطريقة هى الأخذ بالتقوى وما يقرب إلى الله زلفى من قطع المنازل والمقامات ، أما الحقيقة فهى الوصول إلى المقصد ومشاهدة نور التجلى ،

وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « الشـريعة أقوال ، والطريقة أفعال ، والحقيقة أحوال ، والمعروف رأس المال » وطهارة الشريعة بالماء والتراب ، وطهارة الطريقة بالتخلية عن الهوى ، وطهارة الحقيقة خلو القلب عما سوى الله تعالى ..

الكشف الصوفى

سئل الشبلى رضى الله عنه لماذا سميت الصوفية بهذا الاسم ؟ فقال: « لبقية بقيت عليهم ، من نفوسـهم ولولا ذلك ما تعلقت بهم تسـمية » ، وهذه البقية هى التى يحاول الصـوفية التخلص منها ، فلقد جاهدوا أن تفنى دعوتهم فى شـخصـيتهم ، وأن تكون دعوتهم فى سـبيل الله ، ولو كان فى إمكانهم أن يتخلص الفرد منهم من فرديته ، أى من « أنا » ليصير بكليته ذائبا : قولا وعملا وشعورا وحالا وذوقا ووجدانا فى محيط الربانية ، لو كان فى إمكانهم لسعدوا بذلك ، فجهادهم الأكبر فى أن يكونوا مخلصين ومخلصين (بتشديد اللام)..

فليس غريبا أن يفشل علماء الفلسفة والاجتماع والمستشرقين فى معرفة كنه التصوف ومفرداته ، وأن يمتد هذا الفشل ليشمل حتى أولئك الذين كتبوا عن التصوف من الذين يعتمدون على ثقافة التصوف لا على الذوق الصوفى ،

لأن الكتابة فى التصـــوف من جانب غير أهل التصـــوف هى كتابة تعتمد على قراءات ومطالعات فهى ثقافة فى التصوف وليست عن ذوق صوفى لواحد من أهل الله ..

وكان طبيعيا أن يعجز علماء الفلســفة والاجتماع عن معرفة كنه التصـــوف ، لأنهم أخضــعوه كأى ظاهرة أخرى لتجاربهم المعملية واســتنتاجاتهم العقلية بما لا يتلاءم مع طبيعته ، متأثرين بما ينتشــر من ظواهر قريبة الشــبه منه وإن كانت ليســت كمثله فى بلاد الغرب والهند وغيرها كالميستسيزم وخلافه (□) ..

ولكن ما عذر البعض من علماء الرســوم أوعلماء الشــريعة أوعلماء النظر أوالعلماء المتعلمين الذين غموا عيونهم وســـدوا آذانهم عن رؤية ومعرفة طريق أهل الله وتأثروا بمنطق الســلفيين والعقليين الذين يكنون عداء لأهل البيت باطنا وظاهرا ، وتناســوا قول الله تعالى ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس:62]، فكيف لهؤلاء أن يعرفوا ويتذوقوا (□) ..

(□)قضية التصوف،المدرسة الشاذلية د. عبد الحليم محمود .

(□)مكانة التوصف والصوفية فى الإسلام : الدكتور محمد عبد الشافى، مطابع الناشر العربى 1966 م .

وشــغل هؤلاء من غير أهل الله أنفســهم قدر جهدهم فى الإتيان بكل ما يعضــد مشــاعرهم ومنطقهم من روايات متناقضــة عن أهل الله ، مســتغلين بعض الممارســات المرفوضـــة من ذوى الملابس الر ثة والمنتفعين من المتصــو فة والمحســوبين على التصوف، وأصحاب مظاهر الدروشة التى لا تعبر عن حقيقة التصوف والصوفية ..

فالظاهر والباطن طبيعة كل شىء فى الوجود حتى جسم الإنسان نفسه بل أى صنف من الموجودات ينطوى على ظاهر وباطن ، فإن كان بصرك يدرك ظاهر الشىء ، فإنك لا تعرف باطنه إلا إذا أعطيت ما يؤهلك لذلك..

ومثلما الباطن والظاهر طبيعة كل شــىء فى الوجود فإن العلم ينقســم أيضــا إلى علم باطن وعلم ظاهر وعلم الظاهر هو علم الشــريعة أو علم المتعلمين المجتهدين من غير أهل الله وعلم علماء الرسوم والفقهاء ، وعلم الباطن هو علم الحقيقة أو العلم اللدنى أو العلم الصوفى المأخوذ عن الكشف الصوفى (□) ..

(□)بغية المفيد فى شرح منية المريد : محمد العربى التيجانى .

فلا شـــك أن أهل الكتب والفكر والدليل والاجتهاد مصـــدر علمهم البشـــر والعلم الكسبى والكتب الوضعية التى طالت المسافة بين واضعيها والمتتابعين على قرائتها ، ولا عجب أن يقول أبى يزيد البســطامى مخاطبا علماء الرســوم : أخذتم علمكم ميت عن ميت وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت .. حدثنى قلبى عن ربى .. وأنتم تقولون حدثنى فلان عن فلان .. وأين فلان ؟ قالوا : مات ، عن فلان ، وأين فلان قالوا : مات (□) ..

وعلماء الحقيقة هم أيضـــا أهل الله ، أو علماء الصـــوفية أو العارفين بالله ، أو أهل الكشـــف أو علماء الباطن ، وهم الذين دلهم الله باجتهادهم إلى أن ينهلوا من نبع العلم الحقيقى إلى جانب الكسبى ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة:282]، ﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا ﴾ [الأنفال:29]، وزادهم الله من فضـــله بعلوم وهبية من ميراث الرســول ﷺ ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر:32]، ﴿ وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمًا ﴾ [الكهف:65]، فما قول هؤلاء فى قرآن يتلى فى ذلك ..

(□)الكواكب الدرية للمناوى .

ولأن علماء الر سوم قد آثروا الدنيا على الآخرة وآثروا جانب الخلق على جانب الحق وتعودوا على أ خذ العلم من الكتب ومن أفواه الر جال من جنسهم والتقعر بحسن الخطابة والحديث عن الدين بالسجع والجناس مع مزجها ببعض ما يتفق فى ظاهره من الآيات مع روايتم ونهجهم وركوب السهل دون الصعب وهى العدوى التى انتقلت إلى مستمعيهم والمتلقين عنهم ورأوا فى زعمهم أنهم من أهل الله بما علموه ويرددوه على هذا النحو فامتازوا شكلا عن العامة ، الأمر الذى حجبهم عن أن يعلموا أن لله عبادا تولى الله تعليمهم فى سرائرهم بما أنزله فى كتبه وعلى ألسنة رسله وهو العلم الصحيح عن العالم المعلم الذى لايشك مؤمن فى كمال علمه ..

ماذا يبقى من حجة لدى علماء الرسوم ، وقد وضع العلماء من أهل الله شروطا جازمة يتعين توفرها فيمن يسلك طريقهم إلى الله فى مقدمتها الالتزام بالشريعة بكل ما جاءت به ، فها هو الجنيد على سبيل المثال يحدد أ صول التصوف فى سبعة أ شياء هى : التمسك بكتاب الله تعالى والاقتداء بسنة رسول الله ﷺ وأكل الحلال وكف الأذى واجتناب المعاصى والتوبة وأداء الحقوق ..

وقالوا إن الصـــوفى من لا يطفئ نور معرفته نور ورعه ، ولا يتكلم بباطن علم ينقضـــه ظاهر الكتاب والسنة ، ولا تحمله الكرامات على هتك محارم الله ، وأن الصوفى من صفا قلبه فصفا ، وسلك طريق المصطفى ﷺ ورمى الدنيا خلف القفا ، وأذاق الهوى طعم الجفا ..

مقام التصوف :

خلق الله الإنســـان وحمله الأمانة بأن جعل له النظر فى الموجودات والتصـــرف فيها بالأمانة ليؤدى إلى كل ذى حق حقه ، كما أن الله أعطى كل شىء خلقه ، فجعل الإنسان خليفة فى الأرض دون غيره من المخلوقين ..

فالإنسان أمين على خلق الله ، فلا يعدل بهم عن سنة الله ، فالموجودات بيد الإنسان أمانة عرضـــت عليه فحملها ، فإن أداها فهو الصـــوفى وإن لم يؤدها فهو الظلوم الجهول ، والحكمة تناقض الجهل والظلم (□) ..

(□)الفتوحات المكية – محيى الدين بن عربى، المجلد الثانى.

فالتخلق بأخلاق الله هو التصــوف ، و قد بين العلماء التخلق بأخلاق أســماء الله الحسنى وبينوا موا ضعها وكيف تنسب إلى الخالق ولا تحصى كثرة فقط ، وأحسن ما تصــرف فيه مع الله خاصـــة ، فمن تفطن وصـــرفها مع الله أحاط علما بتصـــريفها مع الموجودات فذلك المعصوم الذى لا يخطئ أبدا ، والمحفوظ من أن يتحرك أو يسكن سدى ، جعلنا الله من الصوفية القائمين بحقوق الله والمؤثرين جناب الحق ..

غير أن بعض المتصـــوفة فى زماننا قد أعطوا بممارســتهم الســيئة وملابســهم الرثة وأساليبهم الدنيئة صورة سيئة عن التصوف والصوفية فنفر منهم الناس ، وأخذ البعض الآخر بسببهم صورة سيئة عن التصوف لا تمت بصلة له ..

ليس دينا آخر :

فالبعض من المتصوفة يتحدث عن التصوف بصورة جعلت الآخرين يظنون خطأ أنه دين آخر داخل الدين فنفروا وتخوفوا منه ، وتحدث البعض من المتصوفة عنه أيضا على نحو من التعالى وتلفظوا بألفاظ يرددونها ولا يدركون معناها وكنهها ، فيستقبلها السامع على نحو خاطئ فيتوجس خيفة من التصوف ..

وتشكل البعض الآخر فى شكل رث الثياب حاملا مسبحة من تلك التى تقاس بالمتر، آتيا ببعض الحركات البهلوانية عند سماع لفظ دينى كما لو كان التصوف دروشة شكلية ونسى أن الإيمان فى الباطن أولى والتلقى عن الله ورسوله لا يأتى بالصوت العالى أوالتشنجات أوالحركات البهلوانية ..

لقد أعطى هؤلاء المنتسبون شكلا إلى التصوف صورا خاطئة عن التصوف فكانت لها المردود السلبى على الآخرين ، فهؤلاء المتصوفة ، لم يتخلقوا بأخلاق الله ورسوله ولم يأخذوا من التصوف إلا اسمه ورسمه ، فهم جماعات من المنتفعين المسترزقين الفاسدين المفسدين ..

المتصوف والصوفى :

وقد لجأت هنا لاستخدام كلمة المتصوف ، ولم أستخدم كلمة الصوفى ، لأن الأخيرة غير الأولى ، فالمتصوف هو ذلك الذى لا يزال يسعى فى طريق التصوف فلا يزال يتأدب ولم يصل بعد إلى درجة الأدب والتخلق بأخلاق الرسول ﷺ ، لأن التصوف خلق ، ومن زاد عنك فى الخلق زاد عنك فى التصوف ، وقد لا يصبح المتصوف صوفيا أبدا ..

أما الصوفى الحق هو الذى كملت لديه التربية النبوية والأخلاقية ، هو الذى وصل إلى درجة ومقام الولاية وسرى إلى مستوياتها ، هو الذى تخلق بأخلاق رسوله ﷺ ، هو الذى يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه ، و هو من فى درجة الإحســان ، وهو الذى صفى قلبه من شوائب الأكدار (□) ..

هو الذى يستوى عنده الذهب بالتراب ، هو الذى لا يحرف الكلم عن موا ضعه ، هو الذى لم يضل سعيه فى الدنيا ، هو الذى يمشى على الأرض هونا وإذا خاطبه الجاهل قال سلاما ، هو الذى يبيت لربه سجدا وقياما ، هو الذى صدق بالحسنى ، هو الذى سعى ســعيا إلى الآخرة لأنه أرادها ، هو الذى يحب لقاء الله ، لأن الله يحب لقاءه ، هو الذى عرف ربه لأنه عرف نفسه ، هو الذى وجل قلبه بذكر الله ، هو الذى يذكر الله قياما وقعودا وعلى جنبيه ، هو الذى تذوق فعرف فأحب فعبد لأن قمة الحب العبودية ..

الأمير على صاحب الشمال :

قيل : إن الصوفى لايكون صوفيا حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئا عشرين سنة، وليس معنى ذلك ألا يقع الصوفى فى ذنب عشرين سنة ،

(□)كشف الغطاء عن أهل البلاء ، مرجع سابق : العالم الجليل صالح أبو خليل .

ولكن معناه أنه إذا أذنب الذنب ا ستغفر الله منه ، والملك الموكل بكتابة الـ سيئات لا يكتب الســيئة حتى ينتظر العبد لعله يرجع أو يتوب ، وكلما أراد أن يكتبها قال له ملك اليمين : انتظر فعـ سى أن يتوب .. إلى أن يبلغ ما يتراوح من العدد ما بين سبع إلى عـ شر ، فحينئذ يكتبها سيئة ، فلذلك جاء صاحب اليمين أميرا على صاحب الشمال ..

فالصوفى هو عبد صاحب مقام ودرجة ، ولذلك إذا قال شخص عن نفسه أنه صوفى ، فاعلم أنه جاهل وأنه ليس له حظا من ذلك المقام إلا التسمية فقط ، فإن الصوفى لا يزكى نفسه على الله ، لايشغله نفسه أو غيره عن الحق ، ولدية من الورع والأدب الذى يمنعه أن يتلفظ بما يزكى نفسه ..

فـقد سـئـلت الســيدة عائشـــة أم المؤمنين عن خلق رســول الله ﷺ فـقـا لـت : « كان خلقه القرآن» ، وأن الله أثنى عليه بما أعطاه من ذلك فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[القلم: 4] ، ومن شرط المنعوت بالتصوف أن يكون حكيما ذا حكمة ، وإن لم يكن فلا حظ له فى هذا اللقب وهذه التسمية فإن حكمه كله أخلاق ..

وهذه الأخلاق تحتاج إلى معرفة تامة وعقل راجح وحضور وتمكن قوى من نفسه، حتى لا تحكم عليه الأغراض النفسية، وليجعل القرآن أمامه صاحب هذا المقام ينظر إلى ما وصف به الحق نفسه، وفى أى حالة وصف نفسه بذلك، ومع من صرف نفسه بذلك، فليقم الصوفى، بهذا الوصف بتلك الحالة مع ذلك الصنف ..

إن من يسلك هذا الطريق عليه ألا يستنبط لنفسه أحكاما ويخرج عن ميزان الحق فى ذلك، فإن فعل ذلك لحق ﴿ بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾ [الكهف: 103 ، 104] ، فإن الله لا يقيم له ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنًا ﴾ [الكهف: 105] ، كما أنهم لا يقيمون هنا للحق وزنا فعادت عليهم صفتهم فما عذبهم بغير فعلهم ..

وليس التصوف شيئًا زائدًا أو مستحيلاً عن تلك المعانى السابقة وهو عند أهل الله على ما سبق ذكره ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[الإسراء: 82] فالتخلق به والوقوف عنده، يزيل المرض النفسى ولكن لدى المؤمن ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٨٢﴾ ﴾[الإسراء]

لأنهم يعدلون به عن موطنه ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [المائدة: 13] فيعممون الخاص ويخصصون العام ، فسموا ظالمين، والحكماء هم المقسطون ، ومن أوتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ..

لا تصوف بلا تشرع :

ومعروف عن أهل الحقيقة أنهم يعظمون الشريعة والقيام بكامل آدبها ، فقد حكى عن أبى يزيد البسطامى أن ذهب يوما إلى رجل قيل عنه إنه من الأولياء لزيارته ، وجلس فى المسجد ينتظره فخرج ذلك الرجل وتنخم على حائط المسجد ، فخرج أبو يزيد ولم يجتمع به وقال : هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشريعة ، فكيف يؤتمن على أسرار الله ، فما جاء عن الأكابر أولى فى الاستقامة مع الله سبحانه وتعالى من أقوال وأفعال يشكل ظاهرها ..

ولايكون التصوف إلا بالتشرع مثلما لايكون التشرع إلا بالتصوف إذا أرد العبد السعى لاكتمال إيمانه وبلوغه التحقق ، وحسبما يقول أهل الله فإن الأمر مثل قاعة ذات بابين متقابلين فإذا كانت الشريعة هى الباب الذى تدخل منه فإن الحقيقة هى الباب الذى لا تصل إليه إلا بالتصوف فلا غنى عن واحد دون الآخر (□) ..

(□)فلسفة التصوف الإسلامى ، كتاب للمؤلف ، الناشر مدبولى .

فالتصوف هو التفسير العملى للشريعة وبدونه كمن يشرع فى تشييد بيتٍ ويقيم أعمدته ويتوقف دون أن يكمل حوائطه وجدرانه وغرفه و سراديبه وأماكن سكناه وراحته ، فهو لا يظهر من أعمدته قبل هذا الإكتمال ماذا سيبنى هل عشة أم عمارة أم ناطحة سحاب ، بنى الإسلام على خمس ، فبالأعمدة وحدها لايظهر البناء ولا يصبح مؤهلا للسكنى ، فلا يمكن أن يقى صاحبه من حرار الشمس أو برودة الشتاء التى هى باطنا زمهرير جهنم وحرورها ..

إن تعريف التصوف بعناوين مختلفة كعلم الباطن وعلم الأسرار وعلم الأحوال والمقامات وعلم السلوك وعلم الطريقة ، لا يعنى افتراقه عن العلوم الشرعية ، إذ إن هذه الأسماء والعناوين نابعة من تذوق أمزجة متباينة ومشارب مختلفة للحياة القائمة على الشريعة طوال عصور مديدة وإدراكها بصور متنوعة ، لذا يعد انحرافا ومجانبة للصواب إظهار وجهات نظر الصوفية أنها مختلفة فى الأساس عن أفكار خدام الشريعة واستنباطهم ..

وبالتالى فمن الخطأ قطعا تناول المســألة وكأن هناك منافاة حقيقية بين أهل الحق من الجانبين ، نظرا لأقوال ومفاهيم غير لائقة لقسم من الفقهاء على المتصوفة ، أو لقسم من المتصــوفة على الفقهاء ، فإن عدد هؤلاء الذين يثيرون مثل هذه الخلافات والنزاعات ويشاركون فيها ، يعدون قلة قليلة بالنسبة لمن يسلكون طريق التسامح والعفو والصفح وهذا أمر طبيعى لأن مرجع كلا الطرفين واحد ، فمثلما يرجع الفقهاء إلى الكتاب والسنة فى الأحكام الشرعية ، يستند الصوفيون كذلك إلى المرجعين نفسيهما ..



الولاية

ليس من اللائق ولا المناسب أن يتصدر أحد الى تعريف الولاية أو يبتدع تعريفا لها بعد تحديد الله سبحانه وتعالى لها ، إنه سبحانه وتعالى يقول عن الأولياء إنهم ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:63]، وأظهر الله تعالى رعايته لهم وعنايته بهم ، فقال ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [يونس:62]، وزاد الله تفضلا بالنسبة لهم ، فقال : ﴿ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾[يونس: 64]، كما بين الله جمال الثمار التى تجتنى من الولاية فقال ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[يونس: 62 – 64] ..

وكل حديث عن الولاية هو تفسير لهذه الآيات الكريمة ، ومن ذلك الحديث القدسى الذى رواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ إن الله تعالى قال « **من عادى لى وليا آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل**

حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ،وإن سألنى أعطيته ، وإن أعاذنى لأعيذنه » ..

صفة الولى :

و صفة الولى كما دل رسول الله ﷺ على صفة الأولياء فقال : « الذين إذا رؤوا ذكر الله عز وجل » ، وفى هذا الحديث الكثير من الدلالة التامة ، فأولياء الله تعالى هم الذين إذا رآهم المؤمن عظم ربه ، وتذكر ذنبه » ..

وقال أبو العباس المرسى إن معرفة الولى أصعب من معرفة الله ، فإن الله معروف بكماله وجماله ، لكن متى تعرف مخلوق مثلك ، يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب ، فأولياء الله أهل كهف الإيواء فقليل من يعرفهم ، فقد قال الله فى أهل الكهف ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ ..

والكرامة ليست من شرط حصول الولاية ، فقد تحصل الكرامة ، لكن إن وقعت لولى ، فهى دالة على صدق عبادته ، وعلو مكانته ، بشرطا إتباعه لحقيقة ما أمر به النبى ﷺ ، وإلا فهى خزلان من الشيطان ، ومن الصالحين من يعلم بولايته ، ويعلم غيره بها ، ومنهم من لا يعلم بنفسه ، ولايعلم به ،

ومنهم من يعلم به ولا يعلم هو بنفســه ، والعالمون بها : منهم من يكتمها جهد استطاعته ، ومنهم من يظهرها ويصرح بها ، ومن أنكر كرامات الأولياء فالدلائل النقلية ترد عليه ..

الولاية هى النبوة الكبرى:

إذا ســمعتم لفظة مبهمة من عارف محقق وهو أن يقول أن الولاية هى النبوة الكبرى والولى العارف مرتبته فوق مرتبة الرسول ، فاعلم أنه لاعتبار الأشخاص من حيث ما هو إنســان فلا فضــل ولا شــرف فى الجنس بالحكم الذاتى وإنما يقع التفاضــل بالمراتب ، فالأنبياء صــلوات الله عليهم ما فضــلوا على الخلق إلا بالمراتب ، فالنبى ﷺ له مرتبة الولاية والمعرفة والرســالة ، ومرتبة الولاية والمعرفة دائمة الوجود ومرتبة الرســالة منقطعة ، فإنها تنقطع بالتبليغ والفضــل للدائم والباقى ، والولى العارف مقيم عنده والرسول خارج وحالة الإقامة أعلى من حالة الخروج فهو ﷺ من كونه وليًا وعارفا أعلى وأشــرف من كونه رســولا وهو الشــخص بعينه وإن اختلفت مراتبه ، لا أن الولى من الأولياء أرفع من الرســول لا نعوذ بالله من الخذلان ، فعلى هذا الحد يقصــد أصــحاب الكشف والوجود (□) ..

(□)رسائل ابن عربى – كتاب القربة – محيى الدين بن عربى ص 97 .

سوء الخاتمة:

ويخشـى على من ينكر الكرامات سـوء الخاتمة ومن الناس فرقة أخرى صـدقوا بكرامات الأولياء الذين ليسـوا فى زمنهم كمعروف الكرخى وسـرى السـقطى والجنيد وغيرهم وكذبوا بكرامات أولياء زمانهم ، فهم كما قال أبو الحسـن الشـاذلى ما هى إلا إسرائيلية ، صدقوا بموسى وعيسى وكذبوا بمحمد ﷺ لأنهم أدركوا زمانه ..

وكل كرامة لولى هى معجزة لذلك النبى الذى هذا الولى متبع له ، فلا تنظر إلى التابع ولكن أنظر إلى عظيم المتبوع ، فظهور الكرامة على شخص إنما هى إشادة بصدق طريق متبوعه ، فهى بالنسـبة إلى من ظهرت عليه وهو ذلك الولى كرامة ، وهى بالنسـبة لمن ظهرت ببركات متابعته معجزة فأنظر إلى المتبوع لا التابع ..

وكرامات الأولياء كثيرة ولا تحصى ، ففى البخارى أن رجلين خرجا من عند رسول الله ﷺ فى ليلة مظلمة ، فإذا النور بين أيديهما حتى تفرقا فتفرق النور معهما ، وفى البخارى أيضـا : أن عمران بن حصـين كانت تكلمه الملائكة ، كما نادى عمر بن الخطاب: «يا سـارية الجبل» يحضـه الرجوع الى الجبل حذرا من العدو وبينهما مسـيرة أيام فرآه وسمعه سارية ، فرجع إلى الجبل وسلم من العدو ..

وهذه الكرامات لا تزال تصــدر عمن لهم الولاية حتى يومنا هذا ، وقد شــاهدت بنفسى كرامات لأشياخ الطريقة الخليلية لا سيما ما رأيته على يد الشيخ صالح أبو خليل من كرامات كثيرة لا تخطئها العين ولا ينكرها العقل ، فلا حرج على فضــل الله ، وأولياء الله سبحانه وتعالى لا يستعبد قلوبهم صنم من الأصنام الكثيرة التى تتمثل فى شهوة أو جاه أو ثراء ، وقلوبهم ملأى بالله سبحانه ..

الحقيقة المحمدية :

إن الأنوار الظاهرة فى أولياء الله إنما هى من إشــراق أنوار النبوة ، فمثل الحقيقة المحمدية كالشمس ، وقلوب الأولياء كالأقمار ، وإنما أضاء القمر لظهور نور الشمس فيه ومقابلته إياه ، فإذا الشــمس منيرة نهارا ، ومضــيئة أيضــا ليلا ، لظهور نورها فى القمر الممدود منها ، فإذا هى لا غروب لها فقد فهمت من هذا أنه يجب دوام أنوار الأولياء لدوام ظهور نور رسول الله ﷺ فيهم ، فالأولياء آيات الله يتلوها على عباده بإظهاره إياهم واحدا بعد واحد ، ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[الجاثية: 6] ..

ويقول أبو العباس المرسى رضى الله عنه فى تأويل ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ [البقرة :106] ، أى ما نذهب من ولى لله إلا ونأت بخير منه أو مثله ، وســئل بعض العارفين عن أولياء الله هل ينقصــون فى زمن واحد ؟؟ ، فقال: لو نقص منهم واحد ما أرسلت السماء مطرها ، ولا أبرزت الأرض نباتها ..

وفساد الوقت لا يكون بذهاب أعدادهم ، ولا بنقص إمدادهم ، ولكن إذا فسد الوقت كان مراد الله سبحانه وتعالى وقوع اختفائهم مع وجود بقائهم ، فإذا كان أهل الزمن معرضين عن الله ، مؤثرين لما سوى الله ، لا تنجح فيهم الموعظة ، لم يكونوا أهلا لظهور أولياء الله فيهم ولذلك قالوا : أولياء الله كعرائس و لا يرى المجرمون العرائس .. ولذلك فهم يؤثرون الخفاء فى وقت يسود فيه حب الدنيا والهوى ، مع أنه لابد أن يكون منهم فى الوقت أئمة ظاهرون قائمون بالحجة سالكون لقول رسول الله ﷺ : « لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من ناوأهم الى قيام الساعة » ..

نوعا الولاية :

وقيل أن هناك نوعين من الولاية : ولى يتولى الله ، وولى يتولاه الله ، وفى الأولى قول الله ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة :56] .. وقال فى الولاية الثانية : ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأعراف: 196]..

فمن رضى بالقضاء والصبر عند نزول البلاء والتوكل على الله عند الشدائد والرجوع إليه عند النوائب وكلها من أعمال المجاهدة ، الى جانب متابعة السنة والاقتداء بالأئمة ، فقد صحت ولايته لله وللرسول وللمؤمنين وهذا هو المريد ..

فى حين من نهل من خزائن المنة على بساط المحبة فقد تمت ولاية الله له بقوله ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وهو المراد ، ففرق بين الولايتين ، عبد يتولى الله ، وعبد يتولاه الله فهما ولايتان : صغرى وكبرى فولايتك لله خرجت من المجاهدة ، وولايتك لرسوله خرجت من متابعتك لسنته ، وولايتك للمؤمنين خرجت من الاقتداء بالأئمة ..

والصلاح فيمن يتولاه الله هو صلاح الذين صلحوا لحضرته بتحقيق الفناء عن خلقه، وليس الصــلاح العادى المتعارف عليه عند أهل الطريق عند تصــنيف المراتب كالقول بأن فلان صالح أو شهيد أو ولى ، ولكن أريد بالصالحين المرسلين ، كقول الله حاكيا عن يوسف ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف:101]، فقصد المرسلين من آبائه من أهلهم الله لنبوته ورسالته ..

يقول الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : فى بعض كتب الله المنزلة على بعض أنبيائه قال الله : **« من أطاعنى فى كل شىء أطعته فى كل شىء »** ، فقال أبو الحسن : أى من أطاعنى فى كل شىء بهجرانه لكل شىء أطعته فى كل شىء بأن أتجلى له فى كل شىء حتى يرانى أقرب إليه من كل شىء ، وهى طريق السالكين ..

ومن منة الله على عباده أن الله سبحانه وتعالى إذا تولى وليا صان قلبه من الأغيار وحرسه بدوام الأنوار ، حتى لقد قال بعض العارفين : إذا كان الحق سبحانه قد حرس السماء بالكواكب والشهب كيلا يسترق السمع منها ، فقلب المؤمن أولى بذلك لقول الله سبحانه وتعالى فيما يحكيه عنه رسول الله ﷺ « **لم تسعنى أرضى ولا سمائى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن** » ..

كسوتا الجلال والبهاء :

إن من أراد الله به أن يكون وليا مربيا داعيا إليه من أوليائه ، فلابد من إظهاره للناس والإشارة إليه وكشفه للعباد إذ لا يكون الدعاء إلى الله إلا كذلك ، ثم لابد أن يكسوه الحق سبحانه وتعالى كسوتين : الجلال والبهاء ..

أما الجلال فيعظمه العباد ويقفون على حدود الأدب معه ، ويزرع الحق له فى قلوب الناس هيبة يبصره بها ، ليكون إذا أمر ونهى مسموعا أمره ونهيه ، وجعل الحق هذه الهيبة فى قلوب العباد من تمكين الحق له ليعينه على القيام له بالنصرة ، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[الحج:120] ، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[المنافقون:8] .

وقد رأت عينى ذلك النوع من حال الجلال على الشيخ صالح أبو خليل رضى الله عنه فيهتز له من يقف أمامه أيا كان سلطانه ومنصبه على نحو لاتخطئه العين أبدا فهذه سمة من يلبسه الحق من أوليائه كسوة الجلال وكأن جيوشا من الجند والحرس تقف خلفه وورائه ..

هذه الهيبة التى جعلها الحق فى قلوب العباد لأوليائه سرت فيهم من مشكاة هيبة سيدنا النبى التى أعطيها من الله ، ألم يقل ﷺ « **نصرت بالرعب مسيرة شهر** » ؟؟ فقد ألبسهم الحق ملابس هيبته ، وأظهر عليهم إجلال عظمته ، فهم والله الملوك وإن لم تحط بهم جحافل الجند والعسكر ولم تمش أمامهم الجيوش ..

الكسوة الثانية التى يكسوها الحق لأوليائه إذا أظهرهم هى كسوة البهاء ، ليحليهم فى عيون عباده فينظرون إليهم بعين الألفة والمحبة ، حتى إذا جلست بجوار الولى المربى واحدة من ملكات الجمال فإنها لاتصرف نظر العباد عنه إليها ، هذه الألفة والمحبة تكون باعثا للعباد على الإنقياد إليهم ، ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: 39] ،

و كذ لك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: 96] ، فحلاهم الحق بحلية الهيبة ليحبهم العباد فيجرهم حبهم إلى حب الله ، والحب فى الله يوجب المحبة من الله لقوله « **وجبت محبتى للمتحابين فى** » (حديث) ..

وقال الشـيخ أبو الحسـن رضـى الله عنه : من أحب الله وأحب لله فقد تمت ولايته بالحب ، فالمحب لا سلطان له على قلبه لغير محبوبه ، ولا مشيئة له غير مشيئته ، وبالتالى من ثبتت ولايته من الله لا يكره الموت ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الجمعة: 6] ..

حلة الحق :

سئل أحد العارفين عن تهافت العباد عليه وتقبيلهم ليده وجسده وهو يتركهم يفعلون ذلك ؟؟ قال : هذه حلة حلانيها ربى ليست لى ، فكيف أمنعها عن غيرى !! .. وسئل آخر إن كان تقبيل الناس ليده يترك فى نفسه شيئا ؟؟ قال : هل تقبيل الرسل والأنبياء والأولياء والعباد والملوك والرؤ ساء والأمراء للحجر الأ سود يخرجه عن حجريته ؟؟؟ قالوا : لا لم يخرجه ذلك عن كونه حجرا .. قال : أنا ذلك الحجر ..

كما أن الولى يكون ممدودا بالمعارف والعلوم والحقائق ومشـهودة لديه ، حتى إذا أعطى العبارة كان الإذن له من الحق فى الكلام ، ومن يؤذن له بالتعبير بهيت وحسـنت وراقت فى مسامع الخلق عبارته ، وحليت لديهم إشارته وكلماته ..

نقل عن الشــيخ أبو العباس المرســى قوله : كلام المأذون له يخرج وعليه كســوة وطلاوة ، وكلام الذى لم يؤذن له يخرج مكســوف الأنوار ، حتى أن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة فتقبل من أحدهما وترد على الآخر ، فمن تحقق بالعبودية لله لم يطلب ظهورا ولا خفاء ، بل إرادته وقف على اختيار ســيده له ، ومن أحب الظهور فهو عبد الظهور ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء ، ومن كان عبدا لله فسواء عليه أظهره أو أخفاه ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾[الزمر: 36] ..

الولى مضطر دائما :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل: 62] ، قال أحد العارفين أن الولى لايزال مضطرا ، لأن اضطرار العامة يتعلق بمسببات الأسباب ، فإذا زالت زال اضطرارهم ، وذلك لغلبة دائرة الحس على مشهدهم ، فلو شهدوا قبضة الله الشاملة المحيطة لعلموا أن اضــطرارهم إلى الله دائم ، لأن الاضــطرار تعطيه حقيقة العبد إذ هو من الممكنات ، وكل ممكن مضــطر إلى ممد يمده ومدد يمد به ، وكما أن الحق ســبحانه هو الغنى أبدا ، فالعبد مضــطر إليه أبدا ، ولا يزال العبد محتاج لهذا الاضــطرار فى الدنيا والآخرة ، ولو دخل الجنة ، فهو محتاج إلى الله فيها ..

وقد عاتب الله قوما إضطروا إليه عند وجود أسباب ألجأتهم إلى الإضطرار فلما زالت زال إضطرارهم ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ [الاسراء: 67] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: 12] ..

والدليل على أهمية رتبة ودرجة الاضطرار ، أن الحق سبحانه وتعالى أوقف الإجابة عليه ، فقال : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل: 62] ، وإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يعطى عبدا شيئا وهبه الاضطرار إليه فيه ، فيطلب باضطرار ، فيعطى ، وإذا أراد الله أن يمنع عبدا أمرا منعه الاضطرار إليه ، ثم منعه إياه و قامت حجة الله على العبد : لو اضطررت إلينا لأعطيناك ، فلا يخاف عليك أن تضطر وتطلب فلا تعطى ، بل يخاف عليك أن تحرم الاضطرار ، فتحرم الطلب ، أو تطلب بغير اضطرار فتحرم العطاء ..

من ثبتت ولايته حرمت محاربته :

وإياك ومعاداة أهل لا إله إلا الله ، فإن لهم من الله الولاية العامة ، فهم أولياء الله وإن أخطأوا وجاؤوا بقراب الأرض خطايا لا يشركون بالله لقيهم الله بمثلها مغفرة ، ومن ثبتت ولايته حرمت محاربته ، ومن حارب الله فقد ذكر الله جزاءه فى الدنيا والآخرة ، وكل من لا يطلعك الله على عداوته لله فلا تتخذه عدوا ، وأقل شىء أن تهمل أمره ، فإذا تحققت أنه عدو الله وليس إلا المشرك فتبرأ منه كما فعل إبراهيم فى حق أبيه آزر ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُ ﴾ [التوبة: 114] ..

وإحذر قول الله تعالى فى الصحيح : «من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » ، فإنه إذا جهل أمره وعاداه فما وفى حق الله فى خلقه فإنه ما يدرى علم الله فيه وما بينه الله له حتى يتبرأ منه ويتخذه عدوا ، فإن الاسم الإلهى الظاهر يخاصمك عند الله فلا تجعل لله عليك حجة فتهلك ﴿ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ ﴾[الأنعام:149] ..

لقد تتابعت الرسل على اختلاف الأزمان والأحوال ، وكل واحد منهم يصدق صحبه، ما اختلفوا قط فى الأصول التى استندوا إليها وعبروا عنها وإن اختلفت الأحكام، فتنزلت الـ شرائع ، ونزلت الأحكام ، وكان الحكم بحـ سب الزمان والحال كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[المائدة: 48] فاتفقت أصولهم من غير خلاف فى شىء من ذلك ..

الشيخ أبو خليل والعلماء الثلاثة :

ذات يوم فى ز مان العارف بالله الشـيخ الحاج محمد أبو خليل مؤسـس الطريقة الخليلية ، اتفق ثلاثة من علماء الأزهر - وكان أحدهم يعرف الشيخ أما الآخران فينكران كرامات ومقامات العارفين بالله – اتفق الإثنان مع الثالث الذى يعرف الشيخ أن يقدمهما الى الشيخ ، وقالا لثالثهما : أننا سنظهر الشيخ أمامك بمظهر العاجز .. فقال لهما : كيف ذ لك ؟؟ فقال أ حد هما : سـأطلب من الشـيخ أن يأمر أ حد أتباعه بتفسـير آ ية ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ و سيطلب زميلى بعدى بتفسير سورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ وعند حدوث أى خطأ فى التفسير سنقف و سط السرادق ونتكلم بما يحلوا لنا .. وإتفق الثلاثة وأقسموا أن يظل الأمر سرا ..

وذهبوا الى الـ شيخ فبادرهم الـ شيخ قائلا : أهلا .. أهلا برجال العلم .. وفى الحال أمر الشـيخ أحد أتباعه بتفسـير الآية الأولى ، وقال لأحدهم لك أن تختار أى شـخص فى الـ سرادق للتفـ سير ، فقام العالم واختار شخـ صا ، فأمره الـ شيخ بالتفـ سير ، وا ستمر هذا الشخص فى التفسير حوالى الساعة ، فأذهل الجميع ، وبعد انتهاء التفسير ، نظر الشيخ الى العالم الثانى وقال له : أيكفيك هذا ؟؟ أم نأمر أحد أتباعنا بتفسـير ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ فذهلا وطلبا الصفح والعهد .. فتم لهما ما أرادا ..

الشاذلى وابن البراء :

عندما نزل أبو الحسـن الشـاذلى تونس فى بداية عهده بها اجتمع حوله خلق كثير ، فسمع به الفقيه أبو القاسم بن البراء وكان فى ذلك الوقت قاضى البلاد ، فأصاب الشاذلى منه حسد كثير ، وطلب ابن البراء إليه أن يناظره فلم يقدر على التمكن منه ، فقال للسلطان وهو الأمير أبو زكريا أن ههنا رجلا من أهل شـاذلة سـواق الحمير يدعى الشـرف ، والتف حوله خلق كثير ، ويدعى أنه الفاطمى ويشوش عليك فى بلادك (□) ..

(□)المفاخر العلية فى المآثر الشـاذلية –أحمد بن محمد بن عباد المحلى الشـافعى المتوفى فى 1153 هجرية ص26 .

(قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى قلت يارب : لم سميتنى بالشاذلى ولست بشاذلى ، فقيل لى يا على ما سميتك بالشاذلى ، وإنما أنت الشاذلى – بتشديد الذال المعجمة – يعنى المفرد لخدمتى ومحبتى)

وكان السلطان أبو زكريا قد اجتمع بابن البراء وجماعة من الفقهاء بشأن هذه القضية ، وجلس السلطان خلف ساتر أو حجاب ، وحضر الشيخ أبو الحسن الشاذلى وسألوه عن حسبه مرارا وتكرارا والشيخ يجيبهم ، والسلطان يسمع ، وتحدثوا معه فى العلوم فأفاض عليهم بعلوم أ سكتهم بها ، فما ا ستطاعوا أن يجاوبوه عنها من العلوم الوهبية ، والشيخ يتكلم معهم بالعلوم المكتسبة ، ويشاركهم فيها ، فقال السلطان لابن البراء هذا رجل من أكابر الأولياء وما لكم به طاقة ، فقال له : والله لئن خرج فى هذه الساعة ليدخلن عليك أهل تونس ويخرجوك من بين أظهرهم ، فإنهم مجتمعون ببابك ، فخرج الفقهاء وأمر السلطان الشيخ أبو الحسن بالبقاء ، فطلب الشيخ أن يدخل عليه أحد أ صحابه ، الذي قال له: يا سيدى الناس يتحدثون فى أمرك ويقولون يفعل السلطان به كذا وكذا من أنواء سوء الأدب وبكى بين يديه ،

فتبسم وقال : والله لولا أنى أتأدب مع الشرع لخرجت من ههنا ومن ههنا وأشار بيده ، فمهما أشار بيده انشق الحائط ثم قال ائتنى بإبريق وسجادتى وسلم على أصحابى وقل لهم : ما نغيب عنكم إلا اليوم خاصة ، وما نصلى المغرب إلا معكم إن شاء الله تعالى ..

قال الشيخ أبو الحسن: فهممت بالدعاء على السلطان ، فقيل لى: إن الله لا يرضى لك أن تدعو بالجزع من مخلوق ، فألهمت أن أقول : يا من وسع كرسيك السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم أ سألك الإيمان بحفظك إيمانا يسكن به قلبى من هم الرزق وخوف الخلق ، وأقرب من بقدرتك قربا تمحق به عنى كل حجاب محقته عن إبراهيم خليلك ، فلم يحتج لجبريل رسولك ، ولا لسؤاله منك ، وحجبته بذلك عن نار عدوه ، وكيف لا يحجب عن مضرة الأعداء من غيبته عن منفعة الأحياء ، كلا إنى أسألك أن تغيبنى بقربك منى حتى لا أرى ولا أحس بقرب شىء ولا ببعده عنى، إنك على كل شىء قدير ..

وكان عند السلطان جارية من أعز جواريه عليه ، فماتت فى اليوم وتأثر السلطان بموتها وانشغلوا بدفنها، ونسوا مجمرة النار فى قبة السلطان فاحترق الفرش والملابس والذخائر والأموال ، فأدرك السلطان أن هذا من أجل الولى ، فسمع بذلك أخو السلطان وكان بعيدا فى بستان له ، فأتى مبادرا للشيخ وكان كثير التردد عليه والاعتقاد فيه ،

فقال لأخيه ما هذا الذى أوقعك فيها ابن البراء ، أوقعك والله فى الهلاك أنت ومن معك ، قام معه الملك ودخلا على الشيخ أبي الحسن وقال: أبو عبد الله اللحيانى للشيخ: يا سيدى أخى والله غير عارف بمقدارك ، وجعل يقبل يديه ورجليه ويسأله الصفح ، فقال له الشيخ : والله إن أخاك لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، كان ذلك فى الكتاب مستورا ، وخرج أبو عبد الله اللحيانى بصحبة الشيخ رضى الله عنه حتى وصل إلى داره فأقام الشيخ بتونس عدة أيام الى أن أمر أصحابه بالتوجه الى بلاد الشرق ..

قال الشيخ أبو العزايم ماضى بن سلطان أحد خدام الشيخ أبو الحسن ، كنا يوما ما شين برفقة الشيخ أبي الحسن ، وإذ بإبن البراء فسلم عليه الشيخ فأعرض ابن البراء عنه ولم يرد عليه السلام ، وإذا بالفقيه أبو عبد الله بن أبى الحسن حاجب السلطان لما رأى الشيخ ترجل عن بغلته وبادر الى الشيخ يقبل يديه ويطلب منه الدعاء فدعا له وانصرف ، فلما دخل الشيخ الدار ، قال : خوطبت الآن فى هؤلاء الاثنين ، أحدهما شقى والآخر سعيد ، حتى يوما سمعنا الشيخ أبا الحسن يقول لنا : يا فقراء أمنوا على دعائى فالآن أمرت أن أدعو على ابن البراء ثم بسط كفيه

فقال : اللهم طول عمره ولا تنفعه بعمله ، وافتنه فى ماله وولده ، واجعله فى آخر عمره خادما للظلمة ، واختم له بسوء العاقبة : فأما طول عمره فقد بان للناس وأما علمه ، فقد وعى علما كثيرا غير أنه لم يعبأ به أحد من بعده ، ولا يقال قال ابن البراء ، فمضى علمه ضيعا، أما ولده فكان يسكن فى علو داره فوق رأسه ، وكان يلهوا بالمغانى والخمور والمعاصى .. وأما فى آخر عمره فكان زمام الروم بيده يصبح الروم كل يوم على بابه يقولون أنعم صباحا يا سنيور ، فنسأل الله العافية ، وألا يبتلينا بكراهة أوليائه والإنكار عليهم ، فقد قيل إن الله عز وجل يقول : **« من آذى لى وليا آذنته بالحرب »** ..



العلم لدى أهل الله وعلماء الرسوم

أى العلم لدى من يفتون وهم على بصيرة من ربهم فى دعائهم إلى الله وهم على بينة منه، ﴿ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف: 108] ، وهم أهل الله أهل الحقيقة أهل الكشف ، فكلما تمكن الرجل من العلوم الإلهية والمعارف الربانية إستغرب فى هذا العالم ، فيقل من يعرفه ويفقد من يحيط به ، وبين علم أولئك الذين يفتون فى دين الله بغلبة الظن دون بصيرة وهم علماء النظر علماء الرسوم ..

من يفتون بغلبة الظن :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت: 53]، فكل آية منزلة لها وجهان : وجه يرونه فى أنفسهم ، ووجه يرونه فيما خرج عنهم ، فيسمون ما يرونه فى أنفسهم إشارة ليأنس الفقيه صاحب الرسوم إلى ذلك ولا يقولون إنه تفسير ، وقاية لشرهم وتشنيعهم بالكفر عليه وذلك لجهلهم بمواقع خطاب الحق ..

ولو كان علماء الرسوم ينصفون لإعتبروا فى نفوسهم إذا نظروا فى الآية بالعين الظاهرة التى يسلمون بها فيما بينهم ، فيرون أنهم يتفاضلون فى ذلك ويعلوا بعضهم على بعض فى الكلام فى معنى تلك الآية ، وبقى القاصر مفضلا على غير القاصر فيها وكلهم فى مجرى واحد ..

ومع هذا الفضـــل المشـــهود لهم فيما بينهم فى ذلك ، ينكرون على أهل الله إذا جاؤوا بشــىء مما يغمض عن إدراكهم ، وذلك لأنهم يعتقدون في أن أهل الله ليســوا بعلماء وأن العلم لا يحصــل إلا بالقلم المعتاد فى العرف ، وصــدقوا !! ، فإن أهل الله ما حصــل لهم هذا العلم إلا بالتعليم وهو الإعلام الرحمانى ، قال تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق] .

وهو القائل ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: 78] ، وقال : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن:3، 4] فهو ســبحانه معلم الإنســان فلا شــك أن أهل الله هم ورثة الرســل عليهم الســلام والله يقول فى حق الرســول ﷺ : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾[النساء:113] ، وقال فى حق موسى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [آل عمران: 48] ، وقال فى حق الخضر صاحب موسى : ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: 65] ..

علماء الرسوم والانسلاخ عن بعض الآيات:

قال تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا ﴾، فقوله: فانسلخ منها كما ينسلخ الرجل عن ثوبه والحية عن جلدها، فكانت عليه ردا، فلم يكن عنده منها سوى النطق لا الفهم، لأن للقلب وجهين ظاهرًا وباطنًا فباطنه لا يقبل المحو بل هو إثبات محقق وظاهره يقبل المحو هو لوح المحو ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾[الرعد:39]، فلو كان صاحب الكتاب مؤمنا بكل كتابه ما ضل أبدا ولكن آمن ببعض وكفر ببعض فهو الكافر حقا، قال تعالى ﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا ﴾[النساء:150، 151]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾ [البينة:6]، وبهذه المثابة هم أصحاب علم الرسوم وأكثر أهل النظر الفكرى من الفلاسفة وأصحاب الكلام يصدقون ببعض ما يأتى به أولياء الله مما يتحققون به من المواجيد والأسرار التى شاهدوها ووجدوها فما وافق نظرهم وعلمهم صدقوا به

وما لم يوافق نظرهم وعلمهم ردوه وأنكروه وقالوا هذا باطل لمخالفة دليلهم، ولعل دليل هذا المســكين من هؤلاء العلماء لم يكمل أركانه وهو يتخيل أنه كامل ، فالخوف على هؤلاء المنكرين الذين ينكرون علم أهل الحقائق من الصوفية ورفض ما يتحققون به من أن ينزع الله نور الإيمان من قلوبهم (□) ..

العلم يعلم بالتعليم :

لقد صدق علماء الرسوم – فعلا – فيما قالوا أن العلم لا يكون إلا بالتعليم ، غير أنهم أخطؤوا فى اعتقادهم أن الله لا يعلم من ليس بنبى أو رسول ، يقول الله : ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: 269] ، وهى العلم وجاء بمن وهى نكرة ..

يقول محى الدين بن عربى فى علماء الرســوم : ما خلق الله أشــق وأشــد من علماء الرســوم على أهل الله المختصــين بخدمة العارفين به من طريق الوهب الإلهى الذين منحهم أســراره فى خلقه وفهمهم معانى كتابه وإشــارات خطابه فهم لهذه الطائفة مثل الفراعنة للرسل عليهم السلام ..

(□)رسائل ابن عربى – كتاب الفناء – محى الدين بن عربى ص 11– المكتبة التوفيقية .

ولكن علماء الرسـوم لما آثروا الدنيا على الآخرة وآثروا جانب الخلق على جانب الحق وتعودوا أخذ العلم من الكتب ومن أفواه الرجال الذين من جنسهم ،

ورأوا فى زعمهم أنهم أهل الله بما علموا وامتازوا به على العامة ، حجبهم هذا الاعتقاد عن أن يعلموا أن لله عبادا تولى الله تعليمهم فى سرائرهم بما أنزل فى كتبه وعلى ألسنة رسله وهو العلم الصحيح عن العالم المعلم الذى لا يشك مؤمن ولا غير مؤمن فى كمال علمه (□) ..

فالله يتولى بعنايته بعض عباده بتعليمهم بنفسه بإلهامه وإفهامه إياهم : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس: 88] ، فبين لها الفجور من التقوى إلها ما من الحق لتجتنب الفجور وتعمل بالتقوى ، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ ، ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: 29] ...

(□)الفتوحات المكية – المجلد الأول – محى الدين بن عربى ص 351 .

أين علماء الرسـوم من قول على بن أبى طالب حين أخبر عن نفسـه أنه لو تكلم فى فاتحة الكتاب لحمل منها سبعين وقرا ، هل هذا إلا من الفهم الذى أعطاه الله فى القرآن ، هذا هو الفقيه وليس عالم رسـم ، فإن الله يقول فيهم ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة :122]..

فأقامهم مقام الرسـل فى التفقه فى الدين والإنذار وهو الذى يدعو الى الله على بصـيرة كما يدعو رسل الله على بصيرة لا على غلبة ظن كما يحكم علماء الرسوم ، وشتان الفرق بين من هو فيما هو يفتى به ويقول على بصـيرة منه فى دعائه وعلى بينة من ربه ، وبين من يفتى فى دين الله بغلبة الظن ..

ثم إن من شـأن عالم الرسـوم فى الدفاع عن نفسـه أن يجهل من يقول : فهمنى ربى ويقول بعد ذلك أنه أفضـل منه وأنه صـاحب العلم ، إذ يقول من هو من أهل الله : إن الله قد ألقى فى سـرى مراده بهذا الحكم فى هذه الآية ، أو يقول: رأيت رسـول الله ﷺ فى واقعتى فأعلمنى بصحة هذا الخبر المروى عنه وبحكمه عنده ،

قال أبو يزيد البسطامى رضى الله عنه مخاطبا علماء الرسوم : أخذت علمكم ميت عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت ، يقول أمثالنا :حدثنى قلبى عن ربى ، وأنتم تقولون : حدثنى فلان وأين فلان ؟؟ قالوا مات ، عن فلان وأين هو ؟؟ قالوا مات ..

وكان الشيخ أبو مدين رحمه الله إذا قيل له : قال فلان عن فلان عن فلان يقول : ما نريد أن نأكل قديدا ، هاتوا بلحم طرى ، ويرفع همم أصحابه قائلا هذا قول فلان ! ولكن أى شىء قلت أنت ما خصك الله به من علمه اللدنى ، أى حدثوا عن ربكم وأتركوا فلانا وفلانا فإن هؤلاء أكلوا لحما طريا والواهب الوهاب لم يمت وهو أقرب إليكم من حبل الوريد والفيض الإلهى والمبشرات ما سد بابها وهى من أجزاء النبوة والطريق وا ضحة والباب مفتوح والعمل مشروع والله يهرول ليلقى من أتى إليه يسعى ..

وفرق بين علماء الرسوم وأهل الله ، ما يتعلق بحديث الله فى الصوامت فهو عند العامة من علماء الرسوم حديث حال أى يفهم من حاله كذا وكذا حتى إنه لو نطق لنطق بما فهمه هذا الفاهم منه ، قال القوم فى مثل هذا :

قالت الأرض للوتد: لم تشــقنى ؟؟ ، قال الوتد لها : ســلى من يدقنى ، فهذا عندهم حديث حال وعليه خرجوا قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإ سراء: 44] ، وقو له ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ﴾ [الأحزاب: 72]..

وأما عند أهل الكشف فيسمعون نطق كل شىء من جماد ونبات وحيوان يسمعه المقيد بأذنه فى عالم الحس لا فى عالم الخيال كما يســمع نطق المتكلم من الناس والصــوت من أصحاب الأصوات ، فما عندهم فى الوجود صامت أصلا بل الكل ناطق بالثناء على الله ..

كما أنه ليس عند أهل الله ، أهل الكشــف أهل الحقيقة فى الوجود ناطق أصــلا من حيث عينه ، بل كل عين سوى الله صامتة لا نطق لها ، إلا إنها لما كانت مظاهر كان النطق للظاهر ، قالت الموجودات : ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: 21]

فالكلام فى المظاهر هو الأصل ، والصمت فيها عرض يعرض فى حق المحجوب ، والصمت فى الأعيان هو الأصل ، والكلام المسموع منها عرض يعرض فى حق المحجوب فلأ صحاب الحرف والصوت عذر عند هؤلاء ، ولمنكر الصوت والحرف عذر أيضا ، عندهم (□)..

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: 23] ، فهو عند أهل الله حكم ، وعند من لا علم لهم من علماء الرسوم بالحقائق بمعنى أمر ، وشتان ما بين المعنيين فى التحقيق ..

إنسجام بين التيارين :

ومع ذلك ، أتى حجة الإسلام الإمام الغزالى وألف كتابه القيم « إحياء علوم الدين » بعد أن نقح طرق التصوف بجميع آدابه وأركانه واصطلاحاته ، مقرا بما أقره المشايخ ومنتقدا لما يستوجب النقد ، فألف من جديد بين هذين التيارين المباركين اللذين يبدوان كأنهما مختلفان ووفق بينهما بانسجام تام ،

(□)الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية : للشعرانى ص 215 .

بحيث أن كثيرا من الصوفيين الذين أتوا من بعده وجدوا علمهم لونا من ألوان العلوم الشـرعية ، وبعدا من أبعادها ، فانتعشـت الوحدة والتعاون فى كل مكان ، حتى إنهم انسـجموا والتقوا مع الذين كانوا يطلقون عليهم اسـم علماء الرسـوم اسـتخفافا بهم ، وظهور توضـحيات متميزة فى علم التصـوف مثل الحقائق الوجدانية والذوقية الكثيرة كعلم الحال وعلم الخاطر وعلم اليقين وعلم الإخلاص ، وعلم الأخلاق ، وجدوا نقاط إلتقاء مشـتركة كثيرة لتوصـيلهم إلى الاتفاق والوفاق سـواء فى أرباب التصـوف أو أهل الظاهر ..

ولما كان التصـوف طريقا للعبادة جل اهتمامه الباطن ، ويتناول الجانب الروحى للأحكام الشـرعية ومدى تأثيرها على القلب ، والأعماق التى تشـف الوجدان ، فهو بالنسـبة للمسـالك الأخرى أكثر عمقا وأوسـع مدى وأصـعب فهما ، إلا أنه من حيث الهدف والمنطق نابع من الكتاب والسـنة لا ينافى أى طريق إسـلامى آخر بل هو كالعلوم الشـرعية الأخرى ، يؤكد على روح العلم والمعرفة واليقين والإخلاص والإحسـان وما شابهها من الحقائق ، مستندا إلى الكتاب والسنة والاجتهادات الخالصة للسلف الصالح ..

وبالتالى فمن الخطأ قطعا تناول المســألة وكأن هناك منافاة حقيقية بين أهل الحق من كلا الجانبين ، نظرا لأقوال ومفاهيم غير لائقة لقســم أو مجموعة من الفقهاء وعلماء الظاهر على المتصــوفة ، أو لقســم من المتصــوفة على الفقهاء ، فإن عدد هؤلاء الذين يثيرون مثل هذا الخلاف ، يعدون قطرة من بحر بالنســبة لمن يســلكون طريق التســامح والعفو والصفح ، وفى الحقيقة إن هذا أمر طبيعى للغاية ، لأن مرجع كلا الطرفين واحد، فمثلما يرجع الفقهاء إلى الكتاب والسنة فى الأحكام الشرعية ، يستند الصوفيون كذلك إلى المرجعين نفسيهما (□).



(□)الطبقات الكبرى للشعرانى ، ص 390 .

الفصل الثاني خطورة الظاهر دون الباطن

عندما خاطب الله الإنســان خاطبه بجملته وبكليته ، وما خص ظاهره من باطنه ولا باطنه من ظاهره ، ولا جزءًا دون آخر فتوجه أكثر الناس إلى معرفة أحكام الشـرع فى ظواهرها ، وأغفل الناس الأحكام المشــروعة فى بواطنهم إلا القليل وهم أهل الله ، فإنهم بحثوا فى ذلك ظاهرا وباطنا ، فما من حكم قرروه شرعا فى ظواهرهم إلا ورأوا أن ذلك الحكم له نســبة إلى بواطنهم ، فأخذوا على ذلك جميع أحكام الشــرائع ، فعبدوا الله بما شــرع لهم ظاهرا وباطنا ، ففازوا حين خسر الأكثرون ..

فمثلما الإيمان هو عين البيت ومجموعه الذى أعمدته وأركانه التلفظ بالشــهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج ، فعين إيمان الإنسان يجب أن يشمل جمعيته وكليته ، فلابد أن يكتمل بناء هذا البيت الإنســانى ولا يقتصــر فقط على أعمدته لكى يقى ســاكنيه باطنا من زمهرير جهنم وحرورها مثلما يقى ســكانه ظاهرا من حرارة الشــمس وبرودة الشتاء ..

ولهذا نقل عن ر سول الله ﷺ قوله : « **لكل آية ظاهر وباطن وحد ومطلع** » ، فالظاهر والباطن هو طبيعة كل شـــيء حتى القرآن الكريم لكل آية وجهين ظاهر وباطن ، ولا يجب الاســـتماع إلى من يقول أن تأويل الآيات نوع من التحايل أو الإحالة على كلام الله أوكلام رســـول الله ﷺ ، وإنما يكون ذلك لو قالت هذه الطائفة ، لا معنى للآية إلا هذا مثلا ، وهم لا يقولون ذلك ، بل يقر أهل الله الظواهر على ظواهرها مرادا بها موضـــوعاتها ، ويفهمون عن الله ما أفهمهم ، وربما فهموا من اللفظ ضد ما قصده واضعه ..

من ذ لك مثلا ما قا له أبو العباس المرســـى فى فهم آ ية ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا﴾ [الشـــورى:49]فقال إنها الحســـنات ، ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشـــورى:49]فقل :إ نها العلوم ، ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا﴾[الشـــورى:49]ف قال علو ما وحســـ نات ، ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى:49] فقال لا علم ولا حسنة ..

وفى فهمه للآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ ﴾[البقرة:67]، فقال بقرة كل إنسان نفسه ، والله أمركم بذبحها ، فهذا ليس إحالة للظاهر عن ظاهرة ، فظاهر الآية معروف ولكن تم إفهام باطنها لمن فتح الله على قلبه ، والأمثلة كثيرة لا حصر لها فى القرآن والحديث ، وهذا ما أشار إليه حديث الرسول ﷺ « **لكل آية ظاهر وباطن وحد ومطلع** » ..

هذا الفهم للمعانى الباطنية تختلف من عبد لآخر حسب كل مشرب حيث تختلف المشارب بين العباد باختلاف الأذواق التى تختلف بدورها باختلاف التجليات والمراتب بين الأشخاص من رجال الله ، وإلا ما كان هناك فرق بين أبى بكر وعمر عندما طلب منهما رسول الله ﷺ أن يأتيانه بما عندهما فجاء أبو بكر بكل ماله وجاء عمر بنصف ماله فقط وعندما سألهما الرسول ﷺ عما ترك كل واحد لأهله قال أبو بكر تركت لهم الله ورسوله وقال عمر تركت لهم شطر مالى ، فقال الرسول ما بينكما كما بين كلمتيكما ، فأدرك عمر فى نفسه أنه لن يسبق أبى بكر أبدا ، إنها المراتب والأذواق بين الرجلين ..

ومثال آخر عندما سـأل عمر بن الخطاب عددا من كبار الصـحابة كانوا بمجلسـه أن يقولوا قولا فيما فهموه من سـورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ فقال كل منهم ما فهمه الذى اختلف عن الآخر ، فطلب عمر من عبد الله بن عباس الذى كان وقتها لا يزال صـبيا صـغيرا أن يقول ما فهمه فقال ابن عباس غير ما قاله الكبار مشـيرا إلى أن الرسـول بتلاوته هذه الآية إنما كان ينعى نفسـه ﷺ ، وكان هذا الفهم ردا على اسـتنكار بعض الجالسـين لحرص عمر على تقريبه لابن عباس فى مجلسـه بين الكبار والاسـتماع إلى تأويله بما فتح الله عليه رغم صغر سنه آنذاك ..

وينطوى الأخذ بالظاهر دون الباطن على خطورة كبيرة ، هذه الخطورة تتمثل فى خيط رفيع بين الإيمان الصحيح وبين الخروج عن السراط المستقيم ، بل قد يدفع بصاحبه إلى مصاف أولئك الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وضلوا الطريق ..

المنافقون من بين أهل الظاهر :

وبالتالى فإن الإيمان عين طهارة الباطن لا الظاهر ، وإلا لما كان المنافقون فى النار وهم الذين نطقوا ظاهرا بالشـهادة وأقاموا الصـلاة وآتوا الزكاة وغير ذلك من الفروض المشروعة ..

ولهذا كان المنافق فى الدرك الأســفل من النار وهو باطن النار ، وأن المنافق معذب بالنار التى تطلع على الأفئدة ، إذا أتى فى الدنيا بصورة ظاهر الحكم المشروع من التلفظ بالشهادة ، وإظهار تصديق الرسل والأعمال الظاهرة وما عندهم فى بواطنهم من الإيمان مثقال ذرة ، لأنهم عبدوا بالظاهر دون الباطن ..

ولهذا تميزوا عن الكفار وقيل فيهم: إنهم منافقون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: 140] ، فالمنافقين يعذبهم فى أسفل جهنم ، والكافرين لهم عذاب فى الأعلى والأســفل ، فإن الله قد رتب مراتب للعذاب وطبقات لهذا العذاب فى نار جهنم مخصوصة على ميزان معلوم (□)..

ويروى عن رسول الله ﷺ ، أن رسول الله ﷺ كان جالسا مع أصحابه فى المسجد فسمعوا هزة أو هدة عظيمة فارتاعوا فقال رسول الله (ص) « أتعرفون ما هذه الهدة ؟ » ، قالوا الله ورسوله أعلم ؟؟ قال : «حجر ألقى من أعلى جهنم منذ سبعين سنة، الآن وصل إلى قعرها فكان وصوله إلى قعرها وسقوطه فيها هذه الهدة » ..

(□)الفتوحات المكية – المجلد الأول – محيى الدين بن عربى .

فما فرغ ﷺ من كلامه إلا والصــراخ فى دار منافق من المنافقين قد مات وكان عمره سبعين سنة فقال رسول الله ﷺ « الله أكبر » ، فعلم علماء الصحابة أن هذا الحجر هو هو ذاك المنافق وأنه منذ خلقه الله يهوى فى نار جهنم وبلغ عمره سبعين سنة فلما مات وصل إلى قعرها ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء: 145]، فكان سماعهم تلك الهدة التى أسمعهم الله إياها ليعتبروا ..

فالمؤمن ليس للنار اطلاع على محل إيمانه فما له نصــيب فى النار التى تطلع على الأفئدة ، قال رســول الله ﷺ فى « **المؤمن يشــرب الخمر ويســرق ويزنى ، أنه لا يفعل شــيئا من ذلك وهو مؤمن حال يفعله ، وقال: إن الإيمان يخرج عنه فى ذلك الوقت حال الفعل** » .

وقد تأول الناس فى هذا الحديث على غير مقصود المشرع ، وفسروا الإيمان بالأعمال : أنه أراد العمل ، فأبان النبى ﷺ مراده فى الحديث الآخر فقال : إن العبد إذا زنى خرج عنه الإيمان حتى يصير كالظلة فإذا أقلع رجع إليه الإيمان ..

فالحكمة الإلهية أن العبد المؤمن إذا شرع فى المخالفة التى هو مؤمن بها أنها معصية فقد عرض نفسه بفعله لنزول عذاب الله عليه وإيقاع العقوبة به ، وأن ذلك الفعل يستدعى وقوع البلاء به من الله فيخرج عن إيمانه الذى فى قلبه حتى يكون عليه مثل الظلة ، فإذا نزل البلاء من الله يطلبه تلقاء إيمانه فيرده عليه ، فإن الإيمان لا يقاومه شىء ويمنعه من الوصول إليه ، رحمة من الله وهذا ما أوضحه الرسول ﷺ ..

ولهذا فإن العبد المؤمن لا يخلص له أبدا معصية لا تكون مشوبة بطاعة وهى كونه مؤمنا بها أنها معصية فهو من الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فقال الله فيهم : ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [التوبة: 102] والتوبة هى الرجوع فمعناها أن يرجع عليهم بالرحمة فإنه تعالى تمم الآية بقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: 102] ، وقال العلماء عسى من الله واجبة فإنه لا مانع له ..

منافق الظاهر يصلى ويصوم :

إن منافق الظاهر فى عالم الشهادة يصلى ويتطهر ولا يؤمن بوجوبها عليه بقلبه ولا يعتقده والمؤمن يعتقد وجوب الصلاة مثلا ولا يصلى ولا يتطهر ، فالطهارة الباطنة والظاهرة أقوى والباطنة أوجب ..

و سوف أ سوق بعض الأمثلة بشأن حكم الباطن فى بعض الأمور المشروعة ظاهرا ، فى الوضـــوء مثلا ، وســـوف أكتفى بالحديث عن حكم الباطن فالظاهر معروف للجميع حول كيفية الوضوء :

فحكم الباطن فى غســـل الوجه يعنى أن الحياء من الله أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك ، وأما الســـنة منه الحياء من الله أن تكشـــف عورتك فى خلوتك فالله أولى أن تستحى منه مع علمك أنه ما من جزء فيك إلا وهو يراه منك ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: 22 ، 23] ..

وحكم الباطن فى غســـل اليدين والذراعين أى غســـل اليدين بالكرم والجود والســـخاء والإيثار والهبات وأداء الأمانات، والذراعين للاعتصام والاعتضاد، فإن المؤمن كثير بأخيه .

وحكم الباطن فى مسح الرأس أن الرأس من الرياسة وهى العلو والإرتفاع ومنه رأس القوم وســـيدهم ، وقد وصـــف الله نفســـه بالفوقية لشـــرفها قال تعالى ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل: 50] ، وقال : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام: 181]

فكان الرأس أقرب عضـــو فى البدن إلى الحق لمناســبة الفوق ، فضــلا عن أن الرأس محلا جامعا لكل القوى المحركة للبدن ، كما جعل الرأس محلا للعقل الذى جعله الله أشـرف ما فى الإنســان فمن هنا يمســح الرأس كله ، فضــلا عن ذلك يعنى إزالة الكبرياء والشموخ بالتواضع والعبودية ..

حكم الباطن فى مسح الأذن ، فهما عضو مستقل ، فيمسح با ستماع القول الحسن ، ويقع التفا ضل بين حسن إلى أحسن ، وأعلاه حسنا وهو ذكر الله بالقرآن ، والإ صغاء إلى قارئه ..

حكم الباطن فى غســـل الرجلين ، وهى الســعى إلى الجما عات وكثرة الخطا إلى المساجد والصلاة والثبات يوم الزحف مما تطهر به الأقدام ، وعدم المشى بالنميمة بين الناس ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا ﴾[لقمان: 18] ، ﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ ﴾ [لقمان: 19] ، وسيرك فيما ندبك الشرع إليه ، وما أوجبه عليك ..

حكاية :

مات رجل من أهل الصفة على عهد رسول الله ﷺ فوجد فى متاعه ديناران، فقال الرسول ﷺ : « **كيتان من نار** » ، وقد مات على عهد رســول الله ﷺ كثير من الصـحابة وتركوا أموالا فما قال عنهم مثل ما قال فى هذا ، لأنهم لم يبطنوا خلاف ما أظهروا ،

وهذا الذى كان من أهل الصفة أظهر الفاقة ، وكان عنده هذان الديناران ، فلما أظهر خلاف ما أبطن قال الرسول ﷺ «**كيتان من نار**»(بتشديد الياء) ، وقد قال الرسول ﷺ :« **التاجر الصدوق يحشر مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين** » (رواه بن ماجه والحاكم والترمزى) ..

***

التفسير الظاهرى والتفسير الإشارى:

إن القرآن كلام الله ، وكلامه صفته وصفته تدل دلالة على الموصوف ، ولأن الموصوف هو الحق سبحانه لاتدرك حقيقته فكذلك صفته ، وبالتالى وقف العلماء أمام كلام الله حائرين لانجزم بتحديد مراميه ، ولايقطع أحد بأن التفسير الفلانى هو عين مراد الحق منه ، لأن كلام الله القديم إنما يفسره المفسرون بلغتنا العربية ، واللغة العربية حديثة محدثة بناء على مدركات عقول بشرية ، كما أن اللغة من صنع المخلوق ، وكلام المخلوق محدود ، لأنه يعبر عن محدود ، وبالتالى محال أن يحيط بالتعبير صنع المخلوق المحدود عن كلام الله وصفته التى لاتحدها الحدود ..

فأنت تقرأ مثلا الفارسية والتركية لأنها تكتب بحروف شبه الحروف العربية ولكن لاتستطيع أن تفهم معناها رغم كونها نفس أشكال حروف لغتك العربية ، مثل لغة القرآن فإنها وإن كتبت بالعربية ولكن هو كلام الله بلسان عربى ظاهرا لا باطنا وليست كلمات عربية ، فكيف لمتحدث اللغة العربية كل سلاحه فهم التركيب اللغوى للحروف والكلمات أن يصل إلى مرامى ومقاصد كلام الله الناطق الذى ليس هو ككلام البشر ، هذا مستحيل ، إلا من شاء الله له أن يفهم وأن يعلم ..

من هنا كان القرآن حمالا لوجوه عدة من المعانى ، وكان طبيعيا ما يتجدد فيه كل يوم من مفاهيم وفهوم ، وستظل تلك المعانى تتجدد إلى ما شاء الله ، وسيبقى القرآن معها لايكشف عن حقيقة مراده ..

وبالتالى ليس من المستغرب أن يذهب المسلمون من خلال مذاهب شتى لتأويله ، فعلماء الشريعة يقفون عند ظاهر اللفظ ، وما دل عليه الكلام من الأمر والنهى والقصص والأخبار والتوحيد ، وأهل التحقيق أو الصوفية يقررون هذا أيضا ويرونه الأصل ولكن لهم مذاقات لايمكنهم إغفالها لأنها بمثابة واردات أوهواتف من الحق لهم ، فلا ينبغى أن نوقف القرآن عند تفسير معين على أنه المراد ..

والوقوف فى تفسير كلام الله عند العقل المحدود يقيده من الانطلاق فيما وراء الغيوب وإغلاق الباب فى وجه مذاقات ليس العقل مجالها لأنها لا تخضع لمقاييسه ، لأن هناك ما فوق العقل وهو القلب تلك اللطيفة التى تدرك بها هذه المذاقات ، وليس المقصود بالقلب قطعة اللحم الصنوبرى ، وإنما المراد به تلك اللطيفة النورانية الربانية ﴿ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾..

ويتضح بعد ذلك ، أنه لا مجال لمعترض ممن ينكر على الصوفية وأهل التحقيق مذاقاتهم فى قرآن الله الكريم وكلامه القديم ، ويراها ميلا بكلام الله عن مجراها ما داموا لا يأخذون بمذاقاتهم وحدها ، وإنما يأخذون بها مع إقرارهم لتفسير أهل الشرع ..

ظاهر وباطن وحد ومطلع :

وذلك مصداق للحديث الشريف : « لكل آية ظاهر وباطن وحد ومطلع » ، فظاهره حكم وباطنه علم ، ظاهره أنيق وباطنه عميق ، فالظاهر هو التلاوة ، والباطن هو الفهم ، والحد هو أحكام الحلال والحرام ، والمطلع هو مراد الله من العبد بها ..

ولا مجال بعد هذا التوضيح لإنكار من ينكر على الصوفية مذهبهم فى الإشارات وما يختصهم الله به من كلامه وكلام رسوله ﷺ من الأسرار والفيوضات ، على أن تلك الإشارات أمر مشروع أقره الحديث المذكور سلفا « لكل آية ظاهر وباطن وحد ومطلع » ..

وجوب كتم هذا العلم :

لقد قال الرسول ﷺ : « **إن من أمتى مكلمين ومحدثين وإن عمر منهم** » ، ومنهم الإمام على بن أبى طالب الذى أشار إلى صدره بعد أن تأوه مرتين ثم قال : (إن هاهنا علوما جمة لو وجدت لها حملة !!) ، ويروى عنه أيضا أنه قال : (لو شئت لأوقرت من تفسير الفاتحة سبعين بعيرا) ، وقال أبو الدرداء : لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوها .. وقال ابن مسعود : من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن .. وقال بعض العلماء : لكل آية ستون ألف فهم وما بقى من فهمها أكثر .. وقال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ يعنى الفم فى القرآن .. كما أن الرسول ﷺ دعا لابن عباس وقال : « **اللهم فقه فى الدين وعلمه التأويل** » ، هذا يؤكد أن التأويل مخصوص على اناس دون آخرين وليس تنزيلا محفوظا .. وقال الله :

﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[الأنبياء:79] سمى ما آتاهما حكما وعلما وخصص ما انفرد به سليمان بالفهم وجعله يسبق العلم والحكم ..

ولقد كان الحســـن البصـــرى رحمه الله إذا أراد أن يتكلم فى مثل هذه الأســـرار التى لا ينبغى لمن ليس من طريقها أن يقف عليها ، دعا بفرقد الســـبخى ومالك بن دينار ومن حضـــر من أهل هذا الذوق وأغلق بابه من دون الناس وجلس يتحدث معهم فى مثل هذا الفن فلولا وجوب كتمه ما فعل هذا ، وكذا أبو هريرة رضـــى الله عنه فيما ذكره البخارى فى صـــحيحه حملت عن النبى ﷺ جرا بين ، فأما الواحد فبثثته فيكم وأما الآخر فلو بثثته لقطع منى هذا الحلقوم ، وقال ابن عباس رضـــى الله تعالى عنه فى قوله تعالى ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ لو ذكرت تفسيره لرجمتمونى ولقلتم: إنى كافر ..

هؤلاء هم علماء الله الذين عناهم الحديث النبوى الشـــريف « **إن من العلم كهيئة المكنون لايعلمه إلا العلماء بالله تعالى فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرة بالله** » ، هذا ما عليه أهل الإشارات من مكانة عالية مرموقة ..

لا و لا وعلم الإشارة :

اشتكى رجل مرضا إحتار فيه الأطباء ، فقد رأى الرجل رسول الله ﷺ فى منامه يرشده إلى أن علاجه من مرضه فى أن يأخذ من ثمرة شجرة (لا و لا)

ويستعملها ففيها شفاؤه .. وحار الرجل فى تفسير رؤياه بعد أن استشار علماء الظاهر ، وحار معه فى حل رموزها علماء العصر ، حتى شاء الله له الخير فالتقى برجل من أهل التحقيق أهل الإشارة أقطاب الإشارة فأجابه على الفور : أمرك سهل ويسير يا أخى .. علاجك فى شجرة الزيتون ، فهى التى يقول الله فيها ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ ، وهذه ومضة خاطفة من قبس أنوار أهل الله أهل التحقيق أهل الإشارة ومكانتهم عند ربهم ، إنها علم الإشارات ..



العلم الوهبي والعلم الكسبي

الإكتساب بالحواس :

العلم الكسبى هو الذى يتم تحصيله عن طريق حواسنا وأفكارنا ، أما العلم الذى لم نكتسبه بشىء من حواسنا وأفكارنا بل هبة من الله عز وجل فهو العلم الوهبى فهذا من الله ، فى حين أن الكسبى من نفسك ، وإن كان كلاهما من عند الله ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: 87] ، وكما ذكرت آنفا فى هذا الكتاب أنه كلما تمكن الرجل فى العلوم الإلهية والمعارف الربانية أصبح غريبا فى هذا العالم ، فيقل من يعرفه ويفقد من يحيط به ..

والحقيقة أن الله ما وصف العلم بالقلة إلا العلم المكتسب الذى أعطى الله عباده وهو قوله : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾ [الإسراء: 85] ، أى أعطيتم الوسيلة لكسبه ، غير أنه قال فى عبده الخضر : ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65] وهذا هو العلم الوهبى ، لأنه لو أراد الله العلم المكتسب لم يقل ﴿أُوتِيتُم﴾ أى أوتيتم الطريق إلى تحصيله لا هو ، ولكان قد قال فى الخضر : وعلمناه طريق اكتساب العلوم ، ولكنه لم يقل شيئا من هذا ..

علوم التقوى كسبية :

فالعلم الكسبى هو الذى اكتسبناه بالحواس والأفكار ، أما الوهبى هو هبة من الله عز وجل أنزله فى قلوبنا ، مع أن أكثر الناس يتخيلون ، أن العلوم الحاصلة عن التقوى علوم وهبية ، وهى ليست كذلك ، وإنما هى علوم مكتسبة بالتقوى ، فإن التقوى جعلها الله طريقا لحصول هذا العلم فقال : ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: 29] ، و قال : ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 282] فذلك من الاسم الكريم والجواد وليس من الاسم الوهاب ، و كذلك ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 96]..

والعلم الوهبى لا يحصل عن سبب بل من لدنه سبحانه وتعالى ، فاعلم ذلك حتى لا تختلط عليك حقائق الأسماء الإلهية ، فإن الوهاب هو الذى تكون أعطياته على هذا الحد ، بخلاف الاسم الإلهى الكريم والجواد والسخى ، فإنه من لا يعرف حقائق الأمور لا يعرف حقائق الأسماء الإلهية ..

حال السالكين وحال المجذوبين :

وأهل الله على قسمين : قسم وصلوا بكرامة الله إلى طاعة الله ، وقوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله ، قال تعالى : ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13] ، ومن ذلك أن من الناس من حرك الله همته لطلب الوصول إليه فسار يطوى مهامه بنفسه وبيداء طبعه إلى أن وصل إلى حضرة ربه يصدق على هذا قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 96] ، ومن الناس من فاجأته رعاية الله من غير طلب ولا استعداد ، ويشهد لذلك قول الله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران 74] ، فالأول حال السالكين والثانى حال المجذوبين والأول حال المريد والثانى حال المراد ..

فالنبوات كلها علوم وهبية ،لأن النبوة ليست مكتسبة ، فالشرائع كلها من علوم الوهب ، أما ما أريد بالاكتساب فى العلوم ما يكون للعبد فيه تعمل أو يد أو جهد أما الوهب ليس للعبد فيه تعمل .. وإن كان كلاهما من عند الله ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: 87] ..

فالعلم الوهبى من الله فهو كل الخير ، ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: 79] ، أما العلم الكسبى قد ينطوى على خير أو دون ذلك كأن يستخدم فى إلحاق الضرر بالبشرية ، لأنه مكتسب من الحواس أو الأفكار أو النفس وقد يساء استخدامه مثل صانع القنبلة وصانع السلاح الفتاك ، ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ ﴾ [النساء: 79] ، ولكن ﴿ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: 78] ، فهناك فرق بين من الله وبين من عند الله ، وسوف نتناول بالتفصيل الفرق بين من الله وبين من عند الله فى فصل لاحق من هذا الكتاب إن شاء الله ..

ومن حصل علوم وهب مما ليس بشرع ، جماعة قليلة من الأولياء منهم الخضر على التعيين فإنه قال : ﴿ مِّن لَّدُنۡهُ ﴾ [الكهف: 2] والذى عرفناه من الأنبياء عليهم السلام آدم وإلياس وزكريا ويحيى وعيسى وإدريس وإسماعيل وهكذا ..

أما قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء: 85] فلا يخص العلم الوهبى ، أى ما أعطيتم من العلم إلا ما تستقلون بحمله وما لا تطيقونه ما أعطيناكموه فإنكم ما تستقلون به ، فيدخل فى ذلك علوم النظر فإنها علوم تستقل العقول بإدراكها ..

فما يحصل عليه شعوب الغرب من أسباب التقدم هى أيضا من العلوم الكسبية ، من عند الله من عطاء الاســم الرب أو الربوبية ، فالرب للجميع بوجه عام ، وإلا ما كانوا قد وصــلوا لشــىء من هذا التقدم والمدنية ، أما عطاء الألوهية من الاســم الله لمن آمن به ، مثل الاسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ يعم والاسم ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ يخص فاللهم اجعلنا من الذين يختصهم الله برحمته ..



الورثة والوارث الكامل

الميراث :

أول روح وجد روح محمد ﷺ ، وأول جسم إنسانى جسم آدم ، وأول شخص استفتحت به الر سالة نوح عليه السلام وللورثه حظ من الر سالة ، ولهذا قيل فى معاذ وغيره ر سول رسـول الله ﷺ وما فاز بهذه الرتبة ويحشـر يوم القيامة مع الرسـل إلا المحدثون الذين يروون الأحاديث بالأسـانيد المتصـلة بالرسـول وهم نقلة الوحى وهم ورثة الأنبياء فى التبليغ ..

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: 105] ، وقال الرسـول ﷺ « **العلماء ورثة الأنبياء** » ، وذكر أن الأنبياء ورثوا العلم ما ورثوا دينارا و لا درهما .. فالموروث هنا العلم والله يرث الأرض ومن عليها ..

فهذا العلم الموروث هو ما حصـله الأنبياء بحكم الكسـب من الله ابتداء وبحكم التكليف ، فليفرق الوارث فى علمه بربه بين ما يأخذه ورثا وبين ما يأخذه ابتداء من غير ورث وهذا كله من علم الله الموروث ، فورثة الأنبياء هم ورثة لوارثين ..

وأينما ظهر لفظ العلم فى كتاب الله تعالى وكلام الرسـول ﷺ فإنما المراد به هو العلم النافع القامع للهوى والذى تصـحبه وتكتنفه الخشـية من الله وتكون معه الإنابة لله ، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 58] فلم يجعل علم من لم يخشه من العلماء علما ، وقد قال داود عليه السلام : يارب ، ما علم من لم يخشك ، وما خشية من لم يطع أمرك ؟ ..

فشاهد العلم الذى هو مطلوب الله الخشية ، و شاهد الخشية موافقة الأمر ، أما علم تكون له الرغبة فى الدنيا ، والتملق لأربابها ، والادخار والمباهاة والاسـتكثار فما أبعد هذا العلم عن أن يكون صـاحبه من ورثة الأنبياء ، وهل ينتقل الشـىء الموروث الى الوارث إلا بالصفة التى كان بها عند الموروث عنه ؟؟؟ ..

ووارث محمد ﷺ ، هو وارث من وارث ، فإن كان ممن اختص به الرسـول ﷺ فالوارث له وارث محمد ﷺ فيه خا صة لا ينت سب إلى غيره من الأنبياء عليهم الـ سلام ، ويتميز بذلك عن سائر ورثة علماء الأنبياء عليهم الـ سلام قبله ، ويحـ شر بذلك العلم فى صفوف الأنبياء عليهم السلام وخلف محمد ﷺ، فيرى نفسه إن كان ورث عن وارث ، خلف محمد ﷺ وخلف كل نبى ..

والموروث الذى يورث لابد أن يكون عن نص أو حكم شرعى ، ومن كان ورث عن اجتهاد أو تقليد أو نظر بلا نص فهذا لا يكون وارثا ، فإن أ صاب الحكم فى هذا الاجتهاد كان وارثا وإن لم يصــب لم يكن ، والكل خلف محمد ﷺ ، وإن إختلفت المراتب خلف الرسول ﷺ ..

﴿ٱدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾[يو سف: 108] ، والورثة يدعون إلى الله على بصيرة ، فأ شركهم الله على صفة الدعوة إلى الله مع الر سل ولكن ليس بإحداث شرع جديد ولا بنسخ حكم مقرر ..

وكذلك شــركهم مع الأنبياء عليهم الســلام فى المحنة وما ابتلوا به فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقٍّ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: 21] ، وهم الورثة فشـرك بينهم فى البلاء كما شـرك بينهم فى الدعوة ..

ولما كان حال الرســول ﷺ فى ابتداء أمره ﷺ أن الله تعالى وفقه لعبادته بملة إبراهيم الخليل عليه السلام فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه عناية من الله سبحانه به ﷺ إلى أن فجأه الحق فجاءه الملك جبريل فسلم عليه بالرسالة وعرفه بنبوته ،

فلما تقررت عنده أرسل إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ودعا إلى الله عز وجل على بصيرة ، فالوارث الكامل من الأولياء منا من انقطع إلى الله بشريعة رسول الله ﷺ إلى أن فتح الله له فى قلبه فى فهم ما نزل الله عز وجل على نبيه ورسوله محمد ﷺ بتجلى إلهى فى باطنه ، فرزقه الفهم فى كتابه ، وجعله من المحدثين فى هذه الأمة ، فقام له هذا مقام الملك الذى جاء إلى الر سول ﷺ ، ثم رده الله إلى الخلق الذى يرشدهم إلى صلاح قلوبهم مع الله ويفرق لهم بين الخواطر المحمودة (الوارد) والخواطر المذمومة (الخاطر) ويبين لهم مقاصد الشرع ..

كان الشيخ أبو مدين شيخ الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى يقول : من علامات صدق المريد فى إرادته فراره عن الخلق ، وهذه حالة الرسول ﷺ فى خروجه وانقطاعه عن الناس فى غار حراء للتحنث ، ثم يقول ومن علامات صدق فراره عن الخلق وجوده للحق فما زال رسول الله ﷺ يتحنث فى انقطاعه حتى فاجأه الحق بنزول الوحى ، ثم قال: من علامات صدق وجوده للحق رجوعه إلى الخلق ، يريد حالة بعثه ﷺ بالرسالة إلى الناس ويعنى فى حق الورثة بالإرشاد وحفظ الشريعة عليهم ،

فأراد الشـيخ بهذا صـفة الكمال فى الوراثة فهو الورث النبوى .. لأن لله عبادا إذا فاجأهم الحق أخذهم إليه ولم يردهم إلى العالم وشـغلهم به وقد وقع هذا للكثير ، ولكن كمال الورث النبوى الرجوع إلى الخلق ..

أصناف الورثة :

والورثة ثلاثة أصناف : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، و سابق بالخيرات ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: 32]، و قال الرسـول ﷺ **«العلماء ورثة الأنبياء»** (□) ..

فهذه أصناف ثلاث لحالات ثلاثة ورثة فيها من اعتنى الله به من أمة محمد ﷺ ومثل هذا يسـمى وارثا ، غير أن من يرث الحالات الثلاث ويمر بها فهو الوارث الكامل الذى يرث محمدا ﷺ علما وعملا وحالا ..

(□)الفتوحات المكية – محيى الدين بن عربى .

وحول قوله تعالى فى الوارث للمصــطفى أنه: ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر] ، يريد حال من ظلم نفسه فى الدنيا من أجل أن يسعد نفسه فى الآخرة ، لأن الرسول ﷺ قال : **«إن لنفسك عليك حق ، ولبدنك عليك حق ولعينك عليك حق »** ، فإذا صام الإنسان كثيرا أو دائما ، وسهر الليل ولم ينم فقد ظلم نفسه فى حقها وعينه فى حقها وذلك الظلم لها من أجلها ، ولهذا قال : ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ ، فإنه أراد بها العزائم والقيام بالأعمال الشــداد ، لما عرف منها ومن جنوحها إلى الرخص والكســل والبطالة ، وجاءت الســنة بالأمرين لأجل الضعفاء ..

فلم يرد الله تعالى – كما ذهبت بعض التفاســير – بقوله ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ ، الظلم المذموم فى الشــرع وعمل المعاصــى وارتكاب المخالفات ، فإن الذى يفعل ذلك ليس بمصــطفى ، فالمصــطفى هو الولى ، فكيف يكون المصــطفى كثير الذنوب والمخالفات لدرجة أنه ظلم نفسه !!!

الفرق بين ظالم لنفسه وظالم نفسه :

وهناك فرق بين الظالم لنفســه والظالم نفســه ،فالأخيرة يعبر عنها الله فى قوله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 64] فالظالم نفسه هو الذى يرجع إلى ربه لأنه عصى ، أما الظالم لنفسه ما خرج عن ربه حتى يرجع إليه فهو المصطفى كما ذكرنا ، والظالم نفسه يأتى إلى الحق المشروع له وهو محمد الذى هو رسول الله ﷺ ، فالحق المشروع الذى تجسد إلينا فى الصــورة المحمدية ليســتغفر ربه ، لأنه ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة :128] ، فيجد الله توابا رحيما » ..

والصــنف الثانى من ورثة الكتاب هو المقتصــد ، وهو الذى يعطى نفســه حقها من راحة الدنيا ليســتعين بذلك على ما يحملها عليه من خدمة ربها فى قيامه بين الراحة وأعمال البر ، وهو حال بين حالين : بين العزيمة والرخصــة ، ففى قيام الليل يســمى المقتصد متهجدا ، لأنه يقوم وينام وعلى مثل هذا تجرى أعماله ، وهذا حال الرسول ﷺ عندما قام بتبليغ شــرع الله ورســالته إلى الناس بعد تلقيه للوحى مبينا للناس ما لهم وما عليهم ..

والصنف الثالث هو سابق بالخيرات ، والسابق بالخيرات هو المبادر إلى الأمر قبل دخول وقته ليكون على أهبة واستعداد ، وإذا دخل الوقت كان متهيأ لأداء فرض الوقت لايمنعه من ذلك مانع كالمتوضىء قبل دخول الوقت والجالس فى المسجد قبل دخول وقت الصلاة ، فإذا دخل وقت الصلاة كان على طهارة ..

وكذلك إن كان له مال أخرج زكاته ليلة فراغ الحول ودفعها لربها فى أول ساعة من الحول الثانى لمن يستحقها ، وكذلك فى جميع أفعال وأعمال البر كلها يبادر إليها كما قال النبى ﷺ لبلال : « **بم سبقت إلى الجنة يا بلال** ؟؟ قال بلال : ما أحدثت قط إلا توضأت، وما توضأت إلا صليت ركعتين ، فقال الرسول ﷺ : « **بهما** » ، فهذا وأمثاله من السابق بالخيرات ، وهو كان حال الرسول ﷺ بين المشركين فى شبابه وحداثة سنه ولم يكن مكلفا بشرع فانقطع إلى ربه وتحنث وسابق إلى الخيرات ومكارم الأخلاق حتى أعطاه الله الرسالة ..

الوارث الكامل :

والمراحل الثلاث هى فى واقع الأمر هى فترات زمنية يمر بها المريد السالك طريق الله ليكتمل ميراثه إذا أكملها على هذا النحو التى ظهرت عليه ، وما من عارف بالله وارث للميراث النبوى إلا وقد عرج على هذه المراحل الثلاث ، من الاختلاء

والخلوة بنفسه مع الله التى قد تصل لسنوات ، وأحيانا تكون خلوتين فى مكانين مختلفين لا يطلع عليه سوى ربه ، بعيدا عن الناس وهروبا منهم فى هذه المرحلة كحال رسول الله ﷺ عندما كان يخلو بربه فى غار حراء متحنثا لله لا يشغله شاغل ..

ومنهم على سبيل المثال السيد أحمد البدوى وأبو الحسن الشاذلى وأشياخ الطريقة الخليلية ، الشيخ الحاج محمد أبو خليل الكبير ، والشيخ محمد محمد أبو خليل والشيخ أحمد الشافعى أبو خليل والشيخ صالح أحمد الشافعى أبو خليل وغيرهم من الوارثين ..

وقد دخل مؤسس الطريق الخليلى الشيخ الحاج محمد أبو خليل فى مرحلته الأولى « ظالم لنفسه » فى خلوتين استمرت الأولى وهى الخلوة الكبرى خمس سنوات ، واستمرت الصغرى ثلاث سنوات أى قد تصل هذه المرحلة الأولى إلى سنوات بعيدا عن الناس حتى ينتقل إلى المرحلة الثانية ..

ولا يتحقق كمال الميراث إلا بالمرور على المراحل الثلاث « ظالم لنفسه » ، ثم « مقتصد » ، ثم « سابق بالخيرات » ، مع الصدق مع الله فى كل مرحلة حتى ينتقل إلى التالى منها ، فالأول خلوة والثانية التلقى من الحق والثالثة عودة إلى الخلق ،

فإذا ما تحققت الثلاث فى الولى أصبح وارثا كاملا وهو الذى يرث النبى ﷺ علما وعملا وحالا وهى صفات الوارث الكامل وهو مقام رفيع الدرجات لمن رضى الله عنه من أهل الله أهل الكشف ..

وهناك من يأخذه الله إلى قربه من المرحلة الأولى دون أن يكمل ويستأثر به لنفسه فيصبح بعيدا عن الخلق ولا يعود إليهم وهو فى هذه الحالة من الورثة ، ولكنه ليس وارثا كاملا للميراث المحمدى ..

الأقطاب المحمديون :

الأقطاب المحمديون هم الذين ورثوا محمدا ﷺ فيما اختص به من الشرائع والأحوال مما لم يكن فى شرع سبقه ولا فى رسول تقدم عنه ، فإن كان فى شرع سبق شرعه أو فى رسول قبله وهو فيه ﷺ ، فذلك الرجل وارث ذلك الرسول المخصوص ولكن من محمد ﷺ ، فلا ينسب إلا إلى ذلك الرسول ، حتى وإن كان فى هذه الأمة المحمدية فيقال فيه موسوى إن كان من موسى ، أو عيسوى إن كان من عيسى ، أو إبراهيمى أو ما كان من رسول أو نبى ولا ينسب إلى محمد ﷺ إلا من كان بمثابة ما ذكرناه ما اختص به محمد ﷺ

وإن كان الكل تحت لواء وشرع محمد ﷺ فهو الجامع لكل الشرائع وهو الأصل فى كل الشـرائع وكلهم نواب له ﷺ، مثل ما قال ﷺ : « **أعطيت جوامع الكلم** » و« **علمت علم الأولين والآخرين** » ..

والوراثة نعت إلهى فإنه قال عن نفسه : ﴿خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: 89] .

فالولى لا يأخذ النبوة من النبى إلا بعد أن يرثها الحق منهم ثم يلقيها إلى الولى ليكون ذلك أتم فى حقه حتى ينتسب فى ذلك إلى الله لا إلى غيره ، وبعض الأولياء يأخذونها وراثة عن النبى وهم الصـحابة الذين شـاهدوه أو من رآه فى النوم ،وعلماء الرسـوم يأخذونها خلفا عن سـلف إلى يوم القيامة فيبعد النسـب، وأما الأولياء فيأخذونها عن الله تعالى من كونه ورثها وجاد بها على هؤلاء فهم أتباع الرسل (□) .



(□)فتوحات محيى الدين بن عربى ،المجلد الثانى ص 250 .

الفصل الثالث خيانة الأمانات الثلاث

قد يكون هذا الموضـــوع من الكتاب يختص بمخاطبة المؤمن فهو المخاطب بالأمانات الثلاث موضـــع هذا الحديث دون غيره ، فهناك ثلاثة أصـــناف من الخيانة للأمانات ، خيانة أمانة الله ، وخيانة أمانة الرسول ﷺ وخيانة الأمانات ..

وبمناسبة قولى كلمة المؤمن فى الفقرة السابقة ، فقد عقبت ذات مرة على قول لسيدة مسلمة غير محجبة خلال مجلس دينى بمدينة بورفؤاد عندما قالت : أنا مسلمة ولكنى لن أتحجب .. قلت لها : ومن قال أنك المقصودة بالحديث .. أنت مسلمة ولم تصل بعد إلى مؤمنة .. فالكلام ببساطة ليس لكِ .. ولكن الله يخاطب المؤمنات ، ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾[النور: 31] ، فهناك فرقان بين المسلم والمؤمن والمحسن فاللهم اجعلنا من المحسنين « الذي يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه » فلكل واحدة من الكلمات الثلاث قانون ومعادلة ، « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب** لنفسه » هذه معادلة ، فلتنظر يا أخى أى معادلة تنطبق عليك ، فمن عرف نفسه عرف ربه ، ومن لم يعبد ربه فى أرض بدنه (جسمه) لا يعبد ربه فى أرضه الواسعة ...

وأعود لموضوع الحديث عن الأمانات ، لقد قال الله ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: 72]، فلم يكن طرح الأمانة على هؤلاء أمرا بل عرضا ، وإلا لو كان أمر لحملوها دون تردد ، ولكن كان الأمر عرضا ، فأشفقوا على أنفسهم منها لأنهم يعلمون من الله ما يعلمون ..

وحملها الإنسان فظلم نفس ، لأنه كان يجهل ثقل التركة التى ينطوى عليها حمله لتلك الأمانة ، ولأنه حملها كان عليه أن يؤديها ويرد تلك الأمانة عندما يطلب منه ذلك ، فإن أداها فهو الأمين وإن لم يؤدها فى هو الظلوم الجهول بل هو الخائن ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: 58]، فما حمل هذه الأمانة من خلق الله إلا الإنسان ، وحمله لها ينطوى على الحمل عرضا أو جبرا ..

خيانة أمانة الله :

والأمانة لأنها معطاه للمؤمن فلابد أن يؤديها هذا الأمين المؤتمن إلى أهلها ، ليحملها غيره إلى غيرهما وهكذا ، فإن الغير هنا هم أهل هذه الأمانة ..

وإذا كان الله قد أعطانا أمانة لنردها إليه فهناك أمانات أعطاها لتو صيلها إلى الغير دون ردها إليه سبحانه وهى الر سالة التى كانت للر سول ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: 67] ، وقال ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ [المائدة: 99] فإذا رفض أو ردها كانت خيانة للأمانة ..

ومن خيانة أمانة الله كل علم آمنك عليه من العلوم التى إذا ظهرت فى عموم الناس وعرفوها أضـلتهم ، لأنهم ليسـوا أهلها ، ما لم تبلغ بها من يسـتحقها الذى يسـمعها منك بسـمع الحق ، فالحق هو الذى سـمع فرددت الأمانة إليه تعالى وهو الذى أعطاك إياها ، واسـتفاد بها هذا الشـخص الذى لم يكن يعلمها ، فإن لم يكن هذا المؤتمن عالما بأن هذا الشخص المتلقى ممن يكون صفته أن يكون الحق سمعه فقد خان أمانة الله لأنه أعطاها لمن لا يستحق وقد نهانا الله أن نخون ، فلا تعلقوا الدرر فى أعناق الخنازير ..

ومن خيانة أمانة الله ، أن تبث فى الناس علما آثرك الله به دون غيرك و سرا من أ سراره ومشاهدة من مشاهداته وكشفا من عطاياه ، فإن فعلت فقد خنت أمانة الله ،

فإن من الأ سرار التى إن بثثها وقع المحظور ، فقد نقل عن أبى هريرة قوله أنه أعطى علمين علم يبثه فى الناس وآخر يحفظه ، ونقل عن بعض الأكابر قوله: إن لدى ما إن تفوهت به لقطع منى هذا الحلقوم ، وقول آخر: لو أفشيت ما لدى لرمونى بالزندقة ..

ومن خيانة أمانة الله ، أن تحجب علما أعطاك الله عن إناس قد يصلح أحوالهم وهم فى حاجة إليه ليتدبروا أمرهم فى الله وعلى الوجه الذى أقره فى شرعه ولتنويرهم بما عليهم فى حق الحق وبما يرشدهم إلى الطريق القويم ، قال ﷺ : **بلغوا عنى ولو آية ..**

وجوب كتم علم الأسرار :

أشار الإمام على بن أبى طالب إلى صدره بعد أن تأوه مرتين ثم قال : (إن هاهنا علوما جمة لو وجدت لها حملة !!) ، ويروى عنه أيضا أنه قال : (لو شئت لأوقرت من تفسير الفاتحة سبعين بعيرا) ، وقال أبو الدرداء : لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوها .. وقال ابن مسعود : من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن .. وقال بعض العلماء: لكل آية ستون ألف فهم وما بقى من فهمها أكثر .. وقال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

يعنى الفم فى القرآن .. و قال الله : ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ سـمى ما آتاهما حكما وعلما وخصـص ما انفرد به سـليمان بالفهم وجعله يسـبق العلم والحكم ..

ولقد كان الحسـن البصـرى رحمه الله إذا أراد أن يتكلم فى مثل هذه الأسـرار التى لا ينبغى لمن ليس من طريقها أن يقف عليها ، دعا بفرقد السـبخى ومالك بن دينار ومن حضـر من أهل هذا الذوق وأغلق بابه من دون الناس وجلس يتحدث معهم فى مثل هذا الفن فلولا وجوب كتمه ما فعل هذا ، وكذا أبو هريرة رضـى الله عنه فيما ذكره البخارى فى صـحيحه حملت عن النبى ﷺ جرا بين فأما الواحد فبثثته فيكم وأما الآخر فلو بثثته لقطع منى هذا الحلقوم ، وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنه فى قوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ لو ذكرت تفسـيره لرجمتمونى ولقلتم إنى كافر ..

وقال النبى ﷺ : **«خاطبوا الناس على قدر عقولهم»** ، فينبغى على من وقع فى يده كتاب من الله أو علم هذه الأسرار ، من علم لا يعرفه ولا سلك طريقه فلا يبدى فيه

ولا يعيد ويرده الى أهله ولا يؤمن به ولا يكفر ولا يخوض فيه البتة ، فرب حامل فقه ليس بفقيه ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ ، ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾، فقد ورد فيهم الذم حيث تكلموا فيما لم يسلكوا طريقه ..

هؤلاء هم علماء الله الذين عناهم الحديث النبوى الشـريف « **إن من العلم كهيئة المكنون لايعلمه إلا العلماء بالله تعالى فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرة بالله** » ، هذا ما عليه أهل الإشارات من مكانة عالية مرموقة ..

فمن خيانة أمانة الله أن تتعدى حدود الله عن تعمد ، لا سيما إذا أطلعك الله على العلم بأن العالم وجوده وجود الحق فالله فى هذه الحال هو عين الأمانة فى وجوده عند أهل الحجاب حتى إن علموا ذلك شـرعا أو عقلا ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: 1] ، وهكذا أيضـا كل أمر بيدك وأمرك الله فيه أن ترده إليه فلم تفعل فذلك خيانة لله ..

خيانة أمانة الرسول ﷺ :

وتتمثل خيانة أمانة الر سول فيما أعطاك الله من الآداب لتعامل به الر سول ﷺ ، هذه المعاملة هى التى تنطوى على أدائها ، فإذا تأدبت معه أديتها

وإن لم تتأدب معه فقد خنت أمانته ﷺ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ [الحجرات: 2] ، وما نراه هذه الأيام على شاشات الفضائيات من قلة أدب ممن يطلقون على أنفسهم علماء وهم يقاطعون متحدثا فى سيرة رسول الله ﷺ أو ناطقا بآيات قرآنية بحجة غيرة شكلية خلال مناظرات كلامية استعراضية ، فكل من يقاطع أو يرفع صوته لسيرة الرسول أو حديث له أو آية قرآنية تتلى فهو سيئ الأدب مع الله ومع رسوله وهو خائن لأمانة الرسول لأن المتحدث فى الآيات هو الله بلسان المتحدث ، والمتحدث فى الأحاديث الشريفة هو الرسول ﷺ بلسان المتحدث ، فتحروا الأدب حتى لا تحبط أعمالكم ..

ومن خيانة الرسول ﷺ ، ما سألك فيه من المودة فى قرابته وأهل بيته فإنه وأهل بيته على السواء فى مودتنا فيهم ، فمن كره أهل بيته فقد كرهه فإنه ﷺ واحد من أهل البيت ..

لا تبعيض فى حب أهل البيت :

ولا يتجزأ أو يتبعض حب أهل البيت ، فإن هذا الحب ما تعلق إلا بالأهل لا بواحد بعينه، أو بفرد دون آخر فلنعرف قدر أهل البيت ، ولنعرف أن من خان أهل البيت

فقد خان رسول الله ﷺ ، ومن خان ما سنه رسول الله ﷺ فقد خان أمانة رسول الله ﷺ فى ســنته ، فقد قيل فى أهل البيت قرآن يتلى إلى يوم القيامة ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِى ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، فهم المكرمون المطهرون بنص القرآن ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا﴾ و ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾[هود: 73] ..

وروى عن أحد الصــالحين أنه كان يكره ما يفعله أحد الشـرفاء بمكة فى الناس ، فرأى فى نومه السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ وهى معرضة عنه فسلم عليها وسألها عن إعراضها فقالت : إنك تقع فى الشــرفاء ، فقال لها : ياســيدتى ألا ترين ما يفعله فى الناس ؟؟ فقالت : أليس هم بنى ؟؟ فقال لها: من الآن تبت وأقبل عليهم ..

ومن خيانتك لأمانة رسول الله ﷺ الحديث على وجه التفاضل بين الأنبياء والرسل عليهم الســلام ، حتى رغم علمنا أن الله ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [الإســراء: 55] ، ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [البقرة: 253] فله أن يفضل بين عباده بما شاء وليس لنا ذلك ، وقد نهى الرسول ﷺ

حتى أن نفضـــله على الأنبياء وذكر فى ذلك يونس عليه الســلام ، فمن فضـــل من غير إعلام الله فقد خان الرســول ﷺ وتعدى ما حدد له الرســول ﷺ رغم أنه والله الســيد المسود له السيادة فى الدنيا والآخرة فهو سيد المرسلين و سيد القائمين و سيد النبيين وسيد الشاهدين وسيد المستغفرين وسيد الذاكرين وسيد العابدين ولا فخر ..

خيانة الأمانات :

قال رســول الله ﷺ : « لاتعطوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم » ، فالحكمة أمانة وخيانتها أن تعطيها غير أهلها وأنت تعلم أنه غير أهلها ، فرفع الله المؤاخذة والحرج عمن لا يعلم ، هذا فضــلا عن الأمانات الأخرى التى تشــير إليها أحكام الشريعة بمختلف مجالاتها ، أمانة القول والعمل على إطلاقها ..



الشرب والمشارب

الذوق :

الذوق عند أهل الله هو المعرفة وهو بداية التجلى عندهم ، ولا تصبح ذا ذوق إلا أن يكون لديك حظ من المعرفة ، لأن المعرفة تلى التذوق وتســبق الذوق وهى تنتج الذوق، وما جملة ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴾ سوى إشارة إلى ما يجب عليك أن تسأله ، فلا تسأل من ليس لديه ذوق فى الله ، فإنه سيفتيك على قدر ذوقه ، ولكن اسأل من يكون عارفا بالله ، فإنه صاحب ذوق ..

وكما قال أحد العارفين :

الشـــرب بين مقام الذوق والرى	**مثل القضـــية بين النشـــر والطى**
إن الحقوق التى للحق قائمة	**عليك فاحذر إذا ما كنت فى الغى**
أنت الغنى به إذا كان عينكم	**فـلا ســـبيـل إلى مـطـل ولا لى**
غـيلان لم يـك مـثلى فى مـحبـتـه	**إذا تـنـاظـرت الـعشـــاق فى مـى**
وصل الوفاء وهجر المطل من شيمى	**فإننى حاتمى الأصـــل من طى**

وا لذوق ا لذى هو المعر فة هو بدا ية التجلى وهو مؤشـــر على مرا تب القوم ، هذه المراتب التى ظهرت فى إتيان أبى بكر بجميع ما يملكه إلى النبى ﷺ حين قال له : إتنى بما عندك ، وأتاه عمر بـشطر ماله ، فإنه (ﷺ) ما حدد لهم فى ذلك حجم ما يأتيانه ، وإلا ما تعدى أحدٌ منهما ما حدد له الرســول ﷺ ، وإنما أراد الرســول ﷺ أن تتميز مراتب القوم عنهم فقال لأبى بكر : ما تركت لأهلك ؟؟ فقال : «**الله ورسوله**» (□).

وهذا غاية الأدب ، حيث قال : ورســوله ، فإنه لو قال : الله فقط لم يتمكن له أن يرجع فى شــىء فى ذلك إلا حتى يرده الله عليه من غير واســطة حالا وذوقا ، فلما علم ذلك قال الله ور سوله ، فلو رد إليه الر سول ﷺ من ماله شيئا قبله لأهله من الر سول ﷺ فإنه تركه لأهله ، وهذا ما أشد معرفة أبى بكر بمراتب الأمور ..

وتخيل عمر أنه يسبق أبا بكر فى ذلك اليوم لأنه رأى إتيانه بـشطر ماله عظيما ، ثم قال لعمر بن الخطاب : ما تركت لأهلك قال : شطر مالى ، فقال الرسول ﷺ : «**بينكما ما بين كلمتيكما**»، قال عمر : فعلمت أنى لا أسبق أبا بكر أبدا ..

(□)روضة المحبين لابن قيم الجوزية .

والإنســان ينبغى أن يكون عالى الهمة يرغب فى أعلى المراتب عند الله ويوفى كل مرتبة حقها ، فلم يرد الرسول ﷺ على أبى بكر شيئا من ماله تنبيها للحاضرين على ما علمه من صــدق أبى بكر فى ذلك ، فإن الرســول قد علم منه الرفق والرحمة ، فلو رد شــيئا من ذلك عليه ، تطرق الاحتمال فى حق أبى بكر أنه خطر له رفق الرسول ﷺ فعوض أهل أبى بكر بما يقتضيه نظره ..

وجاء عبد الرحمن بن عوف بجميع ماله فرده عليه كله وقال : أمسك عليك مالك فإنه ما دعاه إلى ذلك، ولو دعاه إلى ذلك لقبله منه كما قبله من أبى بكر ، فهذه هى مراتب الأذواق ..

هوية الشرب :

والشــرب الذى هو العلم يختلف باختلاف المشــروب ، مثلما يختلف الشــرب باختلاف ذوق الشارب المتلقى للشرب ومقامه ومكانته لأن المتجلى واحد والمشارب مختلفة على قدر ذوق المتجلى عليه ..

فإذا كان المشــروب نوعا واحدا فإنه يختلف باختلاف أمزجة الشــاربين وهو على استعدادهم ، فمن الناس من يكون مشروبه ماء ،

ومنهم من يكون مشــروبه لبنا ، ومنهم من يكون مشــروبه خمرا ، ومنهم من يكون مشروبه عسلا ، بحسب الصورة التى يتجلى فيها ذلك العلم ..

فهذه الأصناف من الشرب هى صور لعلوم مختلفة يشير إليها حديث الرسول ﷺ أنه قال « **رأيت كأنى أوتيت بقدح لبن فشــربت منه حتى رأيت الرى يخرج من بين أظافرى ثم أعطيت فضلى لعمر ، قالوا وما تأويله يارسول الله ﷺ ، قال : العلم** » ، فهذا علم تجلى فى صورة لبن ، كذلك تتجلى العلوم فى صور مشروبات ..

ولما كان التجلى والرؤية فى دار الجنة ، فلم يذكر الله فيها سوى أربعة أنهار وهوما ورد فى القرآن ﴿ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴾ [محمد: 15] ، ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ ﴾ ، ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ ، ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾، فقد تبين لنا أن التجلى المعرفى الذى هو العلم من الله لا يقع إلا فى أربع صور هى الماء ،واللبن ، والخمر ، والعسل ..

فمن أعطاه الله المعانى مجردة عن الخطاب أو النصوص فى الخطاب فهو عن تجليه فى صورة الماء غير الآسن ، وهو العلم الإلهى الذى لا تعلق له بالطبيعة ، ومن أعطاه الله العلم بأســرار الشــرع وأحكامه وعلم حكمه وعرف ميزان الأحكام بعلم الأوقات والأحوال فيحرم فى شــرع ما يحلل فى غيره فهذا من علم تجليه فى صــورة اللبن ، أى الحليب منه الذى لم يتغير طعمه بهزه أو تربيبه ..

ومن أعطاه الله العلم بالكمال والأحوال والجمال فإنه عن تجلى العلم فى صــورة خمر ، ومن أعطاه الله العلم بطريق الوحى والإيمان و صفاء الإلهام وعم علمه كل شىء مما يصح أن يعلم حتى يعلم أنه ما لا يصح أن يعلم فذلك العلم عن التجلى فى صورة العسل ..

فإذا كان شربه شيئا من هذه المشروبات أو كلها كان محصلا لما شرب كالنبى الذى قال : فعلمت علم الأولين وعلم الآخرين ولم يذكر أنه اختص به ، فلما لم يذكر الاختصاص ترك الباب غير مغلق لمن أراد الدخول منه إلى نيل هذا المقام ..

ولكل تجل صنف مخصوص من الناس وأحوال مخصوصة فى الشخص الواحد ، فمنه ما هو لأصحاب المنابر وهم الرسل ، ومنه ما هو مخصوص للأنبياء ، ومنه ما هو مخصوص لأصحاب الكراسى وهم الورثة الأولياء العارفون ، ومنه ما هو لأصحاب المراتب وهم المؤمنون ولا هناك صنف خامس (□).

(□)فتوحات ابن عربى – المجلد 3 .

أفضلية المشارب :

وكل صنف يفضل بعضه على بعضه داخل الطبقة الواحدة نفسها ، كما قال : ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: 253] ، وقوله : ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء:55] ..

فالعلوم وإن كثرت فإن هذه الأربعة تجمعها ، وهى كما قال أحد العلماء من أهل الله ، مجالات إلهية فى منصات ربانية فى صور رحمانية ، ومن الناس ما هو مشروبه واحد من هذه الأنواع من المشارب لاينتقل إلى غيره ..

غير أن منهم من يتنوع شربه من المشروبات وهو الأتم ، وكان رسول الله ﷺ يحب مزج الماء باللبن فيشربه ، ومزج العسل باللبن فيشربه فما بقى إلا الخمر وليست دار الدنيا بمحل لإباحته فى شرع محمد ﷺ ولذلك كان الرسول ﷺ يقول فى اللبن إذا شربه: « اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه » ، لأنه تقوم معه صورة ضرب المثل له فى العلم فى حديث الرؤيا الصحيح وهو مأمور بطلب الزيادة من العلم بقوله : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114]..

فكان شرب اللبن مذكرا له بالزيادة منه ، فى حين كان يقول فى سائر الأطعمة « **اللهم بارك فيه وأعطنا خيرا منه** » ، فهذه المشروبات كلها وضعها الله ضرب أمثلة لأصناف علوم تتجلى للعارفين فى صور هذه المحسوسات ..

الحكمة فى عدم إباحة الخمر :

وقد خص الله الخمر بالجنة دون الدنيا ، وقرن به اللذة للشاربين منه ، ولم يقل ذلك فى غيره من المشروبات ، وذلك لأنه ما فى المشروبات من يعطى الطرب والسرور التام والابتهاج إلا شرب الخمر فيلتذ به الشارب وتسرى اللذة فى أعضائه وتحكم على قواه الظاهرة والباطنة ، وما فى المشروبات الأخرى من له سلطان وتحكم على العقل سوى الخمر فهو للعلم الإلهى الذوقى الذى تمجه العقول من جهة أفكارها ولا يقبله إلا الإيمان ..

ويقول أهل الكشف ، أنه لو أبيح هذا العلم فى هذه الشريعة مع ما أعطى الله هذه الأمة من الكشف والفتوح والأسرار والإمداد فى العلوم وثبوت القدم فيها لظهرت أسرار الحق على ما هى عليه وبطلت أشياء كثيرة كان الشرع من علم اللبن قد قررها ، فهذا التجلى فى صورة الخمر لا يحصل فى الدنيا إلا للأمناء فيلتذون به فى بواطنهم ولا يظهر عليهم حكمه ، وهو ما أشار إليه سهل بن عبد الله التسترى بقوله :

إن للربوبية ســـرا لو ظهر لبطلت النبوة ، وإن للنبوة ســـرا لو ظهر لبطل العلم ، وإن للعلم سرا لو ظهر لبطلت الأحكام ..

فلو وقع التجلى فى صورة الخمر وظهر هذا العلم فى العموم ولم يكن الإنسان فى طبعه ومزاجه على مزاج أهل الجنة لظهرت الأســـرار بإظهاره إياه فى العالم ، فأدى ظهورها إلى فساد لقوة سلطانه فى الالتذاذ والابتهاج والفرح ومغيب حكم العقول عن شاربه ..

ولهذا ضرب الله فيمن حصل له هذا التجلى فى الدنيا ولم يظهر عليه حكمه مثل الأنبياء وأكابر الأولياء كالخضـــر والمقربين من عباده ، فخلق بعض الأجســـام البشـــرية هنا على مزاج لا يقبل السكر ليعلم أن ثم لله عبادا حصل لهم هذا التجلى الإلهى فى صورة الخمر وهم على استعداد يعطى الكتمان وعدم الإفشاء ..



الإمام المربي وغير المربي

مبايعة إمام وقته :

إن السعيد من عرف إمام وقته فبايعه وحكمه في نفسه وأهله وماله كما قال رسول الله ﷺ في حق نفســه : « **لا يكمل لعبد الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين** » ولهذا يشترط في البيعة المنشط والمكره لأن الإنسان ما ينشط إلا إذا وافق الله هوى نفســه ، والمكره إذا خالف أمر الله هوى نفســه فيقوم به على كره لإنصــافه ووفائه بحكم البيعة فإنه ما بايع إلا الله إذ كانت ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ [الفتح :10] ، وما شاهدوا بالإبصار إلا يد هذا الشخص الذي بايعوه ، والنفس أبدا في الغالب تحت حكم مزاجها ، والقليل من الناس من يحكم نفسه على طبيعته ومزاجه..

فحق الإمام أحق بالإتباع ، قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النســاء: 59] وهم الأقطاب والخلفاء والولاة وما بقى لهم حكم إلا في صنف ما أبيح لك التصرف فيه فإن الواجب والمحظور من طاعة الله وطاعة رسوله ، فما بقى للأمة إلا المباح و لا أجر فيه ..

واعلم أيها الأخ الكريم أن الله هو الذى يدلك على الإمام أو الولى المربى الموصول ، صاحب الذوق وليس العكس كما يعتقد البعض ، الله هو الذى يشير إلى الولى المربى لكى تقصده ، ثم بعد أن تصل إلى الولى المربى المنسوب إلى العترة المحمدية ، يدلك هذا الولى إلى الله على نحو صحيح يتنا سب مع نهج وأ سلوب التربية الصحيحة الملائمة لكل مريد سالك طريق الله ..

فالمسألة أشبه بدائرة يتصل أولها بآخرها ، فالله يشير إلى الشيخ المربى فتقصده فيدلك الشيخ المربى على الطريق الصحيح إلى عبادة الله فتعبده على بينة حتى لا تضل السبيل إليه سبحانه وتعالى ، لأن الأمر لايقتصر على التعلم بدون مشاهدة بل لابد أن تشهد وترى « **صلوا كما رأيتمونى أصلى** » رغم أنه ﷺ قد عرفهم من قبل كيف يصلون ولكن الرؤية مطلوبة ..

وحتى لا يختلط الأمر عليك أيها القاصد طريق الله ، فيجب أن تعرف أنه ليس كل شيخ أو ولى هو شيخ مربى أو ولى مربى أو إمام مربى فهناك فرق بين الولى المربى والولى غير المربى ، فالولى المربى هو الإمام المربى وبالتالى فإن هناك فرقًا بين الإمام المربى والإمام غير المربى ..

إمام الفضائيات ليس مربيا :

ولأن نوع المتلقى أو نوع الجمهور هو معيار لا يخطئ ، كان من اليسير لنا التمييز بين الإمام المربى والإمام غير المربى ، فالعامة دائما ليست كالخاصة أبدا ، فما يصلح لهؤلاء ليس ناجعا وشافيا أو كافيا لأولئك ..

فالولى المربى أو الإمام المربى قد لا يعتلى المنبر ، ولا يخطب فى الناس ولا يتحدث فى مجالس العلم العلنية كما لا يتحدث فى العامة ولا يظهر على شاشات الفضائيات ، ولا يحضر الندوات المفتوحة ، ولا يكون مشهورا بين العامة ، لأنه يربى بالنظر وليس بالخطابة ، يربى بالنظر وليس بالكلمة سواء كانت المرئية أو المسموعة ..

كما أن الإمام المربى يربى القلوب وليس العقول كما يفعل الإمام غير المربى الذى يربى بالكلمة والخطابة على المنابر والظهور على شاشات التلفزيون وشتان ما بين الصنفين ، وبالتالى كان الأول للخاصة حتى وإن قلت شهرته ، وكان الثانى للعامة حتى وإن زاع صيته واتسعت شهرته ..

أعرف أن الإمام محمد متولى الشــعراوى وهو من هو من الأولياء الصــالحين وإمام فاضـــل رحمه الله ملأ الدنيا بعلمه وجاب العالم ، عرفه الكثيرون فى مشـــارق الأرض ومغاربها وما زالت خطبه وكلماته وخواطره ينبوعا يفيض بالعلم والفقه ومعينا لا ينضب حتى الآن ، ومع ذلك ، كان بين الحين والآخر وهو فى ذروة شـــهرته ، أراه زائرا ومترددا على أشـياخ الطريقة الخليلية لاسـيما العارف بالله الشـيخ صـالح أحمد الشـافعى محمد محمد أبوخليل فى مدينة الزقازيق ليجلس مع هذا الولى المربى المنســوب إلى العترة المحمدية ، وهذه بصــيرة أنعم الله بها على الشــيخ الشــعراوى عرف بها أهل الله أهل الكشف أهل الحقيقة ..

ونقل عن الشيخ الشعراوى قوله ذات مرة وهو فى ضيافة الشيخ صالح أبو خليل فى الزقازيق فى حضور حشد من أتباع الطريق الخليلى قوله : أنا بفكر يا شيخ صالح أعمل طريقة وأسميها الشعراوية ؟؟ ، رد عليه الشيخ صالح أبو خليل قائلا : ما ينفعشى يا شيخ محمد ، لأنكم تربون العقول ونحن نربى القلوب .. وكانت هذه الكلمات تفســيرا لما بين الإمام غير المربى الذى يتوجه بحديثه وبالخطابة وبالكلمة إلى العامة ليربى العقول وبين الإمام المربى الذى يتوجه إلى الخاصة ويربى القلوب بالنظر لا بالكلمة أو الخطابة وأعطاه الله العلم بالكشف ووارث للميراث النبوى المحمدى ..

فإمامة الولى المربى هى إمامة قطب من الأقطاب على واحدة من مراتب القطبية ووارث محمدى من الورثة المحمديين وغالبا ما يكون وارثا كاملا ممن ورث عن الرسول ﷺ المراحل الثلاث وهى العلم والعمل والحال، فإمامة الأول بين العامة وعلماء الفقة وعلماء الظاهر وعلماء الرسوم، وإمامة الثانى بين الخاصة الذين يسعون لعبادة الله على بصيرة ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾، وليست الأولى كالثانية وفى كل الخير ، بل ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾..

والإمام المربى هو المعبر عنه بالشيخ الولى المربى فى الصوفية، وهو المأذون له بالتربية والموصول والمنتسب فى أغلب الأحيان إلى الدوحة المحمدية، فهو السالك المخلص المنتهج للصراط المستقيم، وكما قال الإمام الجنيد فى شروط الشيخ : لا يستحق الرجل أن يكون شيخا مربيا حتى يأخذ حظه من كل علم شرعى وأن يتورع عن جميع المحارم وأن يزهد فى الدنيا، وألا يشرع فى مداواة غيره إلا بعد فراغه من مداواة نفسه وأن يلازم العمل بالكتاب والسنة، وإن كان ليس كل شيخ طريقة صوفية إماما مربيا ..

ويتحدث ابن عطاء الله السكندرى عن الشيخ قائلا : ليس شيخك من واجهتك عبارته ، وإنما شيخك من سرت فيه إشارتك ، وليس شيخك من واجهك مقاله ، وإنما شيخك من نهض بك حاله ، وليس شيخك من دعاك إلى الباب ، وإنما شيخك من كشف بينك وبينه الحجاب .. فشيخك هو الذى مازال يجلو مرآة قلبك حتى تتجلى فيه أنوار ربك ، أنهضك فنهضت ، وزج بك فى نور الحضرة ، وقال: ها أنت وربك » ..

وكلا الصنفين من الأئمة الإمام المربى والإمام غير المربى ضروري لا غنى عنه فى تبصير الناس على اختلاف أصنافهم وتنوعهم كل حسب قدرته على الا ستيعاب والتلقى فى الطريق إلى عبادة الله على قدر طاقته ، فما تتحمله الخاصة وتتذوقه وتسير فيه قد لا تتحمله العامة ، فالطريق الحقيقى إلى الله الذى يسلكه أهل الله أهل التصوف طريق صعب المسالك والدروب لا يتحمله الكثيرون من الناس ..

الفتنة بين الخليفة والمريد :

آثرت وأنا أتناول الحديث فى هذا الموضوع أن أتطرق بالحديث إلى أحد الأمور المهمة التى تصادف فى أحيان كثيرة أتباع الطريق الصوفى فيما يتعلق بالعلاقة بين المريد والخليفة الذى يختاره الإمام المربى أو الشيخ ليؤم الإخوان فى مكان ما داخل البلاد أوخارجها ،

لأن الشـيخ لا يتواجد ظاهريا فى كل مجالس الذكر والحضـرات التى تقام ليلا فى أماكن مختلفة على مدار الأسبوع ، على غير اليوم المخصص لزيارة الشيخ فى مقره ..

فخليفة الـشيخ تتمثل مهمته فى إقامة مجلس الذكر وبعض التلقين عن الـشيخ للمريد فى أمور الذكر وآدابه والأوراد والإلهام ، غير أن الطامة الكبرى أن يتعاظم دور الخليفة فى نظر نفسـه فيفتتن ، وتنتقل هذه العدوى الى المريد الذى دائما ما يكون وثيق الصـلة اليومية بالخليفة الذى يعتبره المريد متاحا ظاهريا عن الشـيخ رؤية وحديثا ، فينبهر به ويتعلق به على نحو ينـسيه المـصدر الأ سا سى للنبع والعطاء والتربية المتمثل فى الـشيخ وليس الخليفة ، فالخليفة ليس كالشيخ بأى حال وهو للشيخ مريد كالمريد نفسه ..

وعندما تحدث هذه الفتنة للخليفة يأمر المريد بما لايطيق من الذكر وعلى نحو يتجاوز قدراته التربوية التى يحددها الشيخ باطنيا للمريد ، فتحدث الطامة ويفتتن المريد بالخليفة ولا يتحقق له الحفظ من الـشيطان فتزل قدمه ، ويضيع الاثنان الخليفة والمريد ..

ولا أنسى ما حدث فى واقعة المرحوم شريف مسعود خليفة القاهرة رحمه الله بالطريقة الخليلية والذى كان آية من آيات الله بمدد شـيخه الشـيخ صـالح ، فى التأويل والتفسـير والإلهام – وهذا ما عايشته بنفسى – فقد افتتن به مجموعة من الأتباع وثيقى الصلة به ،

لدرجة أنه بعد أن عزله الشيخ من الخلافة اتخذوه شيخا وتركوا الشيخ وخرجوا عن البيعة الحقيقية ، ففقدوا الحفظ من الشـيطان الذى يتحقق لهم بطاعة الشـيخ ، فوقع ما وقع ، وتركوا الطريق إلى الله إلا من رحم ربى ..

وأذكر نموذجا آخر حول مسـألة الفتنة بين الخليفة والمريد ، وقع فى عهد الحاج محمد أبو خليل منشئ الطريق الخليلى حتى يتضح الأمر لك أيه الأخ الحبيب :

ذات مرة دخل رجل من الإعراب ومعه ولده عريانا وفى حالة من الجنون عارمة ، وقدم ابنه لسيدنا الشيخ الحاج محمد أبو خليل رضى الله عنه قائلا : مثل ما جننت ابنى هذا اشفه ...

فقال الشـيخ محمد أبو خليل هذا الولد أخذ العهد على يد أحد أولادنا الخلفاء الذى ظن فى نفسـه أنه تمت تربيته ويمكنه أن يربى .. كمن أخطؤوا السـبيل من المسـتدرجين (بفتح الراء) .. فهذا الولد لم يرتضينى شيخا له .. ويقول على أنى جده ، وأن والده ذلك الخليفة الذى تركه ، وهو يذكر الله كثيرا بغير ملاحظة ، فحصـل له مس من الجن وخبل بالعقل ..

وإســتطرد الشــيخ قائلا : إن شــروط الشــيخ المربى أن يمر ليلا على أولاده كلهم بمختلف الجهات ، وألا يغفل عنهم طرفة عين ، حتى لا تتخطف الجن عقولهم مثلما حـ صل لولدك ، وأن يكون مأمورا من حـ ضرة الر سول بنـ شر الطريق ، فتمد روحه دائما من روح الرســول ، والخليفة لا يقدر على ذلك ، فالأولى ترك البلاء لأصــحاب البلاء ، والشيخ يسمع نداء أولاده له مستغيثين .. ويسمعون نداءه لهم ....

فقال الأعرابى : إذن تدعو الله له وتســامحه .. فرد ســيدنا الشــيخ قائلا : قلت لك إن ولدك لا يرضــانى.. ومع ذلك نســامح .. ثم نظر الشــيخ تجاه الولد وقال له : اثبت .. فأجاب الولد بهدوء العاقل : ثبت يا عم .. فأمر الشــيخ بطرح الولد على الأرض وضــربه على قدميه بالعصا .. فإرتد عاقلا تماما ..

ثم سأله الشيخ : هل ترضانى شيخا لك ..؟

فأجاب الولد قائلا : شيخى الشيخ خير الله(يقصد الخليفة) وأنت جدى .. فرد عليه الشيخ : بل أنا شيخك حيا ومنتقلا ..

وهدأ الولد تماما ونظر إلى نفسه متألما لكونه عاريا تماما ، وأخذ ملابسه وكان والده يحملها له فلبسها ..

فقال الشيخ للأعرابى : إن ابنك كانت صدمته العصبية شديدة أثرت على صحته ، فلا تكلفه شـــاق العمل فإن روحه لا تتحمل الإيلام ، فألن له الكلام لأنه الآن لا يقدر على خدمة المخلوقين ، فاوهبه لرب العالمين ولا تضيق عليه ، وكفى أن الله حفظه لك حيث أنه وحيدك ..

فليكن اتصالك الأساسى أيه المريد عند تعاملك مع أى من الناس فى الطريق ، قاصرا فى الأساس على الشيخ وتنفيذ تعليماته ، فهو المقصود وهو المربى بما أعطاه الله الحفظ لأتباعه وسـلطانه عليهم ، ولا حفظ للمريد من الخليفة ، إذا ما مســه الشـيطان ، ولتكن صلتك بالخليفة غير متجاوزة الحدود التى رسمها الشيخ حتى لاتذل قدمك ..

ولتكن زيارتك للشـيخ واتصـالك به هو جل همك واهتمامك ، ولتهتم بتعاليمه وتوجيهه ، وأقواله ، دون النظر أو الالتفات لما يقوله آخرون ، فكم من الناس ، اذا ما فتح مو ضوع ، صال وجال ، وتحول بقدرة قادر إلى ولى نا صح ، ومتحدث لبق ، وملهم همام ، ليشعرك بمدى أهميته وقربه من الشيخ ، ويقتبس بعض الأقوال التى قالها الشيخ لأحد الإخوان ، ويعممها اعتباطا مع أنها اختصـاصـا لمن قيلت له ، فهذا خطأ !! فلكل حاله الخاص مع الشيخ ،

وما يخصك تربويا قد لا يتنا سب مع غيرك ، وما يقال لك ، قد لا يقال لغيرك فى كثير من أمور التربية ، فلتبتعد أيه الأخ الكريم عن الإنصات فى كثير من الأحوال إلى نموزج « أبو العريف » المفتتن بنفسه ، كثير الكلام ، فقد تكون النتيجة غير مواتية ..

المريد شيخ الشيخ بالحال :

كما أن من إســاءة الأدب في طريق الله تعالى – مثلما يقول محيى الدين بن عربى – وهو ما يستدرج الله به العارفين ، عزة الشيخ على أتباعه من المريدين بما افتقروا إليه فيه من التربية وامتيازه عنهم ، فإن الشــيخ إذا لم يوف هذا المقام حقه يحجبه فقر المريد إليه عن فقره إلى ربه حالا ، ويكون مشــهده عند ذلك غناه بالله ، والغنى بالله يطلب العزة وحال المحقق صاحب هذا المقام إذا رأى المريدين يفتقرون إليه فيما عنده من الله شكر الله على ذلك حيث ألزم الله به فقراء إليه يثبتونه بصــفة فقرهم إليه على فقره إلي الله تعالى ، فإنه ربما لو لم يظهر صــفة فقرهم إليه نســى فقره إلى الله تعالى ، فهكذا هو حال الشــيخ المحقق ، فينظر هذا الشيخ المريدين المفتقرين إليه بعين من يثبته على طريقه لئلا تزل به القدم فيه ، فهو كغريق وجد من يأخذ بيده كيف يكون حب ذلك الغريق فيه حيث أمسك عليه حياته فيرى هذا الشــيخ حق المريد عليه أعظم من حقه على المريد ، فالمريد هو شيخ الشيخ بالحال ، والشيخ هو شيخ المريد بالقول والتربية ..

وأهم واجبات المريد نحو شيخه طاعة أوامر شيخه .. وقد قال أبو الحسن الشاذلي : عليك أيه المريد بالعكوف على أعتاب شيخك ، فإنك لو علمت ما انطوى عليه الشيخ ما برحت عن أبوابهم ولأتيتهم سعيا على الوجه ..

وواجب المريد ألا يكتم أي سـر عن شـيخه بل ينبغي عليه أن يذكر له كل ما يجول بخاطره من أسرار وخطرات وهموم ومشكلات فهو طبيبه ومداويه .. وقد يفسر البعض إطاعة المريد لشـيخه إطاعة عمياء ، وإخباره بكل أحواله وأسـراره بأن في ذلك محوا لشخصية الفرد وضعفا وانحلالا لمقوماتها وقضاء على إرادته وحريته واختياره ..

وقد عبر بعضهم عن ذلك بالقول « إن الصوفية كثيرا ما يشبهون هذه الصلة بصلة الطبيب بالمريض والمرض داء نفسـي دفين ، فلا تجوز بوسـائل التربية الحديثة ، وإنما بالمحلل النفسـي وفى العلاج النفسـي تقوم هذه العلاقة حين يسـلم له المريض قياده ويطلعه على كل أسراره ، ولا يقدم على أمر حتى يستأذنه ، كل ذلك لضرورة العلاج الذي يمتد سنين ، وقد تتشابه الطريقتان في حتمية الثنائية إذ لا يتسنى العلاج إلا بوجود طرفين : محلل ومريض أو شيخ ومريده ..

ولتوضيح ذلك نقتبس نصا للجنيد : إن أمراض الأبدان يعبر عنها المريد بما يجد من ذاته واصفا ما حل به من بلائه ، أما علل القلوب فإن المريض مقصر عن بلوغ نعته لذلك تختلف عن الوصف لما هنالك ..

فالطبيب الخبير البصـير يكشـف لأهل الأمراض عما وجدوا وينبئهم عن زوال ما فقدوه حتى كأن المو صوف بعبارة اللسان منظور إليه بحقيقة العيان ، من أجل ذلك كله كان الطبيب أعلم بداء السقيم من نفسه وأحق أن يوصف له من الدواء ما يكون سببا لبرئه ..



الفصل الرابع أدب الورع وأقطابه

متى يحبط العمل:

كثيرا ما نسـمع أو نشـاهد على شـاشـات التلفزيون والفضـائيات أو فى المجالس من يقاطع شخصا متكلما أو تاليا لآيات القرآن أو الأحاديث النبوية أو السيرة المحمدية ، هذا المقاطع يجهل الجرم الذى يقع فيه حتى وإن ظهر كمدافع عن الإ سلام ور سوله فإنه جاهل أحبط عمله بنفسه .

فقد عمى عن الناس قول الله عن النبى أنه لا ينبغى أن يكون هناك منازع أو مقاطع فى حضوره ﷺ وحضور حديثه ﷺ كحضوره ﷺ ، فلا يجب عند إيراده أن يكون هناك تنازع و لا يرفع السامع صوته عند سرد الحديث النبوى فإن الله يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ [الحجرات: 2] ، فتوعد الله من يفعل ذلك بأن يحبط عمله ..

ولا فرق عند أهل الله بين صوت النبى أو حكاية قوله ، فما لنا إلا التهيؤ لقبول ما يرد به المحدث من كلام النبى ﷺ من غير جدال ، سـواء كان الحديث جوابا عن سـؤال أو ابتداء كلام ، فالوقوف عند كلامه فى المسألة واجب ..

فمتى قيل. قال الله أو قال ر سول الله ﷺ ينبغى على السامع أن يقبل ويتأدب ولا يرفع صـوته على صـوت المحدث إذا قال ما قال الله أو سـرد الحديث عن رسـول الله ﷺ .. يقول الله : ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 6] ، وما تلاه إلا رسـول الله ﷺ وما سـمعه السـامع إلا منه ، لكن الناطق هوكلام الله بلسـان المتحدث ، السـماع هنا لكلام وليس كلمات والكلام ناطق ، فهذا كلام الله الناطق وإن كان بلسـان من يتكلم الذى هو نائب عنه سبحانه ، فإذا كان الكلام لله فيجب على الـ سامع أن يتأدب ويتحرى الأدب مع الله ، ثم حتى إذا شاركه السامع فى حال كلامه فهو ليس بسامع ..

لأنه من الآداب التى أدب الله نبيه ﷺ قوله : ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: 114] ، والله يقول : ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: 2] وتوعد على ذلك بحبط العمل من حيث لا يشعر الإنسان ، فإن المقاطع يتخيل فى رده وخصامه أنه يدافع عن دين الله وهذا من مكر الله الذى قال فيه : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 182] ، والاسـتدراج هو الحفرة التى يوقع فيها المتعلمون أنفسـهم عندما لا يفهمون حقيقة الأدب مع الله ومع رسوله ﷺ وقال :﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:50].

فالعاقل المؤمن الناصح نفسه إذا سمع من يقول قال الله تعالى أو قال رسول الله ﷺ فلينصت ويصغ ويتأدب ويتفهم ما قال الله وما قال رسول الله ﷺ ، يقول الله : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: 204] ، فجاء بالترجى مع هذه الصفة وما قطع بالرحمة فكيف حال من خاصم ورفع صوته وداخل التالى للقرآن وسارد الحديث النبوى فى الكلام ، ونأمل أن يكون الترجى الإلهى واجبا كما يراه العلماء ..

الأقطاب الورعون :

والورع له أقطاب يسمون الأقطاب الورعين ، فهم من الأدب أنهم لا يطلقون اسم رسول أو نبى على من ليس بذلك ، لأنهم يدركون أن الرسل وحدهم هم الذين اختصوا بهذا الاسم ، فلا يطلقون على الرسل الذين ليسوا برسل اسم رسول ، بل يقولون على الرسول المرسل بين شخصين «المبعوث » ، فيقولون مثلا وصل من الرئيس الفلانى إلى الرئيس الفلانى ترجمان أو مبعوث أو مندوب يقول كذا وكذا ، ولا يطلقون على المرسل أو المرسل إليه اسم الملك ورعا وأدبا مع الله ..

كما أطلقوا كلمة السلطان على المر سل أو المر سل له إذا كان ملكا بدلا من الملك ، فإن الملك من أسماء الله فاجتنبوا هذا اللفظ أدبا وحرمة وورعا مع الله ، وقالوا السلطان لأن هذا الاسم لم يرد فى أسماء الله ، وأطلقوا على الرسول الذى جاء من عنده اسم المندوب أو المبعوث أو الترجمان ولم يطلقوا عليه اسم الرسول لأنه قد أطلق على رسول الله ﷺ فجعلوه من خصائص النبوة والرسالة الإلهية أدبا مع رسل الله عليهم السلام ..

وإن كان هذا اللفظ أو ذاك قد أبيح لهم ولم ينهوا عنه ولكن لم يو جب عليهم فكان لزوم الأدب مع من عرفنا الله أنه أعظم منا منزلة عنده ، وهذا لا يعرفه إلا الأدباء الورعون ..

كما يضيفون أى عيب أو و صف مذموم شرعا ، وعرفا إلى أنفسهم أدبا مع الله تعالى وورعا شافيا كما فعل الخضر فى العيب ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: 79] فنسب العيب لنفسه وفى الخير ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ [الكهف: 82] ، وكما قال الخليل عليه السلام ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ [الشعراء:80] ولم يقل أمرضنى ، ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ ونسب له الشفاء .

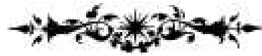
وهؤلاء الأقطاب لأن حالهم الورع ، فقد سلكوا فى حركاتهم وسكناتهم مسالك العامة ، ولم يظهر عليهم ما يميزهم عنهم ، ولم ينطلق على هؤلاء الرجال فى العموم إسم صلاح يخرجهم عن صلاح العامة و لا توكل و لا زهد و لا ورع ، ولا شىء مما يقع عليه ثناء خاص يخرجون به عن العامة ويشار إليهم فيه ، مع أنهم أهل ورع وتوكل وزهد وخلق حسن وقناعة وسخاء وإيثار ..

المزاحمون عند الشيخ :

كما يجب أن نتحرى الأدب مع من هم ورثة رسول الله ﷺ من أهل بيته ، فلا نرفع أصواتنا فى حضرة الولى الوارث المربى المنسوب إلى الدوحة المحمدية عند الدخول إليه ، فلا نتزاحم ولا نتقاتل ولا نرفع الصوت ، ولنعلم أن فيهم رسول الله ﷺ وهم الورثة للحقيقة المحمدية ، **« ارقبوا محمدا فى أهل بيته »** ، « **حسين منى وأنا من حسين**»، وستظل هذه الحقيقة المحمدية فى أفراد أهل البيت حتى يوم القيامة ، واعلم أيه المريد أمام من تقف ومع من تتحدث ..

وليس الأمر كما يقول بعض الجهلاء من المنتسبين كذبا إلى التصوف ، أن « البهدلة» والزحام والصراخ والاختلاط والشد بين المريدين الداخلين على الشيخ المربى ، إنما هو مراد الشيخ ، أين سلوكك وأدبك أنت أيها المريد ؟؟

فإنهم بذلك يعطلون الأسباب والصفات وهذه مسألة خطيرة فى العقيدة ، فأين أدبك وهدوءك أيها المريد القادم للتربية على يد الولى المربى ، فليكن هجيرك قول الله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ ، فميراثه ﷺ موجود وقائم فى أهل بيته الوارثين المكرمين ، فإلزم الأدب إذا أردت أن تكون من السالكين فى طريق الله ، وإلا فلا سبيل لك وأرح نفسك ..



المتشيخون والسماع الإلهي

كثيرا ما كنت أسأل نفسى ، قبل أن يفتح الله على بقدر من الفهم ، عندما أرى بعض هؤلاء الناس الذين يصيحون ويتمايلون عند سماع قارئ القرآن ، عما فهموه وجعلهم على هذا النحو من الصياح والصراخ أحيانا والتمايل يمينا ويسارا ؟؟ وكنت أغبطهم على هذا الذى لا أجده فى نفسى ، أيكون عجزًا منى وقلة فهم ؟ .. إنى – والمنة والفضل لله – أجد نفسى متدبرا متفكرا فى المعانى إذا ما سمعت كلام الله فى هدوء .. فماذا يفعل هؤلاء ؟؟ فهل هذا نوع من الجذب أم مجرد شكلا من أشكال البهللة ؟ وهل الجذب داخليا – إذا كان جذبا – أصح وأفضل ؟؟؟

إن هناك فرقا بين السماع الروحانى الإلهى وهو سماع الأكابر من أهل الله وبين السماع الطبيعى للعامة الذين يتأثرون بنغم وحلاوة أداء الكلمات دون معنى أو فهم وتعلموا ذلك فأصبحت لديهم عادة ، فالسماع المطلق أو الإلهى هو السماع للمعانى لعلو همة أصحابه فهم لا يسمعون إلا المعانى ..

كثير ما نشاهد نوعا من الجلبة والصياح من المنتسبين كذبا إلى أهل الله فى المساجد عند تلاوة القرآن أو سماع التواشيح أو غير ذلك من المعانى الجميلة التى تقرأ أو تتلى أو تقال بهذه الأماكن الطيبة ، وقد يدعى صاحب هذا السماع وأغلبهم من البسطاء فى الفهم الحقيقى أن ما حركه وجعله يتمايل يمينا ويسارا وجعله يصيح بكلمات الاستحسان إنما المعانى التى فهمها ، والحقيقة أنه مدعٍ إذا ما صـدرت عنه هذه الجلبة لأن الفهم يناقض إصدار الجلبة والضوضاء ، ولأن الفهم يلزم السكون ..

فالسماع الطبيعى هو السماع المقيد الذى لا يؤثر فقط سوى فى أصحاب النغم ، فإذا قال السامع من نوع أصحاب السماع الطبيعى أو المقيد : أنه لولا المعنى ما تحركت أو تمايلت ، فاعلم أنه غير صادق ، لاسيما من المتشيخين المتطفلين ..

الفرق بين الفهم والجلبة والصياح :

إن هذا المدعى المتشيخ إذا حضر مجلس السماع ، فانظر له وجعل بالك عليه ، فإذا أخذ القائل بالكتاب والســنة أو القائل فى القول بتلك النغمات المحركة للمزاج القابل أيضــا وســرت الأحوال فى النفوس الحيوانية فحركت الهياكل حركة دورية كحكم استداره الفلك ، فإذا تحرك هذا المدعى أو المتشيخ

وأخذ الحال ودار أو قفز إلى فوق أو غير ذلك ، فاسأله إذا فرغ من حاله وصياحه ورجع إحساسه عن ما الذى حركه فيقول : إن القائل قال كذا وكذا ففهمت منه معنى كذا وكذا فذلك المعنى حركنى ، فقل له : ما حركك سوى حسن النغم ، وإنما الفهم قد وقع لك فى حكم التبعية فالطبع حكم على حيوانيتك (الطبع يغلب التطبع) ، فلا فرق بينك وبين الجمل فى تأثير النغم فيك ..

فستعز عليه نفسه من هذا الكلام ويثقل عليه فيقول لك ما عرفتنى يا أخى ، وما عرفت ما حركنى ، فإسكت عنه ساعة فإن صاحب هذه الدعوى تكون الغفلة هى المستولية عليه ، ثم خذ معه فى الكلام واتل عليه آية من كتاب الله تتضمن ذلك المعنى الذى كان قد حركه من صوت المغنى وحققه عنده حتى يتحققه فيأخذ معك فيه ويتكلم، فلن يأخذه حال ولا حركة ولا فناء ولكن سيستحسنه ، فما أشد فضيحته فى دعواه ، فقل له هذا المعنى يا أخى هو بعينه الذى ذكرت لى بالأمس أنه حركك لما قال به المغنى أو القائل ، ومع ذلك ما رأيتك تهتز مع الاستحسان وحصول الفهم ، وكنت بالأمس يتخبطك الشيطان من المس ، وحجبك السماع الطبيعى عن عين الفهم ، فما حصل لك من سماعك إلا الجهل بك ، فمن لم يفرق بين فهمه وحركته لا يرجى فلاحه ..

متى يكون السماع عين الفهم ؟ :

فالسماع من عين الفهم هو السماع الإلهى ، وإذا ورد على صاحبه وكان قويا فغاية ما يفعله فى الجسم هو أن يضجعه ويغيبه عن إحساسه و لا يصدر عنه ولا منه حركة أصلا سواء كان من الرجال الأكابر أو الصغار ..

فالوارد الإلهى لا يبقى للجسم ما يجعله يقوم ويقعد ويقف ، بل يرجعه إلى أصله وهو التراب (الأرض) المعبر عن هذا الأصل بالاضطجاع ولو كان على سرير فإن السرير هو المانع له من وصوله إلى التراب أو الأرض أو أرض الحجرة فإذا فرغت روحه من ذلك التلقى وصدر الوارد إلى ربه ، رجعت الروح إلى تدبير جسمه فأقامته من ضجعته ، وهذا سبب ا ضطجاع الأنبياء على ظهورهم لا سيما عند نزول الوحى ، فما سمع عن نبى أن تخبط قط عند نزول الوحى ..

الأكابر والسماع :

الأكابر من أهل الله ملكهم الله أحوالهم ، وجعلهم حاكمين عليها ، و لذلك لما قيل للجنيد : ما لنا نرى المشايخ يتحركون فى السماع وأنت لا تتحرك ؟؟ .. قال رضى الله عنه :

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾[النمل: 88]

وقيل لبعضــهم : ما لك لا تتحرك فى الســماع ؟ فقال : إنه إذا كان فى الجمع كبير احتشمت منه فأمسكت على وجدى ، فإذا خلوت وحدى أرسلت على وجدى فتواجدت .. فأنظر لهذا الرجل كيف كان زمام حاله معه يمسكها إذا شاء ، ويطلقها إذا شاء ..

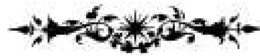
وقد قال أحد العارفين أن من تحقق بالله ملك الأ شياء ولم تملكه فيصير الحال تحت قهر تصريفه ، ويكون ذلك للرجل لرسوخه فى العلم بالله ، والعلم حاكم على الحال وبه يوزن ، والحال إنما هو فرع من فروع العلم ، والعلم ثابت ، والحال لا بقاء له ..

قال أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : كان الجنيد قطبا فى العلم ، وكان سهل بن عبد الله التسترى قطبا فى المقام وكان أبو يزيد البسطامى قطبا فى الحال ..

ليس أهل الحضرة والأدب كأهل اللهو والطرب :

ويحكى ابن عطاء الله السكندرى : كانت هناك إمرأة من أهل الإ سكندرية عارفة بالله أخبرته أنها كانت تمشــى بالإســكندرية وإذ بناس فى لهوهم وطربهم فقالت فى نفســها : هؤلاء فى فرح ومسرة وحلم الله من ورائهم ونحن فى ملاقاة النوازل وقهر الأحكام ..

قالت : فإذا قائل يقول لى : ليس أهل الحضرة والأدب كأهل اللهو والطرب ..



الجسوم الإنسانية

إن أول جسم إنسانى وجد جسم آدم وأول روح وجدت روح محمد ﷺ ، وأول شخص استفتحت به الرسالة نوح عليه السلام وللوراثة حظ من الرسالة ، ولهذا قيل فى معاذ وغيره رسول رسول الله وما فاز بهذه الرتبة ويحشر يوم القيامة مع الرسل إلا المحدثون الذين يروون الأحاديث بالأسانيد المتصلة بالرسول وهم نقلة الوحى وهم ورثة الأنبياء فى التبليغ ..

إن أصل أرواحنا روح محمد ﷺ فهو أول الآباء روحا ، وآدم أول الآباء جسما ، ونوح أول رسول أرسل ، وأن ما كان قبله إنما كانوا أنبياء لكل واحد شريعة من ربه ، فمن شاء دخل فى شرعه معه ومن شاء لم يدخل ، فمن دخل ثم رجع كان كافرا ومن لم يدخل فليس بكافر (□)..

(□)فتوحات محيى الدين بن عربى المجلد الثالث .

ومن أدخل نفسه فى الفضول وكذب الأنبياء كان كافرا ومن لم يفعل وبقى على البراءة لم يكن كافرا وأن قوله ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: 24]

ليس بنص الرسالة وإنما هو نص فى أن فى كل أمة عالما بالله وبأمور الآخرة وذلك هو النبى لا الرسول ولو كان الرسول لقال إليها ، ولم يقل فيها ، وكان إدريس عليه السلام منهم ولم يجئ له نص فى القرآن برسالته بل قيل فيه ﴿صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم:56]..

﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾:

وفى إعجاز عجيب وإيجاز لغوى جميل أوجز القرآن الكريم أنواع الجسوم الإنسانية وأنواع الخلق الإنسانى فى أربع كلمات فقط ، تشير كل كلمة بمفردها إلى غير ما تشير إليه إذا ما جمعت مع غيرها من كلمة واحدة أو كلمتين ، وهذا الإيجاز الجامع يظهره كمال الفضائل التى حصل عليها الرسول ﷺ والتى من بينها جوامع الكلم « **أعطيت جوامع الكلم** » ...

فهناك أربعة أنواع من الخلق الإنساني أو الجسوم الإنسانية ، حيث أن خلق آدم لا يشبه خلق حواء ، وخلق حواء لا يشبه خلق سائر بنى آدم ، وخلق عيسى عليه السلام لا يشبه خلق ما ذكرنا ، فآدم من طين وحواء من ضلع آدم وعيسى من نفخ من روح ،

وبنى آدم من ماء مهين ، فهناك جسوم إنسانية أربعة : جسم آدم ، وجسم حواء ، وجسم عيسى، وأجسام بنى آدم ، وكل جسم من هذه الأربعة تختلف نشأته عن الآخر ..

و قد جمع الله هذه الأجسام فى آية وا حدة فى القرآن : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم ﴾ [الحجرات: 13] يريد بذلك آدم ، وقال : ﴿ مِّن ذَكَرٍ ﴾ [الحجرات: 13] يريد بذلك حواء ، وقال : ﴿ وَأُنثَىٰ ﴾ [الحجرات: 13] يريد بذلك عيسى ، ومن المجموع قال تعالى : ﴿ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ [الحجرات:13] يريد بذلك بنى آدم بطريق النكاح والتوالد فهذه الآية من جوامع الكلم وفصل الخطاب الذى أوتى محمد ﷺ ..

فلما ظهر جسم آدم ولم تكن به شهوة النكاح وكان قد بقى فى علم الحق إيجاد التوالد والتناسل والنكاح فى هذه الدار لبقاء النوع أخرج من ضلع آدم القصيرى حواء فقصرت بذلك عن درجة الرجال كما قال تعالى : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾[البقرة: 228] وكان فى الضلع إنحناء لتحنو بذلك على ولدها وزوجها ..

الحنو بين الرجل والمرأة :

فحنو الرجل على المرأة حنوه على نفسه ، أى حنو الكل للجزء ، لأنها جزء منه وحنو المرأة على الرجل حنو الجزء للكل ،

وحنو للموطن ، ولذلك يظهر حب الرجل للمرأة إذا كانت عينه ، وأعطيت المرأة القوة المعبر عنها بالحياء فى محبة الرجل فقويت على الإخفاء لأن الموطن لايتحد بها اتحاد آدم بها ..

فنشء آدم كنشء الفواخرجى فيما يصــنعه من الطين والطبخ ، فى حين أن نشء حواء كنشء النجار فيما ينحته فى الخشب مثلا .. ، ثم سكن آدم إليها وسكنت إليه ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة :187] وســرت الشــهوة فيه فى جميع أجزائه فطلبها فلما تغشاها وألقى الماء فى الرحم تكون بذلك جسم ثالث على غير نشأة آدم وحواء هو بنى آدم وتولاه الله بالرعاية فى بطن حواء ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: 24] ..

ولما قال علماء الطبيعة أن ماء المرأة لا يكُوِّن شيئا ، جاءت نشأة عيسى عليه السلام شــكلا آخر ، وإن كان تدبيره فى الرحم كتدبير الجنين ، إذ تمثل لها الروح بشــرا ســويا ، فإنه إما كان من ماء المرأة إذ تمثل الروح بشرا سويا ، أو كان عن نفخ بغير ماء ، فعلى كل وجه هو جســم رابع مغاير فى النشء ولذلك قال : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾ بالكاف والنون أى أن صفة نشء عيسى الضمير يعود على آدم ، ومع الشبه فى خلقه من غير أب ..

خلق الجان :

وإن كنا نتحدث عن خلق الجسوم ، فسوف أتطرق بالحديث عن خلق جسم آخر ذات صلة بالإنسان بوصفه أحد الثقلين ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴾ [الرحمن: 31]وهو خلق الجان ، فقد قال الله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ [الرحمن: 15] ، وورد فى الحديث أن الله خلق الملائكة من نور وخلق الجان من نار وخلق الإنسان مما قيل لنا ..

فعندما يشتعل الهواء ذلك اللهب هو احتراق الهواء هو المارج ، و سمى مارجا لأنه نار مختلط بهواء ، وهو الهواء المشتعل فإن المرج الاختلاط ، فالجان من عنصرين هواء و نار مثلما آدم من عنصرين من ماء وتراب عجن فحدث الطين كما حدث لامتزاج الهواء بالنار اسم المارج ..

والجان بما فيه من هواء يتشكل فى أى صورة شاء ، وبما فيه من نار سخيف العقل خفيف لا يثبت ، وفيه القهر والاستكبار والعزة ، لأن النار أرفع الأركان مكانا و له سلطان على إحالة الأشياء التى تقتضيها الطبيعة ، وهذه النشأة كانت سببا أنه ستكبر على السجود لآدم ، وقوله: أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ..

ولم يعلم هذا المطرود من رحمة الله أن سـلطان الماء الذى خلق منه آدم أقوى منه لأنه يطفىء النار ويذهب بها ، وأن التراب أثبت منه للبرد واليابس ، فلآدم القوة والثبات ، ولكن ليس له فى ن شأته ذلك ال سلطان الذى للهواء والنار ، وأعطى آدم التوا ضع للطينة التى نشــأ فيها ، فإن تكبر فلأمر عارض بما فيه من النارية فالثبات صــفة اســتثناء للجان وأساس للإنسان والنارية استثناء للإنس وأساس للجان ..

فآدم فيه من النارية والهوائية مثلما فى الجان من الترابية والمائية ، ولذلك قال رسـول الله ﷺ : « أنه عندما كان يتلو سورة الرحمن على الجن فكانوا أحسن ا ستماعا لها منكم ، فكانوا يقولون: ولا شــىء من آلاء ربنا نكذب عندما كنت أقول : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ، ثابتين عليه ما تزلزلوا عندما كان يكرر عليهم ذلك ، وذلك بما فيهم من الترابية والمائية ، وبالتالى منهم الطائع ومنهم العاصى مثلنا ..

و قد أخذ الله بأبصــارنا عنهم فلا نراهم إلآ من شــاء الله له من عباده .. وكما وقع التناسل بين بنى البشر بإلقاء الماء ، كان التناسل فى الجان بإلقاء الهواء فى رحم الأنثى ..

ويقال أنه كان بين خلق الجان وخلق آدم 60 ألف ســنة ، وكان ينبغى على مايزعم البعض من الناس أن ينقطع التوالد من الجان بعد انقضــاء 4 آلاف ســنة وينقطع التوالد من البشــر بعد انقضــاء ســبعة آلاف ســنة ، ولم يقع الأمر على ذلك بل الأمر راجع إلى ما يريده الله ، فالتوالد من الجن لا زال باقيا وفينا (□).

والملائكة أرواح منفوخة فى أنوار والجان أرواح منفوخة فى رياح والأناســى أرواح منفوخة فى أشباح ، وقد قيل أنه لم تفصل الأنثى من الجان عن الموجود الأول من الجان مثلما حدث فى حواء ، وأن الله خلق فى الموجود الأول من الجان فرجا فى نفســه فنكح بعضه ببعضه فولد مثل ذرية آدم ذكرانا وإناثا ثم نكح بعضه بعضا ، فهو مخلوق خنثى ، ولذلك فإن الجان لهم شبه بالبشر كما أن لهم شبه بالملائكة كالخنثى ..

أما غذائهم فهو الشــم فى العظام أى ما يحمله الهواء هذا رزقهم ، فقد قال ﷺ فى العظام « أنها زاد إخوانكم من الجان » ، أما جماع بعضــهم ببعض يتم كالتواء والتفاف البعض بالبعض مثل الدخان الخارج من الأتون ..

(□)فتوحات ابن عربى . مرجع سابق .

وهم قبائل وعشـــائر وقد قيل: إنهم محصـــورون فى 12 قبيلة ثم يتفرعون إلى أفخاذ، وتندلع بينهم حروب عظيمة ، وبعض الزوابع قد تكون حربهم وإن كان كل زوبعة ليس بحرب بينهم ..

الجان سخيف العقل :

والجان خفيف سخيف العقل ، وهو نعت الجان وبه ضل عن طريق الهدى ، فخفى عقله وعدم تثبته فى الرأى فقال : ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ ﴾ [ص: 76] ، فجمع بين الجهل وســوء الأدب فمن عصــى من الجان كان شـيطانا أى مبعودا مطرودا من رحمة الله وكان أول من ســمى شـيطانا من الجن الحارث فأبلســه الله أى طرده من رحمته وطرد الرحمة عنه ، ومنه تفرعت الشياطين بأجمعها ، فمن آمن منهم مثل هامه بن إلهام بن لاقيس بن إبليس التحق بالمؤمنين من الجن ومن بقى على كفره كان شيطانا ، ومثلما كان قابيل أول الأشقياء من بنى البشر ، فكان إبليس أول الأشقياء من الجن ..

مسألة ذات صلة :

يقول بعض العلماء إن اختلاف أحوال الخلق يأتى لاختلاف الأزمان عليها ، فحالها فى زمان الربيع يخالف حالها فى زمان الصيف ، وحالها فى زمن الصيف يخالف حالها فى زمان الخريف

وحالها فى زمان الخريف يخالفها فى زمان الشتاء ، وحالها فى زمان الشتاء يخالفها فى زمان الربيع ..

وحول ما تفعله الأزمان فى الأجســام الطبيعية ، يقول البعض : تعرضــوا لهواء زمان الربيع فإنه يفعل فى أبدانكم ما يفعله فى أشــجاركم ، وتحفظوا من هواء زمان الخريف فإنه يفعل فى أبدانكم كما يفعل فى أشــجاركم ، وقد نص الله تعالى على أننا من جملة نبات الأرض فقال : ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح: 17] ، أراد فنبتم نباتا لأن مصــدر أنبتكم إنما هو إنباتا ..



الفصل الخامس الخاطر والوارد وما بينهما

لله سفراء إلى قلب عبده يسمون بالخواطر لا إقامة لهم فى قلب العبد إلا وقت مرورهم عليه ، فيقدمون بما أرسلوا من غير إقامة ، لأن الله خلقهم على صورة رسالة ما أرسلوا به ، فعندما يقع الخاطر على القلب ، فإما يعمل العبد بمقتضى ما أتاه به الخاطر أو لا يعمل ، فالخاطر فيه طيب وغير ذلك ، ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: 79] ، ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾، ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: 20] ، ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: 87]..

أما الوارد عند أهل الله هو ما يرد على القلب من كل اسم إلهى ، فقد يرد الوارد بقبض أو بسط أو بهيبة أو بأنس أو بصحو أو بسكر ، أو بأمور أخرى كثيرة وكلها واردات ، والوارد هو من الخواطر المحمودة ، والوارد يعنى الإتيان ، وقد يرد الوارد فجأة وقد يرد غير فجأة ، وكل وارد إلهى لا يأتى إلا بفائدة ، « ما بكم من حسنة فمن الله » ..

هوية الخاطر:

قال الزبيدى : الخاطر هو ما يخطر على القلب من تدبير أو أوامر ، وجمعه خواطر ، وإلى هذا المعنى أشار الزمخشرى فقال : الخواطر ما يتحرك بالقلب من رأى ومعنى ، وهذه المعانى فيها دلالة واضحة لمعنى الخواطر المتداول عند العلماء فى كتبهم ..

ويقول على الطنطاوى فى كتابه صيد الخواطر : وفى هذا الاسم توفيق عجيب ذلك أن الخواطر لا تفتأ تمر على الذهن كأنها الطيور التى تجوب سماء الحقل تراها لحظة ثم تفقدها ، كأنك ما رأيتها ، فإذا أنت اصطدتها وقيدتها ملكتها (□).

ولو أن كل عالم بل لو أن كل متعلم قيد ما يمر بذهنه من الخواطر لكان من ذلك ثروة له وللناس يعود هو بعد سنين إلى ما كتب فيرى فيه تاريخ تفكيره ، ويرى فيه ما افتقد من نفسه ، والإنسان فى تبدل مستمر ، يذهب منه شخص ويولد شخص ، وحينما تقرأ وأنت شيخ خواطرك التى سجلتها وأنت شاب تجد شيئا غريبا عنك كأنك ما كنت أنت صاحبه ، وكأنه خطر على بال غيرك ..

(□)صيد الخواطر : على الطنطاوى .

ويقول الدكتور عبد الرحمن البر ممن حقق صيد الخواطر : شأن الخواطر ألا ترتبط بموضوع معين ، ولا بترتيب معين وأن تأتى متفرقة حسبما يتنسق فى الخاطر وحسبما تكون حالة الكاتب النفسية ، وأنها فى كل موضوعاتها تنضح بفكر كاتبها وثقافته وطريقته فى النظر والتعامل مع الأشياء والأشخاص ، ومن أهم دلالات الخواطر أنها تعطى صورة صادقة وصحيحة للعصر والزمان والأحداث التى عايشها صاحبها ..

ويرى آخرون أن صاحب الخواطر لابد أن يكون لماحا ، يقظا ، سيال القلم ، حاضر الفكر ، سهل العبارة ، متر صدا للأحداث والمواقف ، يجعل من لا شىء شيئًا ، يحلل المواقف بموضوعية ، لايبخس حق الآخرين ، لا تجده ضيق الفطن أو متحجر القلب أو متبلد الإحساس أو يتعامل مع الأحداث بسطحية وبنظرة قاصرة ..

خصائص الخواطر :

ومن خصائص الخواطر أنها تجمع أنواع العلوم وألوان الفنون ، من كل بحر قطرة ومن كل روض زهرة ومن كل واد حجرة وهذا يتحقق فى تبحر صاحبها وتفنن كاتبها ، كما أن من خصائصها أنها تختلف قوة وضعفا من شخص إلى شخص ، بل تختلف خواطر الشخص الواحد من حال إلى حال ، ومن موقف إلى موقف ، ومن فن إلى فن بحسب ما تحمله العبارة وما تجود به الخاطرة ..

التمييز بين خواطر الخير والشر:

ولكن كيف تميز بين خاطر الشـــر وخاطر الخير ؟؟؟؟ ، أيما خاطر يخطر على قلبك اعرضه على ميزان الشريعة بأحكامها الخمسة من الواجب والمندوب والمباح والمكروه والمحرم ، مع التنبيه إلى مسألة خطيرة ، مسألة استهانة البعض بأداء السنن بزعم أنها سنة وليســت فريضــة ، فالحق عز وجل جعل لك واجبا وســنة ليعينك على الترقى ، ومكانة الســنة عند مريد الآخرة تكاد تنزل عنده منزلة الواجب ، فلا يتنازل عن أدب من أدب النبوة ، فضلا عن سنة وردت عن الحبيب ﷺ..

كذلك ما يتعلق بترك المكروه ، فإذا كان فعل المكروه لا يوجب الإثم ، ولكن هل حالك مع الله مختصر فى أن تأثم أو لا تأثم ، أم أن لك شوقا وتشوقا فى أن تكون مع الله وقريبا منه ؟؟ فالمريد يأنف من المكروه ، وينفر منه ويأنف بدرجة تقرب من درجة المحرم ..

وقد جرت ســنة الله تعالى أن من يحوم حول الحمى يوشــك أن يقع فيه ، والقاعدة الراســخة أن الإنســان لا يكاد يقع فى محرم إلا بعد أن يقع فى مكروه ، وكل صــادق لا يرضى لنفسه أن يستدرجه الشيطان أو النفس بذريعة الاستخفاف بالمكروه ..

فما ســبق كان ميزان الشــريعة ، ولكننا فى حاجة إلى موازين أخرى إذا أشــكل علينا ميزان الشريعة ، أو لم نجد العالم العارف الذى نسأله لأن الخاطر يأتى سريعا ويحتاج إلى جواب عاجل ..

وبالتالى فهناك طرق أخرى ، كأن تعرض ما خطر لك على تجارب الـ سلف الـ صالح ، وإن كان هذا يستلزم من المريد قراءة سير الصالحين ، لتعرف ما إذا كان هذا الخاطر قد استحسنه أو استقبحه السلف الصالح ..

الفرق بين وسوسة الشيطان والنفس :

ثم بإمكانك أن تعرض الخاطر على نفسك ، فإذا وجدت منها خفة ونشاط وإقبال على هذا الخاطر دون أن يكون هذا الإقبال نتيجة تأثر وإرشاد فهو فى الغالب من خواطر الشر الذى تميل إليه النفس بالهوى ، وإذا اســتثقلت النفس هذا الخاطر وتأخرت عنه من داخلها ، فيكون فى أغلب الأمر من خواطر الخير ..

ذلك لأن الأصل فى النفس التى لم ترتق فى تزكيتها إلى النفس المطمئنة أنها تأمر بالسوء ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوســف: 53] ، فهذه موازين ثلاثة للتمييز بين خاطر الشر وخاطر الخير ، فإذا تبين لك أنه من خواطر الشر ،

فيجب أن تعرف كيف تتعامل معه ، فهو فى هذه الحالة أما وسوسة من الشيطان أو من هوى النفس أو استدراج وعقوبة من الله تعالى ..

عندما تعلم أنه خاطر شر تأمل فيه ، هل يصرفه أن تذكر الله ؟ كأن تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لا إله إلا هو وحده لا شريك له و صليت على المصطفى ﷺ أو إن اشتغلت بشىء من الذكر ، فإذا انصرف الخاطر تعلم أنه كان من الشيطان يقينا لأنه يفر من ذكر الله ، ولا يستطيع أن يباشر وسوسته إلى قلب يذكر الله ..

أما إذا كان خاطر الشر يصر على معصية ، أو كلما انصرفت عنها يصر على أخرى ، فالشيطان لا يبالى بأى معصية هلكت سواء بفاحشة وقطع صلة رحم أو بشرب خمر ، فالمحصلة النهائية لديه أن الوسوسة تحققت ، غير أن النفس تأمر بسوء محدد وتصر عليه ولا تنصرف عنه ، فإذا وجدت عنك خاطر شر لا ينصرف ولا يتبدل فاعلم أنه من النفس ..

وعلاج خاطر النفس بالترويض ، لأنها صعبة المراس تحتاج إلى نوع من التذليل ، وأولها قم عن الطعام ونفسك لا تزال تشتهى المزيد ، وثانيا قم الليل ، واقرأ القرآن ..

خاطر الاستدراج:

غير أن أ شر خواطر الشر هو الا ستدراج ، الذى قد ينتج عن الا ستهانة بمعصية وقع فيها ولا يتوب بل يتفاخر بها ويهتك ستر الله عليه ، فيعا قب بأن يقذف فى قلبه دوام المعصية أو الرغبة فى معصية أخرى ، فإذا وجدت خاطر الشر بعد معصية لم تتب إلى الله منها ، فإعلام أنه نوع استدراج وعقوبة من الله وهو من أخطر أنواع تلك الخواطر ..

وعلاج الاستدراج التوبة إلى الله والرجوع فى الحال ، وفى المراجعة اعتراف بالذنب والشعور بالقلق ، فلا تستهن بمعصية الله ، وكن قلقا على مرضاته وطلب سماحه وعفوه تسلم من الاستدراج ..

طرق الخواطر إلى القلب:

ويرى آخرون أن للخواطر سبلا أو طرقا خمسة إلى قلب العبد ، فسمى الطريق الأول وجوبا وفر ضا ، والثانى ندبا ، والثالث حظرا ، والرابع كراهة والخامس إباحة ووكل الله ملكا لحفظ القلب ، وجعل فى مقابلته شيطانا أقعده إلى جانبه عن غير أمر الله المشروع حسدا منه لما رأى من اعتناء الله بنشأة الإنسان على هذا النحو ،

وأمر الله النفس بحفظ ذاتها من الشـيطان ، ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾[الشـمس: 7] وإن جعل الله هذه النفس قابلة لما يقبل عليها ، فهناك ملك حافظ وشـيطان منازع ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ (□).

فيأتى هؤلاء السفرة الكرام البررة من خلال الطرق أو السبل إلى القلب ليلقى ما لديه ليتلقاه الملك أو الشيطان أو النفس ، فيأخذه من بادر إليه بالتلقى ، فإن أخذه الملك وهو ما يقتضـى وجود عمل مفرح أوحى إليه الملك فى سـره اعمل كذا وكذا ، فيقول له الشـيطان : لا تعمل وأخره إلى وقت كذا ، طمعا منه فى ألا يقع منه ما يؤدى إلى سـعادته ، وهو ما يجده الإنسان فى التردد فى فعل الخير وتركه ، وفى فعل الشر وتركه ، وكذلك إذا جاءه فى الشىء المباح فذلك التردد فى فعل المباح وتركه إنما هو من النفس والشيطان لا بين الملك والشيطان ، قال رسول الله : « **إن للملك لمة على الإنسان وللشيطان لمة** » ..

فصاحب الأمر فى الشر هو الشيطان فله التقدم ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا ﴾[الشمس: 8] ،

(□)فتوحات محيى الدين بن عربى : المجلد الرابع .

وصـــاحب الأمر فى الخير إنما هو الملك ﴿وَتَقْوَىٰهَا ﴾ ، فلا يرد نهى إلا بعد أمر ، وأصل الموضوع مع آدم عليه السلام ، فإن الأمر تقدمه بسكنى الجنة والأكل منها حيث شـاء ، ثم نهاه عن قرب شـجرة مشـار إليها أن تقربها ، فوقع التحجير والنهى فى قوله ﴿ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ [البقرة: 35] لا فى الأكل إنما حجر عليه القرب منها ..

خاطر العلم وخاطر العمل:

فالخواطر تختلف آثارها فى النفس باختلاف من يتعرض لها ، فإن لم يتعرض لها أحد ممن ذكرنا فذلك خاطر العلم لا يكون خاطر عمل أبدا وهو الخاطر الربانى ، أما خواطر الأعمال والتروك تكون ملكية و شيطانية ونفسية ﴿ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: 78] ، فإذا كان ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا ﴾ [الشمس: 8] عملا أو تركا لمجيئه على يد الشـيطان ، ﴿وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشـمس: 8] عملا أو تركا لمجيئه على يد الملك ، كقوله ﷺ « **إن للملك على الإنسان لمة وللشيطان لمة** » ..

الخواطر خطابات وليست تجليات:

والخواطر خطابات إلهية وليســت تجليات إلهية ، وبالتالى فإن صــاحب العلم بالله يستطيع أن يميز نوع الخاطر إن كان من ملك أو من شيطان أو نفسى ، وبغير العلم فإن كان خير فبحكم المصادفة وإن كان شرا فكذلك ..

الوارد هو محمود الخاطر:

أما الوارد فهو المحمود من الخواطر كما ذكرت سـابقا ، وهو ما يرد على القلب من كل اسم إلهى ، وكل وارد إلهى لا يأتى إلا بفائدة ﴿مَآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء:79]..

ويختلف الوارد طبقا لاختلاف ما ورد به ، فمنه الوارد بعمل والوارد بحال والوارد بعمل وحال والوارد بعلم وعمل وحال ، وذلك كوارد الصــحو والســكر ، وهو أقوى الواردات ، وقد يكون الوارد عن تجل وقليل من أهل الله ما يكون له ذلك ، وليس كل الواردات مثل ذلك ..



الرجال أربعة

ولا أقصـــد بالرجال هنا الذكور فقط بل أن الأمر يجمع بين الرجل والمرأة كل على قدر عمله وعلى قدر ما فضـــل الله بين العباد ، وإن كان الله لم يبعث رســولا من النســاء ، ولكن لهن مقام النبوة العامة نبوة السلوك لا نبوة التشريع ولهن ما دون ذلك من الولاية والإيمان ، ولكن قصدت بالرجال هنا الشمائل والعزائم والفضائل والأخلاق المقترنة بلفظة الرجولة المجازية ..

يرى أهل الكشف أن الرجال عند الله أربعة ، على مراتب ر سول ونبى وولى ومؤمن ، وما دون ذلك ليس برجال حسب القصد الذى أولیناه الحديث، وهم ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: 37] ، و﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ﴾ [الأحزاب: 23] ، و﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّـاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَـالًا﴾ [الحج:27] ، يريد بذلك على أرجلهم لا يركبون أى لاينتظرون أن يحملوا ، و ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف :46]..

فأراد بالرجال أربعة حصر المراتب لأنه ما ثم إلا ر سول أو نبى أو ولى أو مؤمن ، أما ما عدا هؤلاء الأربعة فلا اعتبار لهم من حيث أعيانهم لأن الشـــىء لا يعتبر إلا من حيث منزلته لا من حيث عينه الإنسانية ، فالإنسانية واحدة العين فى كل إنسان ، وإنما يتفاضل الناس بالمنازل لا بالعين حتى فى الصورة من جميل وأجمل وغير جميل ..

ولهذا ما جاء أهل الله بذكر الرجال أكثر من أربعة ، وما أريد بالرجال فى الآيات الذكور خاصــة وإنما أريد الصــنف الإنســانى ذكرا كان أو أنثى ، وعن قوله : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ [الحج: 27] ، المراد به من أتى ماشــيا على رجله ، قال أبى محمد عبد الله الشكازبا من بلاد الأندلس : أن الرجل لا يكون محمولا والراكب محمول ..

***

رجال الباطن :

ففى قوله ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [النور: 37] فهم رجال الباطن وهم فى تجارتهم فى ذكر الله لأن التجارة على الحد المرســوم الإلهى من ذكر الله ، كما قالت عائشة عن رسول الله ﷺ أنه كان يذكر الله على كل أحيانه مع كونه يمازح العجوز والصــغير ، وكل ذلك عند العالم ذكر الله ، لأنه ما من شــىء إلا وهو يذكر الله ، فمن رأى شــيئا لا يذكر الله عند رؤيته فما رآه فإن الله ما وضــعه فى الوجود إلا مذكرا فلم تلههم التجارة ولا البيع عن ذكر الله ..

ورجال الباطن هم جلساء الحق تعالى ولهم المشورة ، ولهم التصرف فى عالم الغيب والملكوت ..

رجال الظاهر :

ومنهم ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾[الأحزاب: 23] وهم رجال الظاهر ، فى أخذ الميثاق الذى أخذه الله عليهم فوفوا به وقيل: فيهم صدقوا لأنهم غالبوا فيه وفى الوفاء به ، فليس الرجل إلا من صدق مع الله فى الوفاء بما أخذ عليه كما صدق النبى فيما أخذ الله عليه فى ميثاق النبيين والمرسلين ..

رجال الحد :

وقوله ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: 46] وهم رجال الحد وهم أعظم الرجال فى المنزلة فإن لهم الاستشراف على المنازل ، فما أشار رجال الله هنا إلى الأعراف هنا إلى من تتساوى حسناته مع سيئاته ، مثلما يشير بعض علماء الرسوم ، ولكنهم أخذوه من حيث منزلة الاستشراف ، فإن الأعراف هنا هو السور الذى بين الجنة والنار باطنه فيه الرحمة وهو الذى يلى الجنة ، وظاهره من قبله العذاب وهو الذى يلى النار ..

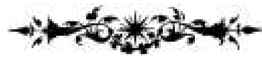
ويتصف ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾ [الأحزاب: 23] ، أى رجال الظاهر بأن لهم التصرف فى عالم الملك والشهادة ، فى حين يطلق على ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: 46] أنهم رجال الحد لأن لهم التصرف فى عالم الأرواح النارية فى عالم البرزخ والجبروت ..

و رجال الأعراف هم أسعد الناس بمعرفة هذا السور الذى هو بين الجنة والنار ، لا يتعدون حدود الله وهم رجال الرحمة التى وسعت كل شىء وهم أهل الشمم والتميز ..

رجال المطلع :

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا ﴾ [الحج: 27] ، وهم ر جال المطلع ، وهم الذين لهم التصرف فى الأسماء الإلهية وهم الملامية ، وهم رجال إذا دعاهم الحق إليه يأتونه رجالا وترجلا لسرعة الإجابة لا ينتظرون أن يحملوا أو يركبوا لحر صهم الشديد على تلبية نداء الحق ..

وما دون تلك الأصناف الأربعة ، لا يعد من الرجال ، كرأى أهل الكشف من أهل الله ، وذلك على مراتب رسول ونبى وولى ومؤمن ، وليس المقصود هنا بالرجال الذكران ، بل يشمل الأمر الإناث فى بعض التصنيفات « **كمل من الرجال كثير وكمل من النساء أربع** » (الحديث النبوى) ..



القطب والإمامان

قد يردد بعض الناس حتى المتصوفة منهم بعض المسميات والكلمات التى قد يجهلون مدلولها وكنهها ، وبالتالى يحرمون التنعم بمعانيها ، فالصوفية لها مصطلحاتها التى تعبر عن وجدان السالكين طريقها والتى قد يتعذر على غير المتصوفة معرفتها فيخطئون فهمها وموا ضع ا ستخدامها وبالتالى يحرمون اللذة من تذوقها ، من هذا موضوع الحديث فى هذا الفصل من الكتاب .

فالمراتب عند أهل الله أهل الكشف أربع لا خامس لها ، تقتضى كل منها أمورا لا نهاية لها من العلوم والأسرار والأحوال ، فالمرتبة الأولى رسالة والثانية نبوة والثالثة ولاية والرابعة إيمان ..

ولأن الرسالة والنبوة انقطعت من هذه الأمة المحمدية بحكم التشريع ، فإن ما بقى منها هو الميراث الذى لم ينقطع ، فمنهم من يرث رسالة ومنهم من يرث نبوة ومنهم من يرث الاثنتين معا ، لهذا جاءت التسميات لبعض الأقطاب الوارثين ، بالقطب والإمامين اللذين على يمين ويسار هذا القطب ..

تصنيفات الأقطاب :

والأقطاب وتصنيفاتهم كثيرة ، وهم فى كل زمان ، قال ﷺ : « لن تقوم الساعة وهناك من يقول الله الله » ، فمن هؤلاء الر جال الأو تاد ومنهم الأ بدال ومنهم النقباء ومنهم النجباء ومنهم الرجبيون ومنهم الحواريون ومنهم الختم وهو واحد وغيرهم ، وهؤلاء الأقطاب منهم من هو على قلب محمد ﷺ والأدب أن نقول على قدم محمد ﷺ ومن هو على قلب آدم ومنهم من هو على قلب إبراهيم وهكذا فهم موزعون على قلوب جميع الرسل والأنبياء كل حسب مرتبته وميراثه، وإن البعض يفضل لفظة على قدم بدلا من على قلب ..

أقطاب الأمة المحمدية :

وأقطاب الأمة المحمدية إثنا عشر قطبا عليهم مدار هذه الأمة بمقياس اثنى عشر برجا ، قد وكلهم الله بظهور ما يكون فى الدارين من الكون ، أما المفردون فكثيرون ومنهم من هو على قلب محمد ﷺ والختم منهم أى خاتم الأولياء خاصة ..

والأقطاب الإثنا عشر على قلوب الأنبياء عليهم السلام والواحد منهم على قلب وإن شئت القول على قدم كما أسلفنا وهذا أولى فى الأدب ، فالقطب الأول على قدم نوح والثانى على قدم إبراهيم، والثالث على قدم موسى،

والرابع على قدم عيسى، والخامس على قدم داوود والسادس على قدم سليمان والسابع على قدم أيوب والثامن على قدم إلياس والتاسع على قدم لوط والعاشر على قدم هود والحادى عشر على قدم صالح والثانى عشر على قدم شعيب ..

ويقول الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى فى فتوحاته أن من هؤلاء الأقطاب من عمره فى ولايته ثلاث وثلاثين سنة وأربعة أشهر ومنهم من كانت مدته ثلاثين سنة وثلاثة أشهر ومنهم من كانت مدته ثمانية وعشرين سنة وثلاثة أشهر وعشرة أيام ومنهم من دامت مدته خمس وعشرين سنة ، ومنهم من دامت مدته ست وعشرين سنة ومنهم من دامت مدته خمس سنوات، ومنهم من دامت مدته سنتين وهكذا، دون ترتيب ، فضلا عن أقطاب المدن والقرى والمناطق والجهات والأقاليم وشيوخ الجماعات وغيرهم ..

هذه التصنيفات للأقطاب كثيرة يطول الحديث عنها ، غير أنى سوف أكتفى بالحديث هنا عن ثلاثة فقط، يمثلون قمة الهرم المبارك المتمثل فى القطب والإمامين أى الإمام الأقصى والإمام الأدنى الذين لا يخلو منهم أى زمان ..

إن من تحقق بهذا المنزل من الأنبياء صلوات الله عليهم هم محمد وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق عليهم السلام ، ومن الأولياء اثنان هما الحسن والحسين سبطا الرسول ﷺ ، وإن كان لمن عدا هؤلاء المذكورين منه شرب معلوم على قدر مرتبته من الإمامة ..

القطب هو دائما عبد الله :

والأقطاب والصالحون يدعون بأسماء عبودية على غير الأسماء المعلومة عنهم ، انطلاقا من الاسم الذى يتولاه قال تعالى : ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: 19] ، فسماه عبد الله إلى كون اسمه محمدا حسبما أسمياه أبواه فضلا عن اسمه عبد الجامع ..

فللقطب الأوحد دائما ثلاثة أسماء مثلما كان للرسول ﷺ الذى كان اسمه عبد الله وعبد الجامع إلى جانب اسمه المعلوم محمد ، مثلما كان لموسى اسم عبد الشكور ، وداوود اسم عبد الملك ، فما من قطب إلا وله اسم زائد غير اسمه العام عبد الله واسمه المعلوم بين الناس ، سواء كان القطب فى زمان النبوة السابقة أو وليا فى زمن أمة محمد ﷺ ..

كما أن للإمامين على يمين ويسار القطب اسما ينادى به كل إمام وقته وهما بمثابة الوزيرين للقطب ، فالإمام الأيسر عبد الملك إلى جانب اسمه المعلوم بين الناس ، والإمام الأيمن عبد ربه إلى جانب اسمه المعلوم ، فكان أبو بكر عبد الملك وكان عمر عبد الرب فى زمان الرسول ﷺ إلى أن مات الرسول ﷺ فسمى أبو بكر عبد الله ، و سمى عمر عبد الملك ،و سمى الإمام الذى ورث عمر عبد ربه ، ولا يزال الأمر على هذا النحو حتى تقوم الساعة ..

كيفية تنصيب القطب:

وقد جرت السـنة الإلهية (□) فى القطب إذا تم توليته هذا المقام أن يجلس فى واحد من مجالس القربة والتمكين وينصب له فيه تخت عظيم ، يقال أنه لو نظر الخلق إلى بهائه لطاشـت عقولهم فيقعد عليه ويقف بين يديه الإمامان اللذان جعلهما الله له ، ويمد يده للمبايعة الإلهية والاستخلاف وتؤمر الأرواح الملكية والجن والبشر الروحانى بمبايعته ..

صفات القطب :

والقطب هو مرآة الحق ومصـدر تجلى النعوت والمظاهر الإلهية ، وصـاحب الوقت وعين الزمان وسـر القدر ، لا تعتريه شـبهة ، كثير النكاح يوفى الطبيعة حقها على النحو المشـروع له ، ويوفى الروحانية حقها على الحد الإلهى ، هو لله لا لغيره ، حاله العبودية والافتقار ، يقبح القبيح ، ويحسن الحسن ، يحب الجمال المقيد فى الزينة والأشخاص ، يذوب عشقا ، يغار لله ويغضب لله ، لا يرى من الأشياء إلا وجه الله فيها ، يضع الأسباب ويقيمها ويدل عليها ويجرى بحكمها ، لا يكون فيه ربانية بوجه من الوجوه

(□)الفتوحات : المجلد الثانى .

إن كان صاحب دنيا وثروة تصرف فيها تصرف عبد فى مال سيد كريم ، لا يجلس لأحد عن حاجة أو ضرورة غير الله ، ثم ينتظر الإجابه فيما سأله ، فإن شاء أعطاه ما سأل إن عاجلا أو آجلا ، فمرتبته الإلحاح فى السؤال ..

كما أن من صفات القطب ، أنه لا تطوى له الأرض ، ولا يمشى فى الهواء ولا على الماء ، ولا يأكل من غير سبب ، ولا يطرأ عليه أشياء من خرق العادات ، ويصبر عن النكاح ، ولا يرغب فيه للنسل بل لمجرد الشهوة ، فإن نكاح صاحب هذا المقام كنكاح أهل الجنة لمجرد الشهوة ، إذ هو التجلى الأعظم الذى خفى عن الثقلين إلا من اختصه الله به من عباده ، وقد غاب عن الناس هذا الشرف وجعلوه شهوة حيوانية نزهوا نفوسهم عنها مع كونهم سموها بأشرف الأسماء وهو قولهم حيوانية أى هى من خصائص الحيوان ، وأى شرف أعظم من الحياة ، فما اعتقدوه قبحا فى حقهم هو عين المدح عند العارف المكمل ..

الرجل الكامل :

والقطب هو الرجل الكامل ومن أحوال القطب تقرير الأدوات والجرى عليها ولا يظهر عليه خرق عادة دائما كما يظهر على صاحب الحال ، ولا يكون خرق العادة مقصودا له بل تظهر منه لا تظهر عنه ..

الإمام الأدنى :

وهو عبد الملك ، ولهذا الإمام من جهة روحانيته تسعين جناحا أى جناح نشر منها طار بها حيث شاء ، ولهذا الإمام الشدة والقهر وله التصرف بجميع الأسماء الإلهية التى تتعلق بالكون مثل الخالق والرازق والملك والبارىء وغير ذلك ، وليس له تصرف بأسماء التنزيه بخلاف الإمام الثانى ، ويتم اللجوء إليه فى الشدائد والنوازل الكبار فيفرجها الله على يده فإن الله قد جعل له عليها سلطانا وله الكرم ، وله الإنعام على الخلق من حيث لا يشعرون ، وولاة أمور الخلق راجعون إلى هذا الإمام فيولى ويعزل ويدفع الله به الشرور وله سلطان قوى على الأرواح النارية من الشياطين المبعودين من رحمة الله ، ويجتمع مع الإمام الآخر فى واحدة من خمس درجات وينفرد عنه بأربع درجات ..

***

الإمام الأقصى :

وهو عبد ربه ، وحاله البكاء شفقة على العالم لما يراهم عليه من المخالفات وينظر إلى الأسماء الإلهية التى تقتضى العقاب والأخذ ، ولا يتجلى له الأسماء الإلهية ما تقتضيه المخالفات من العفو والتجاوز ولهذا يكثر بكائه ..

فلا يزال داعيا لعباد الله رحيما بهم سائلا الله سبحانه وتعالى أن يسلك بهم طريق الموافقات فهو شديد الخوف على عباد الله ، ولهذا الإمام قوة سلطان على الشياطين الملازمين أهل الخير والصلاح ليصرفوهم عن طريقهم ، فإذا وقع الشيطان على هذا الإمام وهو عند بعض الصالحين يحتال كي يصرفه يذوب كما يذوب الرصاص فى النار فيناديه الإمام باسمه عسى أن يسلم فيدبر هاربا ..

ولهذا الإمام اطلاع على الجنان ليرى سرورها ونعيم أهلها ، وقد خصه بذلك ليقابل ما هو عليه من البكاء والحزن ، فيكون ذلك سببا لاعتداله ، ومقام هذا الإمام هو الإحسان الأول « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » ، وبيد هذا الإمام مصالح العالم وما ينتفعون به وهو يربى الأفراد ويغذيهم بالمعارف الإلهية ..

ولروحه من الأجنحة 204 أجنحة ، أى جناح نشر منها طار إلى حيث يشاء ، ويدعى فى بعض الأحيان بالبر الرحيم ..



فلسفة التذوق الصوفي
بين
علماء الرسوم وعلماء الحقيقة



الباب الثاني

أذواق أهل الحقيقة

الفصل الأول لا يخشى الله إلا الله

أمهات الأسماء الإلهية :

أمهات الأ سماء الإلهية فى القرآن هى الله ، الرحمن ، الرب ، والرب هو ا سم كثير الظهور فى القرآن أكثر من باقى الأسـماء الأخرى ، ولعلك تفرق بين الله وبين الرحمن لما تعرض إليك فى القرآن قوله تعالى : ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ [المائدة :72] ، وعند القول بذلك على هؤلاء الناس لم يقولوا وما الله ..

غير أنه لما ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾ [الفرقان: 60] ، ولهذا كان النعت (الله) أولى من البدل (الرحمن) عند قوم وقوم آخرين البدل أولى لقوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ [الإسـراء: 110] فجعلها للذات(□) ..

ولم يفرق بين الا سم الله والا سم الرحمن بل جعل الا سمين من الأ سماء المترادفة ، وإن كان فى الرحمن رائحة الاشتقاق ولكن المدلول واحد من حيث العين المسماه بهذين الاسمين ، والمسمى هو المقصود من هذه الآية

(□)الفتوحات – مرجع سابق – ص 157 .

ولذلك قال ﴿ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[الإسراء: 110] ، ومن أسمائه الحسنى : الله والرحمن إلى كل اسم سمى به نفسه مما نعلم ومما لا نعلم ومما لا يصح أن نعلم ، لأنه استأثر بأسماء فى علم غيبه ..

ولم ينكر العرب كلمة الله ، فإنهم القائلون ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: 3] فعلموه ، ولما كان الرحمن يعطى الاشتقاق من الرحمة وهى صفة موجودة في البشر خافوا أن يكون المعبود الذى يدلهم عليه ، من جنسهم فأنكروا و قالوا ﴿ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ [الفرقان: 60] لما لم يكن من شرط كل كلام أن يفهم معناه ولهذا قال ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ [الإسراء: 110] لما كان اللفظان راجعين إلى ذات واحدة ..

والحقيقة أن اسم (الله) الذى هو الاسم الجامع الشامل له الحفظ ، فهو نعت إلهى لا ينعت به غيره من خلقه على غير الأسماء الإلهية الأخرى فضلا عن أن تركيبه يختلف عن باقى الأسماء الإلهية الأخرى ..

فهو كله أو بعضه يشير إلى الله سبحانه وتعالى ، فإذا نقصت منه حرفا يشير ما تبقى منه إلى الله أيضا على غير الأسماء الأخرى ، فهو مكون من أربعة حروف ، إذا حزفت الأول منه أصبح (لله)

فهو يشير أيضا إلى الله ، وإذا حزفت الأول والثانى أصبح (له) فهو يشير إلى الله ، وإذا حزفت الأول والثانى والثالث منه ، أصبح (هو) وهو يشير إلى الله أيضا .. أما باقى الأسماء الإلهية الأخرى إذا حزف منها حرفا واحدا ، فإنها تشير بعد الحزف إلى غير الله ، مثل الرحمن (الرحمن) ، وهكذا فلاسم الله الحفظ حتى يوم الساعة به يحفظ الله الأرض وما عليها ، قال رسول الله ﷺ « **لا تقوم الساعة وهناك من يقول الله الله** » ..

ولأن الاسم الله هو الاسم الشامل الجامع فهو يتضمن جميع أسماء الله بما فيها الاسم الرحمن ، كما أن الاسم الرحمن يتضمن جميع الأسماء الحسنى ما عدا الاسم الله لأنه أشمل وأجمع منه ..

فإذا دعوت الله مستخدما الاسم الله فى أمر من الأمور يرد عليك الاسم المنوط به الأمر الذى طلبته ، فإذا قلت: يا الله إعطنى كذا يرد عليك الاسم العاطى إننى أنا العاطى ، وإذا دعوت بالاسم الله أن يهب لك شيئا يرد عليك الاسم الوهاب وهكذا ، فإن اسم الله هو الاسم الجامع لكل الأسماء الإلهية دون استثناء ..

فتعلم أن الاسم الجامع لحقائق الأسماء والموجودات ورئيسها وسلطانها والمهيمن عليها إنما هو الا سم الله ، ويليه فى المرتبة الا سم الرب ، ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ ، فهو مـصلحك ومربيك ومالكك و سيدك .. وما أقسم على نفسه من كونه الرب إلا فى خمسة موا ضع : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:65]، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر] ، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مر يم:68] ، ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات] ، ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [المعرج] ..

وأ سماء الله كثيرة ومتعددة ، منها أ سماء الذات مثل الله وهو ، وأ سماء الصفات مثل الحى القادر السميع البصير المريد وأسماء الأفعال ، مثل الخالق الموجد البارئ والمصور والرزاق والمحيى وأ سماء النعوت كالأول والآخر وأ سماء الضمائر وغيرها من الأ سماء فالأقوال أقوال الله والأفعال أفعال الله ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ..

فاعلم أن أسماء الله منها معارف كالأسماء المعروفة وهى الظواهر ، ومنها مضمرات مثل كاف الخطاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ وتائه تاء المتكلم ويائه وضـمير الغائب وضمير التثنية من ذلك وضمير الجمع مثل ﴿نَحْنُ نَزَّلْنَا﴾ [الإنسان: 23]

ونون الضمير فى الجمع مثل ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ [الإنسان: 23] وكلمة أنا وأنت وهو ومنها أسماء تدل على الأفعال ولم يبن منها أسماء مثل ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: 79] ..

وكل فعل منسـوب إلى كون من الممكنات إنما ذلك المسـمى نائب فيه عن الله لأن الأفعال كلها لله سـواء تعلق بذلك الفعل ذم أو حمد فكل ما ينسـب إلى المخلوق من الأفعال فهو فيه نائب عن الله ، فإن وقع محمودا نسب إلى الله لأجل المدح لأن الله يحب أن يمدح وإن تعلق به ذم لم ننسبه إلى الله أو كقول الخليل ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: 80] وقال فى المرض ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ ولم يقل: أمرضـنى ، وقوله على لسـان الخضـر ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ ، ونون الجمع فى ﴿فَأَرَدْنَآ﴾ لأن فيه شـرًا وخيرًا أى قتل الغلام واسـتبداله بخير منه لأبويه المؤمنين وهذا من شـيم أهل الله أهل الأدب والورع وقد أوردت هذا بالتفصيل فى فصل من فصول الكتاب اللاحقة ..

وعنده سـبحانه وتعالى أسـماء ما عرفنا بها ، ألا ترى أن رسـول الله ﷺ كيف قال فى دعائه « اللهم إنى أسـألك بكل اسـم سـميت به نفسـك أو علمته أحدا من خلقك أو استاثرت به فى علم الغيب عندك » ..

الأسماء الإلهية تخشى الله :

على قدر علم الإنسان بالله ، تكون الخشية منه ، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾، فكلما ذاد علمك كلما زادت خشيتك من الله سبحانه وتعالى فالأمر يتوقف على مستويات علمك بالله ومعرفتك به و قدر ذوقك فى هذا ،فذوق المؤمن غير ذوق الولى غير ذوق النبى غير ذوق الرسل ..

فالخشـية من صـفات العلم الذى يعطى الخشـية اللازمة له ، وعلى قدر العلم تكون الخشية المنسوبه للعالم ، ولهذا كان الر سول ﷺ سيد الخا شعين و سيد الخائفين مثلما هو سـيد النبيين والمرسـلين ، لأنه كان أعلم الخلق بالله وأعرفهم به ، عندما قال ﷺ « **أعلمك بالله أنا** » ، ولأنه قمة الأدب النبوى والمعرفة لم يقل أنا أعلمك بالله بل قال أعلمك بالله أنا ، فقدم الله فى التعبير عن نفسه بما يليق بالله ..

وبالتالى كان ﷺ أخشانا إلى الله لأن العلم والمعرفة ترتبط بالخشية والخوف من الله ، ولا تعرف الله إلا إذا عرفت نف سك ، فمن عرف نف سه عرف ربه ، لأن معرفتك بنف سك من حيث ضعفها وذلتها عرفت ربك من حيث عزته وعظمته ، وإن كان مع ذلك أيضا لا يعرف قدر الله إلا الله ، فإن الأسماء الإلهية نفسها تخشى الله ..

فلما كان الأمر الذى هو العلة من ظهور الممكنات أينما ظهر منها هو ظهور أحكام الأ سماء الإلهية ، فإن ما من ا سم إلهى إلا وهو يخ شى الله لعلمه بما عنده من الأ سماء التى تقابل هذا الاسم السارى حكمه على العبد وقت سريانه ..

فيقول الاســم الإلهى أن الله كما ولانى ولم أكن واليا على هذا المحل الذى ظهر فيه حكمى ، فإنه قد يعزلنى بوالٍ آخر يعنى بحكم اســم إلهى آخر ، فالأعلم من الأســماء الإلهية هو الأخشى منها لله ، فإن الله له التصرف فيها بالتولى والعزل ..

هذا العزل لحكم الاســم الإلهى وتولى حكم اسـم إلهى آخر ، قد يحدث بسـؤال من الكون ، وقد يحدث بغير سؤال ، بل قد يقع بانتهاء مدة الحكم فيكون نسخا ، ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فكما انطلق على العلماء من المحدثات اسـم الخشية لله ، انطلق على الأسماء الإلهية الخشية لله ..

و صارت الأ سماء الإلهية التى لها الحكم فى الوقت تخشى سؤال المخلوقات لله أن يرفع حكمها عن ذلك المحل كقول أيوب ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: 83] ، يطلب عزل الاسم الضار وإزالة حكمه ،

فعزل الله حكم الاســم الضــار فإنعزل بزوال حكمه وتولى موضــعه الاســم النافع ، فكشف الله ما به من ضر فصارت الأسماء الإلهية تخشى الله لما بيده من العزل والتولية ، بل تخشــى المؤمن العالم لما عنده من الســؤال لله ، وعند الله من القبول لســؤال العالم ولاسيما أهل الاضطرار أهل الله من الأولياء الذى يستجيب الله لسؤالهم على نحو أسرع ..

ثم إن هذه الأســماء الإلهية تنظر إلى إنتهاء مدة أحكامها فتترقب العزل كما أيضــا ترجوه لمشاهدتهم التولية ، فلا شىء من الأسماء أكثر خشية من الاسم الإلهى المنتقم فإنه يرى ويشاهد زوال حكمه فعلا ولا يبقى له حكم فى الوجود ويكون بالقوة فى الحق، ومن جرى مجراه من الأسماء الإلهية ، ففطن العالم من أهل الله لخشية الأسماء الإلهية من الله ، فإنه لولا ما هو حق بوجه ما صح أن تخشاه الأسماء الإلهية لأنه لا يخشى ولا يرجى فى الحقيقة إلا الله ولا يخشــاه إلا العالم بكســر اللام ولا أعلم من الله ، فلا يخشى الله إلا الله ..

المسميات لا الأسماء :

إن الأســـماء الإلهية اجتمعت بحضـــرة المســـمى ونظرت فى حقائقها ومعانيها فطلبت ظهور أحكامها حتى تتميز أعيانها بآثارها ، فإن الخالق الذى هو المدبر والمفصـــل والبارئ والمصور والرزاق والمحيى والمميت والوارث والشكور وجميع الأ سماء الإلهية نظروا فى ذواتهم ولم يروا مخلوقا ولا مدبرا و لا مفصـــلا ولا مصـــورا ولا مرزوقا فقالوا: كيف العمل حتى تظهر الأعيان التى تظهر أحكامنا فيها فيظهر سلطاننا ، فخلق الله الخلق ..

ولأن خلق آدم كان باليدين ، فاجتمعت فيه حقائق العالم بأسره والعالم يطلب الأسماء الإلهية فقد اجتمع فيه الأ سماء الإلهية ، ولهذا خص الله آدم عليه السلام بعلم الأ سماء كلها التى لها توجه إلى العالم ، ولم تعط الملائكة هذا العلم مع إنهم العالم الأشـــرف ، قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة:31] ، ولم يقل بعضـــها ، ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ ، قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾، فقد عرفه بالمســـميات وليســـت الأســـماء وحدها ، فقد قال: ﴿عَرَضَهُمْ﴾ ولو كانت أســـماء لقال عرضها ، ثم قال أنبئونى بأسماء هؤلاء ، ولم يقل بالأسماء فقط ، فقد عرف آدم الأسماء فالشاهد أن الحق عرض المسميات والمسمين لا الأسماء ..

ولأن الرســول ﷺ قد نال الكمال فى كل فضــيلة وخلق ، فقد عرف «علم الأولين وعلم الآخرين » ، مثلما أعطى جوامع الكلم ، فكان سيد الأولين و سيد الآخرين و سيد المر سلين و سيد النبيين و سيد العالمين و سيد الشاهدين ، فهو حامل لواء الحمد دون غيره :« آدم ومن دونه تحت لوائى » ..

لا يحزنهم الفزع الأكبر:

يوم القيامة يأتى جميع الخلق وقد أحزنهم الفزع الأكبر بما فيهم الر سل والأنبياء ، غير أن خوف الر سل والأنبياء ليس على أنفسهم ولكن خوفهم على أممهم والتابعين لهم من هول هذا اليوم ..

غير أن هناك طائفة من المؤمنين يكون وضعهم مختلفا فى هذا الموطن على غير سائر المؤمنين ، « ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: 103]،

أى تتلقاهم بالترحاب دون فزع أو خوف لأنهم حظوا بالأمان من الله من هول هذا اليوم ،إنهم الأولياء ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾..

وصية نبوية :

فى وصيته إلى أبى هريرة قال رسول الله ﷺ : « **عليك يا أبا هريرة بطريق أقوام إذا فزع الناس لم يفزعوا ، وإذا طلب الناس الأمان من النار لم يخافوا ، قال :أبو هريرة من هم يارسول الله حتى أعرفهم ؟؟ ، قال : قوم من أمتى فى آخر الزمان يحشرون يوم القيامة محشر الأنبياء إذا نظر إليهم الناس ظنوهم أنبياء مما يرون من حالهم حتى أعرفهم أنا فأقول أمتى أمتى فتعرف الخلائق أنهم ليسوا أنبياء فيمرون مثل البرق والريح ، تغشى أبصار الجميع من أنوارهم** »..

فقلت : يا رسول الله مر لى بمثل عملهم لعلى ألحق بهم ، فقال :« **يا أبا هريرة ركب القوم طريقا صعبا لحقوا بدرجة الأنبياء ، آثروا الجوع بعدما أشبعهم الله ، والعرى بعدما كساهم الله ،**

والعطش بعد ما أرواهم الله ، تركوا ذلك رجاء ما عند الله ، تركوا الحلال مخافة حسابه ، صحبوا الدنيا بأبدانهم ولم يشتغلوا بشيء منها ، عجبت الملائكة والأنبياء من طاعتهم لربهم ، طوبى لهم طوبى لهم ، وددت أن الله جمع بيني وبينهم ثم بكى الرسول ﷺ شوقا إليهم ثم قال : إذا أراد الله بأهل الأرض عذابا فنظر إليهم صرف العذاب عنهم، فعليك يا أبا هريرة بطريقتهم فمن خالف طريقتهم تعب من شدة الحساب» ..



فسئل به خبيرا

﴿ٱلرَّحۡمَـٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ [الفرقان: 59] ، أى إذا أردت أن تسأل عن حقيقة أمر فاسأل عنه من له ذوق ومن لا ذوق له فى الأشياء فلا تسال ، فإنه لا يخبرك إلا باسم من سألت عنه لا بحقيقته ، فلا يسأل العبد عن الله ، فإنه لا ذوق له فى الإلوهة و لا خبرة له بها ، فما عنده منها إلا الأسماء خاصة ، فاسأل الله عن الله واسأل العبد عن العبودة فنسبة العبودة إلى العبد نسبة الألوهية إلى الله ..

ذوق الإلوهية وذوق العبودة :

فإخبار الحق عن العبودة إخبار إله ، وإخبار العبد عن الإلوهية إخبار عبد ، ولذلك ورد « من عرف نفسه عرف ربه » ، فيعرف نفسه معرفة ذوق ، فلا يجد فى نفسه للإلوهية مدخلا فيعلم بالضرورة أن الله لو أشبهه أو كان مثلا له لمعرفة فى نفسه وعلم بافتقاره أن ثمة من يفتقر إليه و يمكن أن يشبهه فعرف ربه أنه ليس مثله ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ ، حتى وإن كان الله قد أقامه خليفة وأوجده على الصورة فيخاف ويرجى ويطيع ..

والخبير هنا أى العارف بالله من عباد الله من نبى ومن غيره ممن شاء الله له من عباده أن يكون له حظ من التجلى الإلهى ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: 269] ..

أى اســأل من لديه ذوق فبغير وجود الذوق فيمن تســأله ، فلن يجيبك على النحو الصحيح الذى تسأل فيه لأنه ليس بخبير فيما تسال ، لأن الذى تسأل سيجيبك على قدر ما لديه من ذوق ..

فإذا أردت أن تسأل عن أصول الطهى للطعام فلتسأل طباخًا ماهرًا فإنه سيفيدك فى سؤالك ، ولا تسأل فى ذلك حلوانيًا أو نجارًا أو صاحب صنعة أخرى ، فإن سألت من ليس خبيرًا بالأمر سيرد عليك على قدر علمه فيما تسأل ..

الذوق بداية التجلى :

والذوق عند أهل الله هو بداية التجلى ، وهو حال يفجأ العبد فى قلبه ، وتختلف الأذواق فيما بين العباد من أهل الله حســب الشــرب والشــراب الذى تجلت به المعرفة الربانية لدى الشارب ، أى تختلف الأذواق بإخلاف المشارب وألوانها ، بل ومصادرها، وهذا لا يكون إلا إذا كان التجلى الإلهى فى الصور أو فى الأسماء الإلهية أو الكونية وليس غير ذلك ..

فالذوق يختلف باختلاف التجلى ، فإن كان التجلى فى الصور فالذوق خيالى ، وإذا كان التجلى فى الأسماء الإلهية والكونية فالذوق عقلى ،

والذوق الخيالى أثره فى النفس والذوق العقلى أثره فى القلب ، فيعطى حكم أثر ذوق النفس المجالات البدنية كالجوع والعطش وقيام الليل ، وذكر اللسان والتلاوة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله ..

المراتب بالأذواق :

وأصل هذا التجلى واختلاف مراتبه هو إتيان أبى بكر كل أمواله إلى الرسول ﷺ حين قال له هو وعمر « **إئتنى بما عندك** ؟؟ فأتاه أبو بكر بكل ماله ، فقال الرسول ﷺ : «**ما تركت لأهلك** »قال : الله ورسوله ، وعندما سأل عمر بن الخطاب «**ما تركت لأهلك**» قال : شطر مالى ، قال الرسول ﷺ «**بينكما ما بين كلمتيكما** »، فقال عمر: يومها عرفت أنى لن أسبق أبا بكر أبدا ..

و هذا تمييز فى المرا تب بين أبى بكر وعمر ، وصورة للتمييز بين مرا تب القوم ، فالإنسان ينبغى أن يكون عالى الهمة يرغب فى أعلى المراتب عند الله ، فهذه مراتب الأذواق وبالتالى مرتبة التجلى التى تختلف باختلاف الأذواق بين القوم من عباد الله ..

فإذا كان التجلى يختلف باختلاف الذوق وما لدى العبد من معرفة بالله ، فإن التجلى يختلف باختلاف الشــرب ونوع المشــروب الذى هو نفس نوع الإناء الموضــوع به المشروب للشارب (□).

الأذواق والمشارب :

وتختلف التجليات الإلهية بإختلاف المشارب ، فمن القوم من يكون مشروبه الماء غير الآســن ﴿ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴾ [محمد: 15] وهم الذين يعطيهم الله المعانى مجردة من الخطاب وهو العلم الإلهى الذى لا تعلق له بالطبيعة ..

وهناك من يكون مشــروبه ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ ﴾ [محمد: 15] ، وهو من يعطيه الله العلم بأسرار الشرع والفقه وأحكامه وفعل حكمه وعرف ميزان الأحكام بعلم الأوقات والأحوال فى ذلك عن علم تجليه فى صورة اللبن الحليب ..

وهناك من يكون مشــروبه الخمر ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [محمد :15] ، وهو من يعطيه الله العلم بالكمال والأحوال والجمال فإنه عن تجلى العلم فى صــورة الخمر ، وإن كان الخمر ليس بما أحل لأمة محمد ﷺ فى الدنيا ..

(□)الطبقات الكبرى للشعرانى : الإمام عبد الوهاب الشعرانى ، طبعة مكتبة محمد على صبيح ، مصر.

وهناك من يكون مشــروبه ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾[محمد:15] ، وهو من يعطيه الله العلم بالوحى والإلهام وصفاء الإيمان وعم علمه كل شىء بما يصح أن يعلم حتى يعلم أنه ما يصح أن يعلم ما يعلم ، فذلك عن علم التجلى فى صورة العسل ..

فمن كان شربه أى من هذه المشروبات أو كلها ، كان محصلا لما شرب النبى ﷺ الذى قال : علمت علم الأولين وعلم الآخرين ، ولم يذكر أنه اختص به وحده ، فلما لم يذكر الاختصاص ترك الباب غير مغلق لمن أراد الدخول منه إلى نيل هذا المقام ..

هؤلاء هم الذين يطلق عليهم الخبراء بالمعرفة الربانية ، والمؤهلين للرد على ما يعن على العامة وعلماء الرسوم وأهل النظر وأهل الظاهر وأهل الفقة فيما يعن لهم من أسئلة حول ما تدور عليه الأسماء الإلهية لا سيما الرحمن الذى هو جماع جميع أسماء الله الحسنى باستثناء الاسم الله الذى هو جامع الأسماء الإلهية كلها بمن فيهم الاسم الرحمن ..

فإذا أدركت هذا العارف فهو الذى ذا ذوق للرد عليك لأنه الخبير بالله ، ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة:7] ، أنعم الله عليهم بالحكمة والمعرفة الإلهية التى به يرشـد العامة وغير العامة من العلماء من غير أهل الله ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ ،

وغير هؤلاء العارفين لا تسأل لأنه قد يضلك عن الصراط المستقيم الذى أنعم الله بها على عباده من أهل الله الذين أوتوا الحكمة والمعرفة ..

وقد يظن البعض من المريدين للشيخ المربى المنفوح الموصول بالدوحة المحمدية ، أنه هو الذى أتى بهم إليه ، والحقيقة غير ذلك ، فقد عرف المريد طريق الشـيخ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى أ شار ودل على الـ شيخ المربى أو الولى المربى أو الإمام المربى فقـصده المريد الراغب فى أن يـسلك طريق الله ، فالحق هو الذى يدلك على الولى المربى إذا كان شيخك ثم يتولى الـ شيخ بعد ذلك أن يعلمك الطريق إلى الحق على نحو صحيح فتعبده بصــورة صــحيحة وتذكره على النحو اللائق بجلاله ، فهى دائرة متصــلة بدايتها الحق وآخرها أرحم الراحمين ..

فتحرى الدقة فيمن تسأل يا أخى عن الطريق إلى الله فلا تسأل سوى العارف بالله الذى من عليه الله بالفيض المعرفى والذوق المعرفى وعلم أهل الله الذين لم يأخذوا علمهم عن ميت من ميت ، بل نهلوا علومهم من الحى الذى لا يموت ..



كلام الله وكلماته

﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي ﴾

كلام الله :

ورد « كلام الله » فى ثلاثة مواضع من كتاب الله ، فى البقرة ﴿ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: 75] ، وفى سورة التوبة ﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ﴾ [التوبة: 6] ، وفى سورة الفتح ﴿ سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الفتح: 15] ..

هذه الآيات جميعا تثبت أن لله تبارك وتعالى كلاما ، ولكنه كلاما يليق بذاته عز وجل ولا يشبه كلام المخلوقين .. ولقد ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ ، فالكلام صفة كمال فى حق الله عز وجل ويتكلم رب العزة يوم القيامة وبما شـــاء ، يقول: عبدى فعلت كذا وكذا ، فلا نؤولها ولا نعطلها ، ولا نشبهها بشىء من صفات المخلوقين ..

كلام الخالق وكتابة الخالق :

وكلام الخالق ليس ككلام المخلوقين وكذا كتابته ليست ككتابة المخلوقين حتى وإن قرئت بالعربية ، ولهذا توحد كلام الله (القرآن) واختلفت التفا سير لكلامه لأنه حمال لوجوه عديدة رغم كونه بلسان عربى ، لأنه وإن كان بحروف اللسان العربى إلا أن معانيه لا تحدها ولا تحيط بها اللغة العربية لدى المخلوقين ، ولهذا عجز أساطين النحو والصرف وعلماء اللغة فى الوصول إلى معانيه وتأويله فليس شرطا أنه عربى يفهم بالعربى ، ولكن الشرط أن يفهمه من أوتى مفاتيحه من أهل الله أهل القرآن ، فالمتحدث بالغة العربية مثلا – ولله المثل الأعلى – لا يعرف معنى كلمات التركية أو الفارسية أو الأردية التى تكتب جميعها بحروف أشبه بحروف العربية ، وحظ المتحدث بالعربية أن يفهم فقط من كلام الله وجه ظاهر المعنى اللفظى دون أن يصل إلى أوجه معانيه ومراميه ..

وكلامه ككتابته ، لأن علم كتابة الخالق إنطوى على الإعجاز فى الشكل والمضمون لا يحدها مكان أو زمان فأولها آخرها وآخرها أولها وظاهرها باطنها وباطنها ظاهرها سطرت بمدد القدرة .. خرج النبى ﷺ يوما على أصحابه وفى يده كتابان مطويان قابض بكل يد على كتاب فسأل أصحابه : أتدرون ما هذان الكتابان ؟؟

فأخبرهم أن الكتاب الذى بيده اليمنى أسـماء أهل الجنة وأسـماء آبائهم وقبائلهم وعشـائرهم من أول من خلقه الله إلى يوم القيامة ، وفى اليد الأخرى فى الكتاب الآخر أ سماء أهل النار وآبائهم وقبائلهم وعشائرهم إلى يوم القيامة ، ولو أخذ المخلوق يكتب هذه الأسماء على ما هى عليه من الكتابين لما قام بذلك كل ورق العالم (□)..

ومثال آخر ، حكى عن بعض البله من الحجيج أن رجلا كان يطوف فى جماعته طواف الوداع بالبيت الحرام ، فمازحه أحد عشيرته ، إن كان قد تسلم من الله براءته من النار ؟؟ فقال الأبله : وهل أخذ الناس ذلك ؟؟ قال له : نعم ، فبكى الأبله ودخل الحجر ، وتعلق بأسـتار الكعبة وظل يبكى ويطلب من الله أن يعطيه كتابه بعتقه من النار ، فجعل الناس يلومون من مازحه ، ويعرفونه أن فلانا كان يمزح معه ، وهو لا يصدقهم مستمرا فى البكاء ، وبينما هو كذلك إذ سـقطت عليه ورقة من الجو من جهة الميزاب مكتوب فيها عتقه من النار ، فسـر بها وأوقف الناس عليها ، وكان من آية ذلك الكتاب أنه يقرأ من كل نحية على السـواء لا يتغير كلما قلبت الورقة انقلبت الكتابة لانقلابها ، فعلم الناس أنه من عند الله ..

(□)فلسفة التصوف الإسلامى : كتاب المؤلف .

كلمات الله :

أما كلمات الله فجاءت فى ســورة لقمان ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان: 27] ، وفى ســورة الأنعام ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: 34] ، وفى سورة يونس ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [يونس: 64] ، وفى سورة الكهف ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: 109] ..

فكلام الله فى سورتى البقرة والتوبة .. هو القرآن عموما ، أما كلمات الله فليست كما يظن بعض علماء اللغة أنها تســتخدم للقلة بل على العكس ، ثم أنه لو كانت كلمات الله هى القرآن المحفوظ بالحرف فإن عدد كلماته وأحرفه ثابتة لا تزيد و لا تنقص ، وهذا يدعونا للتســاؤل ما هى كلمات الله التى لا تنفد ؟؟؟؟ ، ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾..

فالآية الأخيرة إعلام واضح بعدم تناهى كلماته لاسيما وأن المراد بسبعة أبحر هو الكثرة ، وللآية سبب نزول وهو ما روى عن ابن عباس أن سبب هذه الآية أن اليهود قالت: يا محمد كيف عنينا بهذا القول ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإ سراء: 85] ونحن قد أوتينا التوراة فيها كلام الله تعالى وأحكامه وعندك أنها تبيان كل شىء ، فقال لهم رسول الله ﷺ : التوراة قليل من كثير ..

كلمات الله هى الموجودات:

فكلمات الله التى لا تنفذ هى الموجودات ، قال تعالى فى وجود عيسى عليه السلام أنه ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ [النساء:171] ، وهو عيسى عليه السلام لهذا قلنا أن الموجودات هى كلمات الله من حيث الدلالة السمعية ..

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾[لقمان: 27]، فإنه ليس كلمات الله سوى صور الممكنات وهى لا تتناهى، وما لايتناهى لا ينفد ، وتظهر كلمات الله فى الوجود على التتالى والتتابع أشخاصا بعد أشخاص ، وكلمات إثر كلمات ، والبحار والأقلام من جملة الكلمات ، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾..

القرآن الكبير:

فما بال المعلومات التى تعتبر الممكنات جزء منها ، فالوجود كله حروف وكلمات وسـور وآ يات فهو القرآن الكبير ا لذى ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت: 42] ..

وكان استواء الله على عرشه بالإسم الرحمن ، إعلاما بذلك أنه ما أراد بالإيجاد إلا رحمة بالموجودين ، ولم يذكر غيره من الأسماء ، ولما ذكر الله عن نفسه أنه الظاهر وأنه الباطن وأن له كلاما وكلمات ، ذكر أن له نفسا بفتح الفاء من ا سمه الرحمن الذى به ا ستوى على العرش ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان :59] ..

والخبير هو العارف من عباد الله من نبى وغيره ممن شـاء الله من عباده لأنه قال: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة : 269] ، فنكر الأمر ولم يعرفه فهو نكرة فى معرفة يعلمها هو لا غيره ، لأن الأمور عنده معينة مفصلة ليس فى حقه إجمال ولا يصح ولا مبهم مع علمه بالمجمل ..

ولما علمنا أن له نفسا وأنه الباطن وأن له كلاما وأن الموجودات كلماته علمنا أن الله ما أعلمنا بذلك إلا لنقف على حقائق الأمور على الصـورة ، فنقبل جميع ما تنسـبه الألوهة إليها على ألسنة رسلها وكتبها المنزلة ، وجعل النطق فى الإنسان على أتم الوجود ..

فجعل له ثمانية وعشـــرين مقطعا للنفس يظهر فى كل مقطع حرفا معينا ما هو عين الآخر ، وبالتالى – بدون إســـهاب وتفصـــيل – فإن أعيان الموجودات حروف من حيث هي آحادا وكلمات من حيث امتزاجها ..

العالم كلمات الله :

والعالم كله كلمات الله فى الوجود، قال تعالى : ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان: 27]، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: 10] ، والكلم جمع كلمة ..

ويقول تعالى لل شىء إذا أراده ﴿كُن ﴾ [النحل: 40] فيكـسو ذلك الـ شىء التكوين فيكون ، فالوجود فيه رق منشور ، والعالم فيه كتاب مسطور بل هومرقوم لأن له وجهين: وجه يطلب العلو والأسماء الإلهية ، ووجه يطلب السفل وهو الطبيعة ..

الكلام من الكلمات :

وكلمات الله من كلام الله ، غير أن الكلمات ناطقة « أجره حتى يسمع كلام الله » فأورد فيها السمع لا المشاهدة والقراءة ، ومن يتلو القرآن نائبا عن الله ، فالذى كان يتلو القرآن محمد ﷺ ، والمتكلم هو الله ..

فإن كلام الله سواء سمعناه من الله أو من الرسول هو كلام الله ، فإن الرسول لا ينطق عن الهوى ، لأن ما سمعناه من الرسول أقرب منا سبة لأ سماعنا ، كما هو من الله أقرب مناسبة لحقائقنا ، فإن الله أقرب إلينا من الرسول ، لا بل أقرب إلينا منا ، فإنه أقرب إلينا من حبل الوريد ..

القرآن كلام الله :

والمصحف الشريف قد حوى كلام الله – القرآن – التى لا تنفد كلماته ، فبيته معمور، وسقفه مرفوع ، وحرمه ممنوع ، وأمره مسموع ، وأهل الله قد جعلوا القلب كالمصحف الذى يحوى على كلام الله ، فكما أمرنا تنزيه القلب على أن يكون به دنس من دخول الأغيار فيه ، رأينا أن المصحف قد حوى كلام الله وهو صفته والصفة لا تفارق الموصوف فمن نزه الصفة نزه الموصوف ، وبالتالى فإن المصحف قد تنزه عن أن يمسه جنب ..

وقد نهينا أن نسافر بالقرآن إلى أرض العدو ، فسمى المصحف قرآنا لظهوره فيه وما نهى حملة القرآن عن السفر إلى أرض العدو ، وإن كان القرآن محفوظا فى أجوافهم مثل ما هو فى المصحف ..

وفى كلام الله وكلماته ، نقول أن الكلام والقول نعتان فبالقول يسمع المعدوم وقوله تعالى ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [النحل: 40] ، وبالكلام يسمع الموجود وهو قوله تعالى ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164] وقد يطلق الكلام على الترجمة فى لسان المترجم ، وينسب الكلام الى المترجم عنه فى ذلك ..

وقد يصدر الكلام عن ممن لا ينسب إليه الكلام ولكن عن تجلى مثل ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل : 16] ، ، ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ [النمل: 18] وإن كانت صادرة عمن لا ينسب إليه الكلام فى العرف لأن النمل لا يتكلم ، ولكن ينسب إليه القول بالإيمان مثل قوله ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: 29] ، وقوله ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: 11] ، وقوله ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ [النور: 24] ..

الكلمات أعيان الممكنات:

وأما أن يكون مما لا ينسب إليه قول ولا نطق مثل الذى ينسب إليه التسبيح ، وهذا كله عن تجلى إلهى كما أن هذا كله من طبقات الكلام ، فجمع كلمة هو كلمات وهى أعيان الكائنات ، مثل قوله « وكلمته ألقاها إلى مريم » وهو عين عيسى عليه السلام وكلمته وهو عبده فنطق عيسى ببراءة أمه فى غير الحالة المعتادة ليكون آية ، فكان نطقه كلام الله ، وكلام الله علمه وعلمه ذاته ولا يصح ان يكون كلامه ليس هو ..

وبالتالى فما بيناه هو الفرق بين كلام الله الذى هو فى المصحف الذى هو القرآن الكريم ، الذى هو علمه ، وفيمن هو من شأنه التكلم مثل الجماد والنبات وبين كلمات الله ، أعيان الموجودات فى العالم التى هى كلمات الله ..



الفصل الثاني السيئة الشرعية والسيئة الجزائية

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى:40] ، السيئة هى حسب الشرع العمل المأثوم أو الإثم الذى يخالف حكم الله وسنة نبيه ﷺ ..

وبالتالى فإن السيئة مخالفة شرعية ، ولابد للسيئة من فاعل لها وهو المسىء ، والسيئة تكون فى حق الإنسان لحساب من تمت الإساءة فى حقه من إنسان آخر أسىء فى حقه ، وبالتالى فهى فى حق الله ..

ولما كانت السيئة عملا يرتكبه المسىء فى حق غيره ، ولما كان الحق هو الحكم العدل ، فأخذ بحق عبده الذى وقعت الإساءة فى حقه بأن محى عنه سيئة أخرى مقابل السيئة التى ارتكبت فى حقه ، سميت هذه السيئة سيئة جزائية ، فهى تخليص حق فى حق من أرتكبت فى حقه السيئة الأولى السيئة الشرعية [□].

(□)الفتوحات المكية : المجلد الرابع .

كلاهما مسىء :

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾[الشورى: 40] ، ولكن كلا الفاعلين للسيئة مسىء لأنه آثم ، بمعنى أن الذى فعل السيئة الأولى ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ ﴾ مسىء ، و ﴿سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ هو مسىء أيضا ، وهذا ما فطن له أهل الله ، لأن الأول والثانى عند الله مسىء رغم اختلاف النوعين من حيث السيئة الشرعية والسيئة الجزائية ..

فالسيئة الأولى سيئة شرعية صاحبها مأثوم عند الله ، والسيئة الجزائية ليست بسيئة شرعا وإنما هى سيئة من حيث أنها تسوء المجازى بها كالقصاص فيما لك أن تعفو عنه بهذا الشرط ..

لما رأى أهل الله أنه تعالى أطلق على ذلك اسم سيئة وقال مثلها ، وأن من اتصف بذلك يقال فيه أنه مسىء ، فأنف أهل الله، أهل الكشف ،علماء الحقيقة أن يكونوا محلا للسوء ففضلوا واختاروا العفو على الجزاء لعلمهم أن الأول لم يختلف عن الثانى من حيث السيئة ..

الجرح لا يبرىء جرحا :

مثل من يجرح شخصا بجرح فى جسده ، فيقتص المجروح بأن يجرح الذى جرحه بجرح آخر قصاصا وجزاء ، إن قيامه بالقصاص على هذا النحو لن يزيل جرحه

ولن يشفيه ، بل حتى بعد قصاصه فجرحه قائم ، مثلما جرح من تم القصاص منه ، فالأول مجروح وكذلك المجازى مجروح وما برئ الأول من جرحه فما الفائدة ؟؟؟..

قاتل القصاص قاتل :

فاختار أهل العلم بالله ، أهل الكشف أهل الله ، العارفين به ، ترك الجزاء إلى العفو ، ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: 40] ، حتى لا يوصف صاحب السيئة الجزائية بأنه مسيء إذا لم يختر العفو ، وما أحسن قول رسول الله ﷺ فيمن قتل وقد حكم له بالقصاص « **أما وإن قتله كان مثله** » ، يعنى ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى: 40] فسمى قاتلا بلا شك فتركه وعفا وهذا أكمل ، وهذا من شيم العارفين بالله عن عامة الناس ..

هذا هو فهم أهل الله لدرر وجواهر حروف وتراكيب وبناء وتتابع كلمات القرآن والغوص فى معانيها وأحكامها وما ترتب على ترتيبها من مراتب مختلفة تعطى من يحب أن يستزيد من عطاء الجود والكرم لمن يريد أن يصبح من أهل الله وخاصته ، لا أن يكتفى بأن يكون من أهل النظر ، أهل الظاهر ..



عبودية الاضطرار وعبودية الاختيار

إن وضـــع الإنســـان مع الحق على حالين : حال عبودية وحال إجارة أى أجر، فمن كونه عبدا يكون مكلفا بالفرائض كالصـــلاة المفروضـــة والزكاة وجميع الفرائض ولا أجر له عليها جملة واحدة فى أداء فر ضه ، بل له أن يمتن عليه سبحانه من النعم التى هى أفـ ضل من الأجور ، لا على وجه الأجر ..

أما إذا كان الأمر يتعلق بما ندبه الله تعالى على عبادته فى أمور ليست عليه فرضا ، فإن تقرب العبد بها إلى سيده أعطاه أجارته عليها ، وإن لم يفعلها لم يطالبه بها ولا يعاتب عليها ..

الجزاء للفرائض والأجور للنوافل :

فمن هنا كان العبد حكمه حكم الأجنبى فى الإجارة ، فالفرض له الجزاء الذى يقابله ، كما نص العهد الذى بين الله وعباده ، والنوافل لها الأجور وهو قوله تعالى : «**لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا** ».. (الحديث) ..

فالنافلة أنتجت له المحبة الإلهية ليكون الحق ســمعه وبصــره والمحبة الإلهية هى التى أنزلته من الحق منزلة أن يكون الحق ســمعه وبصــره والعلة فى ذلك أن المتنفل عبد اختيار ..

وهنا اختار الإنســـان أن يكون عبد الله لا عبد هواه فقد آثر الله على هواه ، فهو عبد اختيار وليس كما فى أداء الفرائض عبد اضــطرار ، فتلك العبودية أوجبت عليه خدمة سيده فيما افترضه عليه ، فبين الإنسان فى عبوديته الاضطرارية وعبوديته الاختيارية ما بين الأجير والعبد المملوك لسيده ..

مابين العبد والأجير:

فالعبد الأصلى ما له على سيده استحقاق إلا ما لا يد له فيه يأكل من سيده ، ويلبس من ســيده ويقوم بواجبات مقامه فلا يزال فى دار ســيده ليلا ونهارا لا يبرح إلا إذا وجهه فى مهمة أو شغلة ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ [الحج :27] أى يسرع لتلبية نداء الحق ولا ينتظر حتى الركوب ، بل يسرع مترجلا لتلبية نداء الله فى كل شىء ..

فهو فى الدنيا مع الله وفى القيامة مع الله ، وفى الجنة مع الله ، فهى جميعا ملك ســيده فيتصرف فيها تصرف الملاك ..

أما الأجير فما له سوى ما تحدد له من الأجرة منها نفقته وكسوته ، وما له دخول على ســيده ، ولا الإطلاع على أســراره ولا تصــرف فى ملكه إلا بقدر ما اســتؤجر عليه ، فإذا انقضت مدة إجارته وأخذ أجرته غادر وفارق مؤجره واشتغل بأهله ونفسه ،

وليس له أن يطلب لقاء مستأجره إلا أن يمن عليه رب المال بأن يجالسه ويخلع عليه ذلك من باب المنة ، وقد ارتفعت عنه فى الدار الآخرة عبودية الاختيار فهى مقام جليل الشأن ..

وإن كنت يجب أن تفطن إلى قول الأنبياء مع كونهم عبادا مخلصين له لم يملكهم هوى أنفسهم ولا أحد من خلق الله ، ومع ذلك قالوا : ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [يونس: 72] ، فهذا راجع إلى دخولهم تحت حكم الأسماء الإلهية التى تطلبهم لظهور آثارها فيهم فلهم الاختيار فى الدخول تحت أى اسم إلهى شاؤوا ويتنقل بين الأسماء الإلهية للعمل فى خدمة سيده ..

تحرم النوافل وقت الفرض :

ومع أن الإنسان العبد يتنقل ويتعبد بما شاء حتى إنه إذا ما سمع نداء إقامة الصلاة المفروضة ، تحرم عليه كل نافلة، ويبادر إلى أداء فرض سيده ومالكه ، فإذا فرغ دخل فى أى نافلة شاء ..

فهو فى هذا التشـبيه فى هذه الحالة كعبد لسـيد له أولاد كثيرة ، فهو مع سـيده بحكم عبوديه الا ضطرار إذا أمره سيده لم يشتغل بأمر غيره ، فإذا فرغ من أداء ذلك طلب أولاد سيده منه أن يسخروه فلابد أن يحددوا ويعينوا له ما يرغبه فى خدمتهم ، وكل ولد يحب أن يأخذ هذا العبد لخدمته، فى وقت فراغه من شـغل سـيده ، فيتنافسـون فى أجره ليسـتخلصـوه إليهم فهو لخير فى أى ولد يخدم فى ذلك الوقت ، فالإنسـان المتنفل هو العبد والسيد هو الله ، والأولاد هى الأ سماء الإلهية ، ولله المثل الأعلى ، فإذا رأى العبد ملهوفا يحتاج من يغيثه فيعلم أنه تحت تسخير الا سم المستغيث فيغيثه ، وإذا رأى العبد ضعيفا فى نفسه فتلطف به كان تحت تسخير الا سم اللطيف وهكذا يجب على العبد أن يتحقق كيف يخدم ربه وسيده ..

أجير السوء:

ولهذا أبى أهل الله أن تكون عبوديتهم لله هى عبودية إضـطرار قاصـرة فقط على الفرائض وعلى الجزاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾[التوبة :111] ، فيعبدون الله بالمقابل وبالأجر ، فيكونوا كمن قالت العابدة رابعة العدوية كأجير السوء الذى يعبد بالمقابل(□) ..

(□)فلسفة الحب الإلهى : كتاب للمؤلف .

بل كانت عبادتهم لله خالصة دون انتظار للمقابل كأجير السوء ، ولم تكن عبادتهم لله عبودية اضطرار يقومون بتمام ما كلفوا به من أداء الفرائض ، ولكن كانت عبوديتهم عبودية اختيار ، عبودية العبد المملوك بكله ووقته لسيده دون غيره من الخلق ودون مقابل ، فى أكله ومشربه ومنامه ويقظته وتفكيره فى مملكة سيده قائم على تنفيذ ما يطلبه وتنفيذا لمشيئته وإرادته دون غيره لا يبرح مملكته إلا فيما يستخدمه فيه ، فهو عبد خالص له ..

المضطرون دائما :

غير أن هناك نوعا آخر من الاضطرار المحبب بوجه خاص وهو الاضطرار غير المتعلق بسبب الذى يجعل العبد يضطر للحق .. بل هو اضطرار فى غياب السبب ، إنه النوع الذى يلازم أهل الله أهل التحقيق أولياء الله الذين هم فى اضطرار دائم واعتماد دائم إلى الحق وعليه ، فهم بالله ومع الله وفى الله ولأجل الله ولله ، هجيرهم قول الله تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل: 62]..

قال أحد العارفين أن الولى لايزال مضطرا ، لأن اضطرار العامة يتعلق بمسببات الأسباب ، فإذا زالت زال اضطرارهم ، وذلك لغلبة دائرة الحس على مشهدهم ، فلو شهدوا قبضة الله الشاملة المحيطة لعلموا أن اضطرارهم إلى الله دائم ،

لأن الاضطرار تعطيه حقيقة العبد إذ هو من الممكنات ، وكل ممكن مضطر إلى ممد يمده ومدد يمد به، وكما أن الحق سبحانه هو الغنى أبدا ، فالعبد مضطر إليه أبدا ، ولا يزال العبد محتاجًا لهذا الاضطرار فى الدنيا والآخرة ، ولو دخل الجنة ، فهو محتاج إلى الله فيها ..

وقد عاتب الله قوما اضطروا إليه عند وجود أسباب ألجأتهم إلى الاضطرار فلما زالت زال اضطرارهم ، قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: 67] ، وقال تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 12] ..

والدليل على أهمية رتبة ودرجة هذا الاضــطرار المحبب ، أن الحق ســبحانه وتعالى أوقف الإجابة عليه ، فقال : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل: 62] ، وإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يعطى عبدا شيئا وهبه الاضطرار إليه فيه ، فيطلب باضطرار ، فيعطى ، وإذا أراد الله أن يمنع عبدا أمرا منعه الاضطرار إليه ،

ثم منعه إياه وقامت حجة الله على العبد : لو اضطررت إلينا لأعطيناك ، فلا يخاف عليك أن تضــطر وتطلب فلا تعطى ، بل يخاف عليك أن تحرم الاضــطرار ، فتحرم الطلب ، أو تطلب بغير اضطرار فتحرم العطاء، ولهذا كان أولياء الله لهم ما يشاؤون عند ربهم، لأنهم هم المضطرون دوما إلى الله.



﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإ سراء: 23] ، فهو عند أهل الله (حكم)، وعند ما لاعلم له من علماء الرسوم بالحقائق بمعنى (أمر) وشتان ما بين المعنيين ..

الغيرة الإلهية :

ما نعيش عليها هى أرض الله بلا شك ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: 56] ، فأضافها إليه فهى ﴿أَرۡضُ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: 97] ، ولا ينسب الله إليه أو يضيف إلى اسمه من شىء إلا شيئا طهور فهى طهور وترابها طهور ، سواء سكن هذه الأرض من يعبده أو يستكبر على عبادته ..

فهى أرض الله وكل ما فيها وما عليها ، وخلقنا من الأرض التى أمرنا أن نعبده فيها ، ولكن هناك منا من عبده سبحانه ومنا ما لم يعبده وعبده فى أشياء أخرى غير الله ، فغار الله أن يُعبد غيره فى أرضه ..

فقضت الغيرة الإلهية وانتهت إلى ألا يُعبد غيره على هذه الأرض حتى وإن كان هناك من يفعل ذلك ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: 23] ، أى صدر الحكم الإلهى أنه ما عبد (بضم الميم) من عبد (بضم الميم) غير الله ..

وطبقا لهذا الحكم الإلهى فإن هؤلاء الذين عبدوا غير الله ، ما عبدوا إلى الله حتى وإن أخطأ وا فى النسبة ، إذ كان لله فى كل شىء وجه خاص به ثبت ذلك الشىء ، ثبت ذلك بدلائل التوحيد ،فما خرج أحد عن عبادة الله ..

فكل مخلوق سواء كان إنس وجان أو جماد أو نبات أو حيوان أو صفات بشرية لله وجه خاص فيها فهو القائم عليها وعلى أسبابها بأسمائه بناء على أسمائه و صفاته سبحانه وتعالى وقيومته فإن عبد المرء المال أو الجمال أو مخلوق ..أو .. أو .. ، فهو فى الواقع والحقيقة ما عبد إلا الله حتى وإن زعم هذا الشخص غير ذلك ..

غير أنه بذلك عبده سبحانه وتعالى فى الأغيار أي في غير الله على هذا النحو الخاطئ وغير الصحيح، وبموجب هذا الحكم الإلهى الصادر ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ ، فهو رب كل شىء ، مالكه وصاحبه ..

وقد أراد الله أن يميز بين من يعبده على الاختصاص وبين من عبده فى الأشياء ، ليفرق بذلك بين الخبيث والطيب ، فالخبيث هو الذى يعبد الله فى الأغيار ، والطيب هو الذى يعبد الله فى غير الأغيار وعلى الوجه الصحيح ..

ولهذا جعل الله هذه الأرض محلا للخلافة فهى دار ملكه ، فمنها خلقنا وفيها أسكننا أحياء وأمواتا ، ومنها يخرجنا بالبعث فى النشـأة الأخرى حتى لا تفارقنا العبادة حيث كنا دنيا وآخرة ، وإن كانت الآخرة ليست بدار تكليف ولكنها دار عبادة أيضا ..

وأكد الله هذه الدعوة الإلهية بصـفة إلهية قائلا سـبحانه ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ [طه: 14] ، وجاء ذلك بعد أخذ الميثاق على خلقه بربوبية الخالق ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : 172] ..

لقد حالت الغيرة الإلهية أن يخلق ، ويرزق ويستر ، ثم بعد ذلك يحمد غيره ويشكر غيره ويعبد غيره على أرضه لذلك صدر هذا الحكم الإلهى ، فيا أيها العابد لغير الله والله ما عبدت إذ عبدت إلا الله المعبود الواحد الأحد فى عين حقيقته و ستدفع ثمن عبادتك له فى الأغيار .. لهذا قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه حتى وإن عبدتم غيره فى ملكوته وملكه ..

وتظهر الغيرة الإلهية أيضا فى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَ ﴾ [الأنعام: 36]، فحكم الغيرة الإلهية عن الألوهة أن يقاومها أحد من عباده بخلاف ما دعت إليه، إذ لو علم أنهم سمعوا وما استجابوا لعظم هؤلاء الشرزمة فى أعين الناس وجعلهم فى مقام المقاومة له،

فقال : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ : الأنفال: 21] فستر عليهم ، وقال لو شاء الله لأ سمعهم فأكذبهم فى قولهم سمعنا فقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ فلو سمعوا لاستجابوا فإن الله أعز وأجل من أن يقاومه مخلوق ..

ألا تراه يقول فى حق من سـمع من النصـارى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ ﴾ [المائدة: 83] فو صفهم بأنهم يسمعون ، ثم ذكر ما كان منهم حين سمعوا فقال: ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة:83] ..

فلا تقل: فيمن لم يجب داعى الله أنه سـمع فتخالف الله فيما قال عنهم وأخبر عنهم وو صفه لهم ، فقد أخبر الله عنهم أن بهم صمما ، وأخبر عنهم أنهم قالوا: فى آذاننا وقرا ، فطابق قولهم فى آذاننا وقر قول الله أنهم صم لا يسمعون ولم يعقلوا ما سمعته آذانهم ، وما سمع ما سمع منهم إلا دعاء ونداء وهو قوله: يا فلان مثلا وما سمع أكثر من ذلك ، فما أعظم رحمة الله بعباده وهم لا يشعرون ..

فحا شى أن يكون هناك من خلق الله من يدعوه الله على لسان ر سوله ويرفض ويقاوم ما سمعه من كلام الله ، فهو فى الحقيقة لم يسمع

حتى لو قال: إنه سمع وإذا سمع، فهو لم يسمع إلا نداء دون فحوى، ولم يعقل ما سمع ولم يدرك ذلك ، لأن الغيرة الإلهية تحول دون أن يقاومها مخلوق ..

ثم إن الله يغار لعبده المنكسـر الفقير أكثر مما يغار لنفسـه ، فإنه طلب من عباده أن يغاروا لله إذا انتهكت حرماته ، غير أن غيرتك لله تعود محمدتها عليك ، وغيرته عز وجل لك تعود محمدتها أيضـا عليك ، فهو يثنى عليك بغيرته لك ويثنى عليك بغيرتك له ، فأنت المحمود على كل حال وبكل وجه ..

فإذا زارك شـخص عظيم الشـأن والمرتبة ، وجاءك فى ذات الوقت فقير ضـعيف ، فليكن قبولك على الفقير و شغلك به إلى أن يفرغ من شأنه الذى جاء إليه ، فإن تجليات الحق عند ذلك الفقير أعلى وأجل من تجلياته عند ذلك الشخص عظيم الشأن الدنيوى ..

ولذلك ترى الرؤسـاء والملوك على ماهم عليه من العزة والسـلطان والجاه كالعبيد بين يدى الزهاد والعباد والصـوفية من أهل الله وذلك لغناهم بالله وعدم افتقارهم إليهم فى عزهم وما فى أيديهم من عرض الدنيا ، فحاجة الغنى للمال أقوى وأشد من حاجة الفقير إليه ..

مقامات الغيرة :

والغيرة عند أهل الله على ثلاثة مقامات ، غيرة فى الحق وغيرة على الحق وغيرة من الحق ، والحق اتصف بأنه غيور ومن غيرته حرم الفواحش ، فالغيرة فى الحق هى الغيرة التى تكون عند رؤية المنكر والفواحش وهى التى اتصف الحق بها والملأ الأعلى والرسل وصالحو المؤمنين ..

الغيرة النفسية :

فحال الغيرة هو ما يجده الغيور من اختلاف الأمر عليه فى نفسه عند وقوع ما لا يرضى الله سواء وقع ذلك منه أو من غيره ومن هذه صفته فهو معصوم ، وأن من وقع منه ما يوجب الغيرة و لا يغار وإذا رأى ذلك من الغير أدركته الغيرة فليست بغيرة إلهية وإنما هى غيرة نفسية لا قربة فيها إلى الله ..

وأما حال الغيرة على الحق فهى كتمان الأسرار والسرائر وتلك حالة الأوفياء الأبرياء من الملامية المجهولين والمجهولة مقاماتهم فلا يظهر عليهم أمر إلهى يعرف به أن لله عناية بهم فأحوالهم تستر مقاماتهم ، فإنهم لا يظهرون فى محل وقوع ما يستوجب الغيرة، وهذه الطائفة متحققة بسيدها ، فمنعهم ذلك من أن يظهروا فى الموطن ، فجروا مع العامة على ما العامة عليه ، لأنه ما يظهر منهم ما لا يتميزون به عن العامة ، فهذه غيرة على الحق ..

وأما حال الغيرة من الحق هو حال أوليائه الذين سترهم عن سائر عباده فحبب إليهم الستر ، وتكون نسبة هذه الغيرة إلى الحق ، فهؤلاء لا يشاهدون سوى الحق ولا ينظر هو إلا إليهم ..

سلطان إله الهوى :

ولولا الهوى ما عبد الله (بضـــم العين) فى غيره ، وأن الهوى أعظم إله متخذ من قبل ما يعبدونه ، قال تعالى : ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية : 23] ، فلولا قوة سلطانه فى الإنسان ما أثر مثل هذا الأثر فيمن هو على علم بأنه ليس بإله ..

والآلهة المتخذة آلهة طائفتان : منها من ادعت مع علمهم فى أنفسهم أنهم ليسوا كما ادعوا وإنما حبا للرياسة وقصدوا إضلال الناس كفرعون وأمثاله وهم فى الشقاء وكذلك ممن تشهد عليهم ألسنتهم بما نطقت به من هذه الدعوى ..

ومنها من إدعت ذلك على بصـيرة وتحقق معرفة فى مجلس لقرينة حال إقتضـاها المجلس لما رأوا أن الحق عين قواهم ، كأبى يزيد البسـطامى مما نقل عنه مثل هذا مع صحوه وثبوته وعلمه بأن الحق هو الظاهر بأفعاله فى أعيان الممكنات ..

الفصل الثالث إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5)

إن الله عندما يخاطب العبد ، فإنه سبحانه وتعالى يخاطبه بكليته وبجمعيته من أعضاء وجوارح ، فهذه الجوارح هى عالم بشرية الإنسان المكلف من قبل الحق ، ولا يخاطب الله جزءا دون آخر أو عضوا دون آخر من هذا العالم الصغير الذى هو الإنسان وهذا ما يفصل ويميز بين إنسان عبد ربه على بصيرة منه وعلى نحو صحيح وبين آخر اكتفى بظاهر الخطاب فهو كذوب ..

لقد قال الله تعالى قسمت الفاتحة بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل ، ولكننا نلحظ أن هناك نون الجماعة فى مخاطبة العبد لربه فى قوله تعالى على لسان العبد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 5،6] فهذه الآية تتضمن سائلا ومسؤولا مخاطبا وهو الكاف فى إياك فيهما ، ونعبد ونستعين هما للعبد فإنه العابد والمستعين ، ولقول رسول الله ﷺ فى موضع التعليم للسائل « أن تعبد الله كأنك تراه » وهنا الكاف حرف خطاب ، وهذا مشهد برزخى وقع فيهما الاشتراك بين الحق وبين عبده وما مضى من الفاتحة خالص لله ، وما بقى منها يخص العبد ..

ولم يتم جمع الحق بـ صيغة الجمع لأن المعبود الواحد ولكنه لجأ الى صيغة الجمع مع العبد بنون الجمع فى العبادة والعون ، لأن العابدين من العبد الواحد كثيرون ، و كل واحد أو جزء من العابد يطلب العون ، فعلى البصر عبادة وعلى اللسان والسمع واليد والبطن والفرج والرجل والقلب ، ولهذا قال « نعبد ونستعين » بالنون وأن العالم (بكسر اللام) نظر إلى تفاصيل عالمه ، (بفتح اللام) فعلم أن الصلاة عم حكمها على جميع حالاته ظاهرا وباطنا لم ينفرد جزء عن آخر..

فإن العابد يقف بكله ويـ سجد بكله ويجلس بكله ، فجمع عالمه قد اجتمع على عبادة ربه وطلب المعونة منه على عبادته ، فجاء بنون الجماعة فى « نعبد ونستعين » ، فترجم اللسان عن الجماعة (الأعضاء والجوارح) ، مثلما يتكلم الواحد عن الوفد أو المتحدث عن الجماعة بحضورهم بين يدى الملك ، فعلم العبد من الحق لما أنزل عليه هذه الاية ، بإفراده بنفسه ألا يعبد إلا إياه ..

عندما يكذب العبد :

ولما قيد الله العبد بنون الجمع ، فإنه يريد منه أن يعبده بكله ظاهرا وباطنا ، من قوى وجوارح ، ويستعين على ذلك الحد ، ومتى لم يكن المصلى بهذه المثابة من جمع عالمه على عبادة ربه كان كاذبا فى قراءته إذا قال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: 5] .

فإن الله ينظر إليه فيراه ملتفتا فى صلاته ، يسمع التلفزيون أو يستمع لحوار من حوله أو مشغولا بخاطره فى دكانه أو مصنعه أو مشغله أو مكتبه ، وهو مع ذلك يقول : نعبد ، فيكذب !! فيقول الله له كذبت فى كنايتك بجمعيتك على عبادتى ، ألم تلتفت ببصرك إلى غير قبلتك ؟ .. ألم تصغ بسمعك إلى الحاضرين ؟؟ .. ألم تعقل بقلبك ما تحدثوا به ؟؟ .. فأين صدقك فى قولك « نعبد » بنون الجمع .. غير أن العارف يستحضر هذا كله فى خاطره أثناء صلاته وقراءة القرآن فيستحى أن يقول فى مناجاته فى صلاته «إياك نعبد » إن لم تكن بجمعيته لئلا يقال له : كذبت ، فلابد أن يجتمع العبد بكليته أثناء عبادتة لربه حتى يقول الحق له إذا تلا فى جمعيته صدقت فى عبادتك إياى وطلب معونتى ..

الصبى العابد :

روى عن بعض المعلمين الصالحين : أن صبيا صغيرا كان يقرأ القرآن عليه ذات مرة فوجده أصفر اللون فسأل عن حاله فقيل له : إنه يقوم الليل بالقرآن كله ، فقال له : يا ولدى قيل لى أنك تقوم الليل بالقرآن كله ، فقال : هوما قيل لك ..

فقال : يا ولدى إذا كان فى هذه الليلة فأحضرنى فى قبلتك واقرأ القرآن علىَّ فى صلاتك و لا تغفل عنى .. فقال الشاب : نعم أفعل .

فلما أصـــبح قال له : هل فعلت ما أمرتك به ؟؟ قال : نعم يا أســـتاذ .. قال : وهل ختمت القرآن بالأمس ؟؟ ، قال : ما قدرت على أكثر من نصف القرآن .. فقال : حسنا ، فإذا كان فى هذه الليلة اقرأ القرآن واستحضر أحدا من صحابة رسول الله ﷺ أمامك من الذين سمعوا القرآن عنه ﷺ واحذر يا بنى فإنهم سمعوه من رسول الله ﷺ ، قال الشاب : إن شـاء الله يا أسـتاذ أفعل .. فلما أصـبح سـأله الأسـتاذ عن ليلته .. قال : يا أسـتاذ ما قدرت على أكثر من ربع القرآن ..

فقال الأستاذ : يا ولدى إذا كانت هذه الليلة فإقرأ القرآن مستحضرًا جبريل الذى نزل بالقرآن على قلب رسول الله ﷺ ، فلما أصبح قال : ما قدرت يا أستاذ إلا على تلاوة جزء أو أكثر طوال الليل ، فقال الأستاذ : يا ولدى إذا كان فى هذه الليلة استحضر أثناء تلاوتك رســـول الله ﷺ الذى أنزل عليه القرآن واعرف بين يدى من تتلو .. فقال : نعم أفعل إن شاء الله ، فلما أصبح قال : ما قدرت يا أستاذ أن أقرأ سوى آيات قليلة من القرآن..

فقال : يا ولدى إذا كانت هذه الليلة تب إلى الله وتأهب واعلم أن المصـــلى يناجى ربه وإنك واقف بين يديه تتلو عليه كلامه فأنظر حظك من القرآن وتدبر ما تقرأ فليس المراد جمع الحروف ولا تأليفها ولا حكاية الأقوال وإنما المراد بالقراءة التدبر لمعانى ما تتلوه فلا تكن جاهلا فاستحضر الحق سبحانه أثناء تلاوتك ..

فلما أصبح اليوم التالى ، انتظر الأستاذ الصبى فلم يأتى إليه فبعث من يسأل عنه فقيل له : أنه أصبح مريضا يُعاد .. فذهب إليه الأستاذ ، فلما أبصره الشاب بكى ، قال يا أستاذ : جزاك الله عنى خيرا ما عرفت أنى كاذب إلا البارحة ، قال له : كيف يا بنى ؟؟ قال : لما قمت فى صـــلاتى واســـتحضـــرت الحق تعالى ، وأنا بين يديه أتلو عليه كتابه ، فلما استفتحت الفاتحة ووصلت إلى قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وهو يعلم أنى أكذب فى مقالتى ، فإنى رأيت نفســى لاهية بخواطرها عن عبادته فبقيت أردد القراءة من أول الفاتحة إلى قوله: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة:4]، ولا أنطق إياك نعبد لأنها ما خلصت لى .. فبقيت أستحى أن أكذب بين يديه تعالى فيمقتنى ويرد على كذبت فما عبدتنى بكليتك وجمعيتك، فما ركعت حتى طلع الفجر ، وقد تعب كبدى وما أنا إلا راحل إليه على حالة لا أرضـاها من نفسى .. فما انقضت ثلاث ليال حتى مات الشاب ، فلما دفن ، أتى الأستاذ الى قبره فسأله عن حاله ، فسمع صوت الشاب من قبره وهو يقول : يا أستاذ أنا حيى عند الحى لم يحاسبنى بشىء ..

فرجع الأستاذ إلى بيته ولزم الفراش، مريضا مما أثر فيه حال الفتى، فلحق به فمن قرأ الفاتحة على قراءة الشاب فقد قرأ !!!!!

السلام علينا ..

عندما يقول المصلى فى التشهد: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فقد سلم المصلى على نفسه بشمول السلام وأجنا سه (أى كل جوارحه وأعضائه) ، يقول الله تعالى : ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾[النور: 61] ..

والدخول فى كل حال من أحوال الصلاة كالبيوت فى الدار الجامعة ، تحية من عند الله مباركة طيبة ، فجعلك الله أيها العبد المصلى رسولا من عنده موفد إلى نفسك بهذه التحية المباركة لما فيه من أسباب الخير الطيبة فإنها حصلت له ذوقا ، كما أنها طيبة الأعراف بسيرانها فى نفس الرحمن ..

وقد جاء بنون الجمع فى قوله : السلام علينا أى قد أذن له أن يكون مبلغا السلام من الله إلى كل جزء منه أعضاء وجوارح ، وهو يسلم عليهم لكونه جاء قادما من عند ربه لغيبته عن نفسه حين دعاه الحق إلى مناجاته .. فسلم على نفسه بنون الجماعة إذا كان هذا العبد قد دخل إلى بيت قلبه ، ونزه الحق أن يكون حالا فيه ، وإن وسعه كما قال الله لما يقتضيه جلال الله ، ورأى بيت قلبه خاليا من كل سوى الله ، والحق لا يسلم عليه (بضم الياء) فإنه هو السلام ، فقد نهى ر سول الله الصحابة فى بداية الدعوة عن السلام على الله لأنهم كانوا يقولون السلام على الله فى التشهد ،

فقال ﷺ : « لا تقولوا السلام على الله، فإن الله هو السلام ، فلما دخل العبد المصلى بيته (بيت قلبه) ولم يرى فيه أحد، ونزه الحق أن يحوى عليه بيت قلبه فما بقى له أن يشهد سوى عالمه الصغير المكلف الذى ليس سوى نفسه ، وقد أمره الله إذا دخل بيتا خاليا من كل أحد أن يسلم على نفسه فى قوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾ [النور:61] ..

فيكون هنا العبد مترجما عن الحق فى تبليغ سلامه ، لأنه قال: تحية من عند الله مباركة، كما جاء فى سمع الله لمن حمد ، فكذلك يقولها فى الصلاة نيابة عن الحق جل جلاله وتقدست أ سماؤه ؛ لأنه ما ثم من حدث له حال دخول أو خروج فيكون السلام منه أو عليه ..

المنية والنفسية والعندية

من الله :

هناك فرق بين من الله وبين من عند الله ، ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النســاء: 79] ، « منيه » مثل ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ [الكهف:82] ، ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: 79] ، « نفسية » مثل : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف:79] فنسب العيب لنفسه ، ثم قال : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[النساء: 78] قال ذلك فى الأمرين إذا جمعهما ، أى « عندية » مثل ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ ﴾ [الكهف:81] ، فلا تقل من الله وعلينا مراعاة اللفظ ..

فأفرد الحسنة فى « من الله » ، كما أفرد السيئة فى النفس وأجمل الحسنة والسيئة فى «عند الله» ، لأن لجمع الأمر حقيقة تخالف حقيقة كل مفرد إذا انفرد ، ففصــل ســبحانه بين ما يكون منه وما يكون من عنده .. مثلا يقول فى طائفة : ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه: 73] ، وفى حق طائفة أخرى : ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [القصص: 60] ..

من عند الله :

إذن فما هو من عنده ليس عين ما هو منه و لا عين هويته فبين الطائفتين ما بين المنزلتين .. كما فعل الرســول ﷺ مع صــاحبيه أبي بكر وعمر رضــى الله عنهما عندما طلبهما أن يأتيانه بما لديهما من مال ، فعندما جاء أبو بكر بما لديه ، سأله رسول الله ﷺ :

ما تركت لأهلك ؟؟ قال له تركت لهم الله ورسـوله ﷺ ، وعندما جاء عمر بما لديه سأله الرسول ﷺ : ما تركت لأهلك ؟؟ قال له : تركت لهم شطر مالى .. فقال رسول الله ﷺ: بينكما ما بين كلمتيكما يعنى بذلك المنزلة .. فقال عمر : فأدركت حينها أنى لن أصل إلى منزلة أبي بكر ، هذا هو أهل الأدب ومنزلتهم من العلم ..

أدب النبوة:

وقال الله فى حق إبراهيم الخليل وعلى لسـانه : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ [الشعراء: 78 ، 79] ، ولم يقل: يجوعنى ، ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ ﴾ [الشعراء: 80] ، ولم يقل أمرضـنى ﴿ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشـعراء: 80] ، فأضـاف الشـفاء إليه والمرض لنفسه ، وإن كان الكل من عنده ولكنه هو أدب رسله سلام الله عليهم ..

وما أضاف صاحب موسى عليه السلام فى إضافة خرق السفينة إليه إذ جعل خرقها عيبا ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف:79] ، فنسب العيب لنفسه ولم ينسبه الى ربه «نفسية»، وأضـاف قتل الغلام إليه والى ربه لما فيه من الرحمة بأبويه ، ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ ﴾ [الكهف:81] ، فإن فى قتل الغلام أمرين، أحدهما يؤدى إلى الخير ،

وأمر إلى غير ذلك ، «عندية » ، وفى الجدار نسب إلى ربه لما فيه من الصلاح والخير ، ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ [الكهف:82] ، أى « منيه » ، وهذا قمة مراعاة الأدب مع الله فيما ينسب إلى النفس ، وإلى الله ، وإن كان الكل من عنده ..

بئس الخطيب:

لذلك قال رسول الله ﷺ لما سمع بعض الخطباء، وقد جمع بين الله تعالى ورسوله ﷺ فى ضمير واحد فى قوله ومن يعصهما ، «بئس الخطيب أنت» ..

إذن لا يضاف إلى الحق إلا ما أضافه الحق إلى نفسه أو أمر به رسوله أومن أتاه علما من لدنه كالخضر ، فهذا الخطيب ينبغى له ألا يجمع بين الحق والخلق فى ضمير واحد ، إلا بإذن إلهى من رسول أو علم لدنى .. فإنه قال:« من يطع الرسول فقد أطاع الله ، وما قال من يعصى الرسول فقد عصى الله ؟؟؟ ..



﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾

كل حرف وكل كلمة وكل ترتيب لفظى بل وكل تتابع أو توالى وكل جمع وكل إفراد وكل تكرار شكلى وكل عطف ومعطوف هو لحكمة إلهية يترتب عليها تبيان المعنى الذى أراده الله من كلامه بما ينطوى على إعجاز لغوى لمفردات القرآن الكريم لتبيان وتوضيح وإظهار معان بعينها ..

النفس قابلة للإلهام :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس: 7 ، 8] ، يتساءل الكثير من الناس ممن يستمعون لعلماء الرسوم ، لا سيما الذين ينظرون إلى ظاهر اللفظ فى الآية ، أنه إذا كان الله هو الملهم للنفس بما تفعله من فجور وتقوى ، فلما يحاسبها فى الآخرة على ما ترتكبه من معاصى ومخالفات ؟؟؟؟ ، والحقيقة غير ذلك ..

لقد جعل الله النفس محلا قابلا لما تلهمه من الفجور والتقوى ، فتميز – بما سواها « ونفس وما سواها » – بين الفجور فتتجنبه والتقوى فتسلك طريقه .. ولم ينسب سبحانه إلى نفسه خاطر المباح ولا إلهامه فيها به ... والسبب فى ذلك أن المباح ذاتى لها فهو من صفاتها النفسية التى لا تعقل النفس إلا به

فهو على حقيقة نشـأتها ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشـمس: 7] أعنى خاطر المباح .. هو من صـفاتها كالضـحك للإنسـان ، فإنه من خواص النفس دفع المضـار عن صـاحبها واستجلاب المنافع له ..

النفس مستوية معتدلة بفطرتها :

وقوله : ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أى من التسوية وهو الاعتدال فى الشىء ، ﴿فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: 7] يمتن بذلك على الإنسان .. وما فى أقسام أحكام الشريعة قسم يقتضى العدل ويعطى الاعتدال إلا قسم المباح فهى تطلبه بذاتها وخاصيتها ، فلذلك لم يصفها بأنها ملهمة فيه ..

ثم أن الله لم يذكر صراحة من الملهم لها بالفجور والتقوى ، فأضمر الفاعل ، فالظاهر أن الضمير المضمر يعود على المضمر فى سواها وهو الله تعالى .. ولكن كيف ؟؟

الملك والشيطان :

لقد قال الرسـول ﷺ :« **إن للملك على الإنسـان لمة وللشـيطان لمة** » يعنى الطاعة وهى التقوى والمعصـية وهى الفجور ، فيكون الضـمير فى ألهمها للملك فى التقوى وللشيطان فى الفجور ، ولم يجمعهما فى ضمير واحد لبعد المناسبة بينهما ، وكل بقضاء الله وقدره ،

ولا يصح أن يقال فى هذا الموضع أن الله هو الملهم بالتقوى وأن الشيطان هو الملهم بالفجور ، لما فى هذا من الجهل وســوء الأدب لما فى ذلك من غلبة أحد الحاضــرين والفجور أغلب من التقوى ، ثم أنه لا يصح أن نجمع بين الله وهو الخالق وبين المخلوق وهو الشيطان فى ضمير واحد ..

فالفاعلان فى ألهمها مضمر ، فإن كان الله هنا فى الضمير هو الملهم بالتقوى والشيطان هو الملهم بالفجور ، فقد جمع (برفع الجيم) الله والشيطان ضمير واحد وهذا غاية سوء الأدب مع الله ، وما أحســن ما جاء بواو العطف فى قوله : ﴿وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشــمس: 8] لتوضيح ما قصدناه ..

كيف نعطف المخلوق على الخالق !! :

فتعالى الله الملك القدوس أن يجتمع مع المطرود من رحمته فى ضــمير واحد ، وقد قال رســول الله فى الخطيب الذى جمع بينه وبين الله فى ضــمير واحد « **بئس الخطيب أنت** » ، عندما قال ومن يعصــهما ، وما قال ذلك رســول الله ﷺ ، إذ جمع الله بينه وبين نفسه فى ضمير واحد إلا بوحى من الله وهو قوله : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: 80] ..

فلم يبق بعد هذا الاستقصاء أن يكون الضمير فى ألهمها فى الفجور إشارة إلى الشيطان وبالواو فى التقوى إلى الملك .. فمقابلة مخلوق (وهو ملك) بمخلوق (وهو الـ شيطان) أولى وأنسب ..

وفى قول رسول الله ﷺ « بئس الخطيب أنت » كفاية لمن أنار الله قلبه وبصيرته ، فقد أعلمك برتبة نفسك وأنها ليست أمارة بالسوء من حيث ذاتها وإنما ينسب إليها ذلك من حيث أنها قابله لإلهام الشيطان بالفجور ولجعلها بالحكم المشروع فى ذلك كنفس أمرت صاحبها بارتكاب أمر لا تعلم تحريمه بالشرع أو قامت عندها شبهة إباحة فى ذلك ..

وأما الآية : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: 53] ، أنها لوامة إذا قبلت من الشيطان ما يأمرها به ، امرأة العزيز التى لامت نفسها بعد ذلك ..

النفس تقبل على قدر استعدادها :

وأما قوله تعالى : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ [الإسراء: 20] ، هو إيضاح أنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾[الإسراء: 20] أى أن الله يعطى على الدوام والنفوس تقبل على قدر حقائق استعداداتها ..

الشمس تدفئ وتحر :

كما تقول مثلا: إن الشمس تبسط أنوارها على كل الموجودات وما تبخل بنورها على أحد ويقبل موقع ذلك النور على قدر استعداده ، وكل واحد يضيف ويرجع الأثر إلى الشمس ، ويغفل ويتناسى على قدر استعداده ، فالشخص الذى يشعر بالبرد يتلذذ من الشمس والشخص المحرور يتألم من الشمس ، ونور الشمس من حيث هو ذاتى واحد ..

الهواء ينير ويطفئ :

وكذلك نفخة الهواء من النافخ تطفئ شعلة المصباح أو السراج ، والنفخة هى هى نفسها تشعل النار فى الحشيش والهواء فى الحالتين واحد ، وكذلك عند تلاوة آيات القرآن ، فسامع يفهم أمرا وآخر يفهم أمرا آخر ، والسماع واحد ، وكذلك فى التجليات الإلهية فالتجلى واحد من حيث هو نفسه واحد ، وتختلف التجليات باختلاف المتجلى عليه ...

إذا أردنا أن نهلك قرية :

وقد يكون هناك تماثل وتشابه فيما سبق من حيث التركيب اللغوى وبين الآية التى تقول : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: 16] ،

وهى فى ظاهر اللفظ تشير إلى أن الله يأمر بالفسق حتى يأتى أمره على من يكون موضع تنفيذ هذا الأمر ، حاشـــا لله ذلك .. كيف يأمر الله بالفعل لكى يأتى على المفعول ،ثم يحاسبه !!..

ولكن الأمر ينطوى على الإيجاز اللغوى فى القرآن والبعد عن التكرار فى التركيب اللغوى لحقائق معلومة ومعروفة ، فالقصـــد هنا أن الله أمر مترفيها الالتزام بما نزله على نبيه والبعد عن المعاصى غير أنهم بدلا من ذلك عصوا وارتكبوا المخالفات والمعاصى ونشـروا الفسـاد والفسـق فحق عليهم أمر ربهم فدمرهم بنتيجة أعمالهم وأفعالهم التى جاءت على عكس ما أمرهم الله على لسان نبيه ، وهذا الإيجاز مما أعطى لرسول الله ﷺ **« أعطيت جوامع الكلم » ..**



الفصل الرابع فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ

يرى البعض من المتعلمين أصــحاب التعليم بالقلم ، إن إبراهيم عليه الســلام قد كذب خلال حواره مع قومه فى واقعة تكســير إبراهيم للأصــنام وقوله لهم: إن الذى كســر الأ صنام هو الصنم الكبير وأخذوا بظاهر اللفظ فى ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: 63] ،حتى ينجو من أيديهم ، والحقيقة:أن الذين يتفوهون بهذا الكلام ليس لهم من الذوق نصيب بل ومن العلم الربانى شىء بل ومن المعرفة والأدب قدر ، ونسى هؤلاء الحديث الشريف « لكل آية ظاهر وباطن وحد ومطلع »..

كيف لرســول نبى من أولى العزم أن يكذب ظاهرا وباطنا ؟؟ ، فإن جهلهم لايقتصــر على أنفســهم بل هم يجهلون ما فى حق إبراهيم عليه الســلام من فتوة فى حق الله :« فتى يقال له إبراهيم » و ما عليه العبد الربانى ، فلم يتريث هؤلاء لكى ينظروا فى معانى الكلمات ولا فى تواتر المعنى القرآنى فى هذه الواقعة فهى على غير ما يظنون تماما ..

فتوة إبراهيم عليه السلام :

الكبير على الحقيقة هو الله ، والله هو الفاعل وهو الفعال لما يريد وهو المكسر للأصنام بيد إبراهيم فإنه يده الذى يبطش بها (هكذا أخبر عن نفسه) ، فكسر هذه الأصنام التى زعموا أنها آلهة لهم ، ألا ترى المشركين يقولون فيهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3] ، فاعترفوا أن ثم إلها كبيرا أكبر من هؤلاء كما هو أحسن الخالقين وأرحم الراحمين ..

فهذا الذى قال إبراهيم عليه السلام فى عقد إبراهيم عليه السلام وفطرته ، وإنما أخطأ المشركون حيث لم يفهموا عن إبراهيم ما أراد بقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: 63] ، فكان قصد إبراهيم كبيرهم الله تعالى وأقام الحجة عليهم وهو موجود فى الاعتقادين وكونهم آلهة ذلك على زعمهم ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: 63] فهم يخبرونكم ، ولم يقل فعلها كبير الآلهة أو كبير آلهتكم بل قال فعله كبيرهم ، فمن حيث هم آلهة ومن حيث أن الحق هو أكبر من كل الآلهة ..

فلو نطقت الأصنام فى ذلك الوقت لنسبت الفعل إلى الله لا إلى إبراهيم ، فإنه مقرر عند أهل الكشف أن الجماد والنبات والحيوان قد فطرهم الله على معرفته وتسبيحه وحمده ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : 44] ، فلا يرون فاعلا إلا الله ..

ومن كان هذا فى فطرته فكيف ينسب الفعل لغير الله ؟؟ فكان إبراهيم على بينة من ربه فى الأصـنام أنهم لو نطقوا لأضـافوا الفعل إلى الله لأنه ما قال لهم سـلوهم إلا فى معرض الدلالة سواء نطقوا أو سكتوا ، فإن لم ينطقوا يقول لهم : لما تعبدون ما لايسمع ولا يبصر ولا يغنى عنكم من الله شـيئا ولا عن نفسـه ، ولو نطقوا لقالوا : إن الله قطعنا قطعا لا يتمكن فى الدلالة أن تقول الأصنام غير هذا ..

ولو أن الأصـنام قالت أن الصـنم الكبير فعل ذلك بنا لكذبت ويكون تقريرًا من الله بكفرهم وردا على كلام إبراهيم عليه السـلام ، فإن الكبير ما قطعهم جذاذا ، ولو قالوا فى إبراهيم قطعنا لصـدقوا فى الإضـافة إلى إبراهيم ولم تلزم الدلالة بنطقهم على وحدانية الله ببقاء الكبير ، فيبطل كون إبراهيم قصـد الدلالة فلم تطع ولم يصـدق ، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ [الأنعام: 83]

فكانت له الدلالة والمساندة والدعم أولا : فى نطقهم لو نطقوا كما ذكرنا ، ثانيا : وفى عدم نطقهم لو لم ينطقون ..

ولذلك ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: 64 ، 65] فقال الله لمثل هؤلاء : ﴿ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴾ [الصافات: 95] ، فكان إبراهيم فتى باع نفسه فى حق أحدية خالقه، ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ﴾ [الكهف:13]..

فلم يكذب إبراهيم عليه السلام فى قوله « فعله كبيرهم » ، كما ذهب بعض علماء الرسوم علماء الظاهر الذين يأخذون بظاهر اللفظ دون الأخذ بدلالة المعنى فهم لا يرون تحت أقدامهم ، وأخذها البعض منهم عليه ، وإلا ما قال الله ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ ، فكيف يدعم الله إبراهيم بالحجة لو كان كاذبا ، وإنما مقصده الله الذى حطمها بيد إبراهيم ، ولكنه الذوق لدى أهل الله والذى يفتقر إليه هؤلاء العلماء من غير أهل الله والذين فتح الله عليهم بالبصيرة فرأوا ما لا يراه غيرهم ..

الفتى والفتوة :

دخل فتى على الشيخ أبو الحسن الشاذلى فقال الشيخ : أتدرى ما الفتوة ؟ ليست الفتوة الماء والملح ، وإنما الفتوة الإيمان والهداية ، قال تعالى ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف: 13] ، والفتى كما قال الله تعالى عن إبراهيم : ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء: 60] ، فسمى فتى لأنه كسر الأصنام ، فمن كسر الأصنام فهو الفتى ..

والخليل إبراهيم عليه السلام وجد أصناما حسية فكسرها ، وأنت لك أصنام معنوية فإن كسرتها كنت فتى ، هذه الأصنام حددها البعض فى خمسة هى : النفس والهوى والشيطان والشهوة والدنيا ، فإن كسرتها فأنت الفتى فلا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على ...



﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾

كل جماد أو نبات أو حيوان ما هو إلا حى ناطق مثله مثل الإنسان والجان ولكن الصمت فى الأول هو الأساس فى النشأة والخلقة والنطق هو الشىء العارض ، على غير الأنس والجن فالنطق فيهما هو الأساس والصمت هو الأمر العارض ..

وإلا ما كانت السماء والأرض قد نطقت على ربها و قالتا ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت:11] عندما قال لهما ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ [فصلت:11]، فلا موجود فى الوجود يمكنه أن ألا يرد على دعاء الله أو لا يلبى نداءه ..

***

الله أعز من أن يقاومه مخلوق :

إن الله عز وجل وهو الخالق ﴿ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾، أعز من أن يقاومه مخلوق ، فهل يعقل عقل عاقل أن ينادى الله على مخلوق من الإنس ولا يلبى النداء ؟؟ ولا يستجيب لنداء الحق أو نداء من يبعث من رسل أو أنبياء ، هذا يتنافى مع العقل أن يحدث ، إلا إذا كان هذا المخلوق أعجز عن سماء النداء بما لم يمكنه أن يسمع لأن الله أجل وأعز ألا يرد عليه سبحانه وتعالى ممن خلق وأوجد أو مما خلق وأوجد ..

ولذلك كان قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾[الأنعام: 36] ، فجعل علة الإجابة السماع لا من قال أنه سمع وفى الحقيقة لم يسمع ، كما نهانا الله أن نكون كالذين قالوا بذلك فقال : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال:23] .

وقد دعانا الله لما خلقنا له من عبادته فسمعنا ، ولما سمعنا استجبنا ، فأخبر الله أنه ما استجاب إلا من سمع ، ولشمول رحمته وجد العذر لمن لم يسمع كما وجد العذر لمن لم تبلغه الدعوة الإلهية ، فحكمه حكم من لم يبعث الله إليه رسولا ، وهو تعالى يقول : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: 15] ..

فالسمع هو عين العقل لما أدركته الأذن عن المبلغ ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى ، فإذا علم ما سمع كان بحسب ما علم فإن العلم حاكم قاهر فى حكمه ، وغير بذلك ليس بعلم فما عصى الله قط عالم يعلم بالمؤاخذة على إتيانه المعصية وذلك حظ المؤمن ..

يعطى الحجة لعبده للرد عليه :

فإذا رأينا من لم يجب علمنا بأخبار الله أنه ما سمع فأقام الله له حجة يحتج بها يوم يجمع الله الرسل فيقول : ماذا أجبتم ؟؟

فتقول الرســل لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت علام الغيوب ، فعلمنا من قولهم أن العلم بالإجابة من علوم الغيب ، فعلمنا أن الســماع غيب فلا يعلم من أجاب إلا من هويته غيب ، وليس إلا الله وما أقام الله العذر عن عباده إلا وفى نفسه أن يرحمهم ..

فرحم بعض الناس بما أسمعهم فا ستجابوا لربهم وأقاموا الصلاة التى حكم الله فيها بالقســمة بينه وبين عبده ، ومن لم يســتجب اعتذر الله عنه بأنه لم يســمع وهذا من حكم الغيرة الإلهية عن الألوهة أن يقاومها أحد من عباده بخلاف ما دعت إليه ..

ما غرك بربك الكريم ؟؟:

ألا تراه يعطى الحجة على نفســه لعباده عليه للرد إذا سـألهم عما فعلوه من تجاوزات حين قال : ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار:6] ، فيقول العبد :لأنك يارب أنت الكريم، كمن يغشــش القائل ماذا يقول فى الامتحان ، فهل هناك أرحم وأكرم من هذا الرب المعافى سبحانه وتعالى مع عباده ، فإنه يعطى الحجة لعبده لكى يرد عليه فيرحمه ..

كما فعل نفس الشىء مع أبينا آدم حين عصى أمر ربه وندم على فعلته

وإعترف بخطئه ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾[البقرة:37] أى علمه كلمات يقولها لكى يعفو عنه ويجتبيه ، فهل أرأف من هذا الرؤوف مع عباده وأرحم من هذا الرحيم مع عباده ..

إذ لو علم أنهم سـمعوا ولم يستجيبوا لعظمهم فى أعين الناس وجعلهم فى مقام المقاومة له ، يعنى لما علم بعلمه السابق فيهم أنه لو أسمعهم لتولوا وهم معرضون فستر علمه فيهم بأن قال

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ ، وقال لو شاء الله لأ سمعهم فأ كذبهم فى قولهم سـمعنا فقال : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ ، لأنهم لو سـمعوا لاستجابوا فهو سبحانه وتعالى أعز من أن يقاومه مخلوق ..

وقد أخبر الله تعالى عنهم أن بهم صـمما ، كما أخبر عنهم أنهم قالوا فى آذاننا وقر ، فطابق قولهم: فى آذاننا وقر قول الله أنهم صم ،فلم يسمعوا، فلم يرجعوا ،ولم يعقلوا ما سمعته آذانهم ، وما سمع من سمع منهم إلا دعاء ونداء مثل قول: يا فلان فقط وليس أكثر ..

هو أرحم الرحمين:

فما أعظم رحمة الله بعباده وهم لا يشـعرون ، فلا تضـيقوا ما وسـع الله ، من شـمول رحمته ، فهى بين الوجوب عند طائفة وبين من يأخذها بطريق الامتنان من المنة والفضل الإلهى عند طائفة أخرى من أهل الله ..

تلك الرحمة التى تجلت فى عتاب حبيبه ﷺ عند ما دعا على المشــركين من رعل وذكوان وعصية لتعرضهم له بالأذى عند نشر الدعوة ، قائلا له ما بعثت شتاما ولا لعانا ولكنك بعثت رحمة للعالمين ، فإذا كان عتابه لرسوله ﷺ فى حق المشرك فكيف الأمر فى غير المشرك وإن لم يؤمن ؟؟؟؟؟



المؤمن الحق والمؤمن الخلق والمؤمن العالم

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: 10] ، فجعل أباهم الإيمان فهم أخوة لأب واحد هو الإيمان .. وقال موسى لربه حين بعثه الله إلى فرعون ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴾ [طه: 25 – 30] فآتاه الله سؤله ..

وجاء فى الخبر « **المؤمن مرآة أخيه** » ، والمؤمن اسـم من أسـماء الله ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات: 10] ، فظهر هناك المؤمن الخلق والمؤمن الحق والمؤمن العالم ..

قال الله لعلماء الكشف « **فأصلحوا بين أخويكم** » فدخل المؤمنون العالمون بينهما بالصلح ، فلابد أن يقوم المؤمن العالم النبى أو العارف بالله بمساعدة المؤمن الخلق على معرفة السبيل السليم والطريق الصحيح الموصلة لمرضاة الله المؤمن الحق ..

فيقول المؤمن الحق للمبلغ عنه : قل لهذا المنازع (المؤمن الخلق) ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ [طه: 14] ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: 11] ،

﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ [الأنعام: 103] ، وأنى منزه عن وصف الواصفين فجاء الرسول بالتوقيع الإلهى إلى هذا المؤمن المنازع بقوله ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾[الشورى: 11] ، وبقوله:

﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات: 180] ..

وأ شباه هذا النوع من التنبيه الذى يقتضيه دليل العقل النظرى ، فإذا سمع ذلك منه ، طاب قلبه وجنح إليه وزال نزاعه ..

وجاء العلماء إلى المؤمن الخلق فى المصالحة من هذا الجانب ، وقالوا له : عليك أن تعلم أن المؤمن الحق أعلم بنفسه منك لا بل أعلم بك من علمك بنفسك ، وأنت إنما تحكم عليه بما هو خلق له مثلك ، هو عقلك وفكرك ودليلك ، فلا فرق بينك وبين كل مخلوق فى العجز عما لا يعجز عنه المؤمن الحق ، فقف معه فى موضع التسليم ، فإنه إن كان مؤمنا وأنت مؤمن فأنت علٍ مرتبتك العبودية التى تليق بك وهو على مرتبته الألوهية أو المعبود التى تليق به ..

وأنت تعلم أيها المؤمن الخلق أنك لست مثله وإن جمعكما الإيمان ، فليس نسبته سبحانه إلى الإيمان مثل نسبتك إليه ، لأنك لست مثله فلا تغرنك هذه المماثلة واعرف قدرك ..

فإذا سمع المؤمن الخلق مثل هذا من المؤمن العالم طلب الصلح والتبرى مما صدر عنه من نزاع ، فأصلح المؤمنون العالمون بين المؤمن الحق وبين هذا المؤمن الخلق ..

فليكن الفهم عن الله فيما أوحى به إلى عباده على ألسنة رسله وأنزله فى كتبه ..

ثم إن الله لم يؤاخ بين المؤمن والكافر، بل لم يجعل لأخوة النسب حظا فى الميراث مع فقد أخوة الإيمان ، فليس المدعو إلا أخوة الإيمان .. ألا تراه إذا مات عن أخ له من نسب وهو على غير دينه لم يرثه أخو النسب وورثه أخو دينه ..

والصورة بيننا وبين الحق نسب ودين ، فلهذا ما يرث الأرض عز وجل إلا بعد موت الإنسان الكامل حتى لايقع الميرث إلا فى يد مستحق له ..

فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، فالمؤمن لا يبغض المؤمن ،والمؤمن لا يقتل المؤمن لإيمانه ، والمؤمن يقتل أخا النسب إذا كان غير مؤمن ..



الفصل الخامس مذموم في العموم ومحمود في الخصوص

تختلف الصفة فى الإنسان من كونها مذمومة أو محمودة على المقصد من ورائها أو الهدف منها ، فليس هناك صفة مذمومة على الإطلاق أو محمودة على الإطلاق ، وإن كانت الصفات المذمومة لها الغلبة والقوة فى ظاهرها عند سماعها على المعنى المضاد لها ..

ونتيجة لذلك فإنه ليس هناك الصفة المطلقة فى أى معنى من حيث المذموم والمحمود وإنما المقصد هو رمانة الميزان للحكم على الصفة والموصوف بها ، فهو الأولى والأوجب ، ولهذا تتحول بعض الصفات المذمومة فى العموم إلى صفات محمودة فى الخصوص فيقع الاشتراك فى اللفظ ويتغير المعنى والمصرف وهو ما فطن إليه أهل الله فى بحور المعانى ..

فالحرص أو البخل مذموم ، غير أنه إذا حرصنا فى طلب العلم والتقرب به إلى الله كان محمودا وهو بإطلاق اللفظ مذموم فإنه ما يستعمل مطلقا إلا فى مذموم ، فإذا أريد به الحمد قيد فقيل حريص على الخير ، وهكذا الحسد يتعوذ منه مطلقا من غير تقييد، فإنه بالإطلاق للذم ويستعمل فى المحمود بالتقييد ..

فلهذا جعل الله لأولياء هذه الأمة النظر فى مثل هذا ، فحصلوا حظوظهم من أسماء الذم فى الإطلاق حتى لا يفوتهم شىء إذا كانوا الجامعين للمقامات كلها فلهم فى كل أمر شرب ، وكما قال الشيخ الأكبر ابن عربى :

إذا جاء نعت أى نعت فرضته **لنا فيه حظ وافر ثم مشرب**
سواء يكون النعت فى ذم حاله **وفى حمدها فالكل للقوم مطلب**
ألست ترى أوصافه فى نعوتنا **وأوصافنا نعت له لا يكذب**
له فرح فى حاله وتبشش **إلى ملل قد جاءنا وتعجب**
وهزؤ نسيانه له وتردد **ومكر وكيد كل ذاك مرتب** (□)

ساحرون :

ومن أهل الله الأولياء الساحرون ، فالسحر بالإطلاق صفة مذمومة ، وحظ الأولياء منها ما أطلعهم الله عليه من علم الحروف وهو علم الأولياء ، فيتعلمون ما أودع الله فى الحروف والأسماء من الخواص العجيبة التى تنفعل عنها الأشياء لهم فى عالم الحقيقة ، فهو وإن كان مذموما فى الإطلاق فهو محمود بالتقييد ، وهو من باب الكرامات وخرق العادات ، ولا يسمون سحره من أنهم يشاهد منهم خرق العادات ، وسمى ذلك فى حقهم كرامة وهو عين السحر عند العلماء ..

(□)فتوحات ابن عربى : مرجع سابق .

فقد كان ســحرة موســى ما زال عنهم علم الســحر مع كونهم آمنوا ب﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾ [الأعراف: 122] ودخلوا فى دين الله ، وآثروا الآخرة على الدنيا ، ورضــوا بعذاب الله على يد فرعون مع كونهم يعلمون الســحر ، ويســمى عندنا علم الســيمياء ، المشتق من السمة أى العلامة أى علم العلامات ..

وحاسدون :

ومنهم الحاسدون ، حيث قال رسول الله ﷺ : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله علما فهو يبثه فى الناس ، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه فى سبيل البر وفى رواية أخرى على هلكته فى الحق » ، فقام أهل النفوس الأبية التى تأبى الرذائل وتحب الفضــائل وجماع الخير فقالوا : لا ينبغى الحســد إلا فى معالى الأمور ، وأعلى الأمور ما تعرف إلا بأربابها ورب الأرباب وذو الصفات العلا والأسماء الحسنى هو الله ، فيقال : نتشبه به فى التخلق بأسمائه ففعلوا وبالغوا واجتهدوا إلى أن صاروا يقولون للشىء كن فيكون وذلك أقصى المراتب التى تمدح الله بها ، فلولا الحسد ما سعى القوم فى تحصيل هذا المقام ..

وظالمون :

ومنهم الظالمون ، والظلم مذموم فى عمومه ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر: 32] ، والمصــطفى هو الولى ، ثم قال فى المصــطفين : ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ [فاطر:32] ، فبدلا من أن يكون لعينه عليه حق وجسده عليه حق فقد ســهر الليل وأجهد نفســه وجوارحه وأعضــائه ولم يعطهم حقهم ومنعها هذا الحق، ولكن هذا الظلم للنفس والجوارح والأعضــاء فى الدنيا كان من أجل هذه النفس فى الآخرة ولكنه فى العموم ظلم ، وبادر إلى الجد والاجتهاد وأخذ بالعزائم واجتنب الميل إلى الرخص ، وهذا كله حق لها ..

وساهون :

ومنهم الساهون وهم : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون: 5] ، بصلاة الله بهم ، فهم يرون أن نواصيهم بيد الله يقيمهم فيها ويركع بهم ويسجد بهم ويقرأ بهم ويكبر بهم ويسلم بهم لأنه سمعهم وبصرهم ولسانهم ويدهم ورجلهم كما ورد فى الخبر ، ومن كان هذا حاله ومشهده فهو عن صلاته ساه ، فهو لم يقل عن الصلاة فإنه ليس بساه عن الصلاة ولكن سهوهم عن إضافة الصلاة إليهم ،

فلهذا اعتبروا قوله ﴿عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴾ ، والويل الذى لهم إنما هو بالنظر لمن جمع فى نظره بين صلاته وصلاة الله به فإنه الأكمل ..

وهمازون :

ومنهم الهمازون اللمازون ، وهم العيابون وأولياء الله يطلعون كل شخص على عيوب النفس إذ كان لا يشعر كل أحد بذلك ، فإذا أخذ العارف يصف كل عيوب النفس فى حق كل طائفة من أصحاب المراتب كالرئيس والوزراء وما يتعلق بمراتبهم من العيوب وعيوب نفوس الزهاد والصالحين والعوام فتعرف كل طائفة عيوبها بعد ما كان مستورا عنها فهذا حظهم من الهمز واللمز ..

الناقضون للعهد :

ومنهم الناقضون للعهد الخارجون عن الصفات التى تحول بينهم وبين سعادة القربة إلى الله ، فهم ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ [البقرة: 27] ، وذلك أنهم يعهدون مع الله أن يطيعوه ، فإذا حصلوا فى مقام التقريب والكشف رأوا أن الله هو العامل بهم ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الصافات: 96] ،

فرأوا أنهم لا حول لهم ولا فعل ولا قول ، فنقضوا عهد الله برده إليه سبحانه لأنه هو الفاعل لما فعل ، فلم يقم العهد فى نفس الأمر إلا من الله بين الله وبين نفسه ، فعلموا أن الحجاب أعماهم عن هذا الإدراك لحظة أخذ العهد ، وإنما العهد يلزم أهل الحجاب ..

ومراؤون :

ومنهم المراؤون الذين يراؤون الناس ، وهم الذين يفعلون الفعل ليقتدى بهم فيهم علماء هذه الأمة ، يعلمون الناس بالفعل يقصدون تعليمهم إذ كان الفعل أتم عند الرائى من القول كما قال الرسول ﷺ « **صلوا كما رأيتمونى أصلى** » مع كونه وصف الصلاة لهم ، ومع هذا كله صلى على المنبر ليراه الناس فيقتدوا به ، وهذا حظ الأولياء من الرياء فى الأعمال المقربة إلى الله ..

وهكذا من الصفات الكثيرة التى يمكن أن تكون مذمومة على الإطلاق فى العموم ، غير أنها محمودة فى الخصوص وعلى وجه القصد منها ، وما كان حظ الأولياء من هذه الصفات التى وإن كانت مذمومة عموما فهى محمودة خصوصا ، ولكن ليس للعامة الذين لا يعرفون المقصد غير المباشر للصفة ، وإنما لأهل الله وأهل الكشف من رجال الله الذين من عليهم بنعمة المعرفة والعلم فرأوا ما لا يراه الناظرون وسبحوا فى بحور رب العالمين ، فالذم مطلقا عند العامة مقيدا عند الخاصة ..



﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾

لقد برأ الله مريم بنطق طفلها فى المهد فهو روح الله وكلمته الى مريم فقال مخبرا عن حقه فى حاله أثناء هذا المهد وعلى مرأى ومسمع من الذين افتروا على أمه مريم فبرأها الله بنطقه وبحنين جذع النخلة إليه فهما شاهدين عدلين ..

فقال : ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: 30] فحكم على نفسه بالعبودية لله وما قال: إنه ابن فلان ، لأنه لم يكن كذلك ، بل هو تجلى فى صورة روح جبريل ، وبلفظ « كن » رغم ما يتعارض ذلك مع نواميس الطبيعة المعتادة لدى البشر ..

﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [مريم: 30] أى أعطاه إنجيله حتى قبل بعثته فكان عيسى على بينه من ربه فأوضح أنه حامل للكتاب الإلهى ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: 30] ..

فحكم بأن النبوة وهبية من الله بالجعل لأن الله يقول ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: 8] ، فهو بصورة كن أو الجعل انطلاقا من اختصاص إلهى ، ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ أى خصه بزيادة لم تتوفر لغيره ..

وقد اختلف العلماء وأهل الله فى مدة حمل عيسى ، قال ابن عباس أنها كانت تسعة أ شهر كما فى سائر النساء بدليل أن الله تعالى ذكر مدائحها فى هذا الموضوع، فلو كانت عادتها فى مدة حملها بخلاف النساء لكان أولى بالذكر ..

وقيل عن البعض أنها كانت ثمانية أشهر، ولم يعش مولود وضع لثمانية أشهر إلا عيسى ابن مريم ، وقيل: سبعة أشهر وهو قول عطاء وأبى العالية والضحاك ، وقيل: ثلاث ساعات حملته فى ساعة وصور فى ساعة ووضعته فى ساعة ..

وأصحاب هذا الرأى الأخير أى ساعة بعد ساعة يستدلون فى قولهم ذلك على وجهين الأول : قوله تعالى : ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ ، فأجاءها المخاض ، فناداها من تحتها والفاء للتعقيب ، فدلت هذه الفاءات على أن كل واحد من هذه الأحوال حصل عقيب الآخر من غير فصل ، وذلك يوجب كون مدة الحمل ساعة واحدة ، والوجه الثانى قول الله فى وصف عيسى ، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:59] فثبت أن عيسى كما قال الله تعالى له : كن فيكون هذا مما لا يتصور فيه مدة الحمل ، حيث أن تحديد مدة الحمل توجب في حق من يتولد من نطفة .

وعلق البيضاوى على ولادة المسيح المعجزة ، فقال : تلك ميزة تفرد بها المسيح على العالمين والمرسلين ، لأنه ولد من دون أن تضمه الأصلاب والأرحام الطوامس ، وعلق الفخر الرازى على المو ضوع بقوله : لأهب لك غلاما زكيا ، أن الزكى يفيد أنه الطهر من الذنوب وأنه ينمو على التزكية والنزاهة والطهارة ..

قال ابن عباس : إن روح القدس ، هو الاسـم الذى كان يحيى به موسـى الموتى ، وقال أبو مسـلم ، أن روح القدس الذى أيد به يجوز أن يكون الروح الطاهرة التى نفخها الله فيه وأبانه بها عن غيره ممن خلق من اجتماع نطفتى الذكر والأنثى ..

***

عيسى يحشر حشران :

ويرى أهل الله أن هذه الزيادة هى ختمه للولاية ونزوله فى آخر الزمان وحكمه بشـرع محمد ﷺ حتى يكون يوم القيامة ممن يرى ربه الرؤية المحمدية فى الصورة المحمدية ..

فإن عيسى بهذه الصورة له حشران ، يحشر فى صف الرسل عليهم السلام متبوع لا تابع ويحشر معنا فى أتباع أمة محمد ﷺ ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [مريم: 31]

المفروضة فى أمة محمد ﷺ أن أقيمها فهى جاءت بالألف واللام ومنه ﴿وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾ أيضـــا كذلك ﴿مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴾ ، خلال زمن التكليف ولا تكليف فى الآخرة وإنما التكليف فى الدنيا فقط ..

وقال ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي ﴾ ، التى كانت محل تشـكيله وتكوينه ، ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ ﴾ ، وهنا سلم عيسى على نفسه على غير ابن خالته يحيى الذى قال الله فى حقه : ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ ، لعلم عيسى بمرتبته عند ربه ، ﴿يَوۡمَ وُلِدتُّ ﴾ يعنى الســلامة فى مولده من تأثير ما يســمى بالعبد المطرود الموكل بالأطفال وقت الولادة والذى يجعل المولود يصرخ بضربه ، فلم يصرخ عيسى وقت ولادته كعادة المواليد ، بل وقع ساجدا لله تعالى ..

وقال ﴿وَيَوۡمَ أَمُوتُ ﴾ ، وهذا رد على من افترى عليه بأنه قتل فإنه لم يقل أقتل ، ﴿وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ ، أى خلال القيامة الكبرى ، فكان أتم الصــلة بربه من إبن خالته يحيى، لأن عيسى كما ذكرت سلم على نفسه بسلام ربه ..

ولأنه سلم على نفسه بسلام ربه ، كانت فتنة لقومه وأتباعه أنه إله فوقعوا فى المحظور، لأن الأمر اختلط عليهم ، لأن إبن خالته يحيى سلم عليه ربه تعالى ولم ينص على أنه عرف بذلك السلام عليه ففي حال يحي قال الله : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ ، وفي عيسى ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ ﴾ ..

عيسى أفضل الأمة المحمدية :

كان من شرف الرسول ﷺ أيضا أن ختم الأولياء من أمته نبى ورسول هو عيسى ابن مريم عليه السلام وهو أفضل هذه الأمة المحمدية ، وقد نبه عنه الترمزى الحكيم ، كما ذكرنا من قبل ، فى كتاب ختم الأولياء له وشهد له بالفضيلة على أبي بكر الصديق وغيره ..

عيسى جمع بين الولاية والنبوة :

فإنه (أى عيسى) وإن كان وليا فى هذه الأمة والملة المحمدية فهو نبى ورسول فى نفس الأمر ، فله يوم القيامة حشران : يحشر فى جماعة الأنبياء والرسل بلواء النبوة والرسالة وأصحابه التابعين له فيكون متبوعا كسائر الأنبياء والرسل ..

ويحشر مع أمة محمد ﷺ وليا فى جماعة أولياء هذه الأمة تحت لواء محمد ﷺ تابعا له مقدما على جميع الأولياء من عهد آدم إلى آخر ولى يكون فى العالم ، فجمع الله له بين الولاية والنبوة ظاهرا ..

ولهذا دعا مو سى عليه الـ سلام أن ينال مرتبة عي سى ، بأن قال: اللهم اجعلنى من أمة محمد ﷺ ، يقصد بذلك أن يكون من أمة محمد باطنا وظاهرا مثلما الأمر لعيسى ، لأن موســى عليه الســلام من أمة محمد ﷺ باطنا فكان يطلب الظاهر مع الباطن ، لأن جميع الأنبياء والمرسلين الذين سبقوا ظهور محمد ﷺ هم نواب له فى الباطن « **كنت نبيا وآدم بين الماء والطين** » ، فهو ﷺ ســيد النبيين ، وقوله ﷺ : لو أن موســى حيا ما وســعه أن اتبعنى ، وفى حديث آخر : ليتمنين اثنا عشر نبيا أن يكونوا من أمة محمد ﷺ ..

وما فى الرسل يوم القيامة من يتبعه رسول إلا محمد ﷺ ، فإنه يحشر يوم القيامة فى أتباعه عيســى وإلياس عليهما الســلام ، وإن كان كل من فى الموقف من آدم فمن دونه تحت لوائه ﷺ فهذا لواؤه العام ،شريعتين لعين واحدة وإن شئت القول : شريعة واحدة ..

والحقيقة أن مســألة نطق الصــبية أو الصــغار فى مهدهم كما فعل عيســى وابن خالته يحيى ، ليس بالأمر الفريد ، فقد حدث ذلك من أطفال ، وهذا موضــع اســتغراب الناس من حدوثه ، فليس الصــبى فى العادة بمحل للنطق و قد وردت أمثلة كثيرة عن أطفال نطقوا فى المهد فى فترات الر ضاعة، فهناك من رد على أمه ، وهو فى بطنها عندما عط ست فقال لها وهو فى بطنها يرحمك الله بكلام سمعه الحاضرون وغيره ..

ونقل عن الشـيخ الأكبر محيى الدين بن عربى قوله أن ابنته زينب تكلمت أثناء الرضاعة فى رد على حكم شرعى بشأن أحد الأمور ولكن المقام لا يتسع لذكر ذلك فهى مسألة معروفة للبعض ..

غير أن الوضـع الأهم فى حال عيسـى وابن خالته يحيى قد زادا عن مجرد الكلام والنطق ، إلى معرفتهما بأنهما على علم بما نطقا به ، أى كان لديهما ما يسمى بعلم الذوق، لأن مثل هذا لا يصح أن يكون إلا ذوقا وأن الله أتاه الحكم صبيا ، أى حكم النبوة التى لا تكون إلا ذوقا ..

البراءة لمريم

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾[آل عمران: 59] ، لقد أوجد الله حواء عن آدم ، ثم أوجد عيسـى عن مريم فتنزلت مريم منزلة آدم وتنزل عيسـى منزله حواء ، فكما وجدت أنثى من ذكر وجد ذكر من أنثى ..

فختم بمثل ما بدأ فى إيجاد ابن من غير أب كما كانت حواء من غير أم ، فكان عيسـى وحواء أخوين وكان آدم ومريم أبوين لهما ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ [آل عمران:59]

فأوقع التشـبيه فى عدم الأبوه الذكرانية من أجل نصـبه دليلا لعيسـى فى براءة أمه ولم يوقع التشبيه بحواء ،

وإن الأمر عليه لكون المرأة محل التهمة لوجود الحمل إذا كانت محلا موضـوعا للولادة وليس الرجل بمحل لذلك ..

والمقصود بالأدلة ارتفاع الشكوك ، وفى حواء من آدم لا يقع الالتباس لكون آدم ليس محلا لما صـدر عنه من الولادة ، وكما لم يعهد ابن من غير أب كظهور حواء من آدم من غير أم وهو الأب الثانى ، كان ظهور عيسى من أم من غير أب ، ولما انفصلت حواء من آدم عمر موضعها منه بالشهوة النكحية إليها التى وقع بالغشيان ظهور التناسل والتوالد ، فبقى ذلك سنة جارية ..

ختم الأولياء :

إن من كرامة محمد ﷺ عند ربه أن جعل من أمته ر سلا ، ثم إنه اختص من الر سل ، من بعدت نسبته إلى البشر ، فكان نصفه بشرا ونصفه الآخر روحا مطهرة ملكا لأن جبريل وهبه لمريم ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: 17] رفعه الله إليه ثم ينزل وليا خاتم الأولياء فى آخر الزمان يحكم بشرع محمد ﷺ فى أمته ..

فإذا نزل وليا فإن ختم الأولياء يكون ختما لولاية عيســى من حيث ما هو من هذه الأمة حاكما بشــرع غيره ، كما أن محمدا ﷺ خاتم الأنبياء وإن نزل بعده عيســى كذلك حكم عيسى فى ولايته بتقدمه بالزمان خاتم خاتم ولاية الأولياء وعيسى منهم ..

ماء المرأة:

وهناك لطيفة تأويلية أردت أن أســوقها فيما يتعلق بطريقة خلق عيســى عليه الســلام نقلا عن الشــيخ الأكبر محيى الدين بن عربى[1] ، فى معرض تأوليه لقول الله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: 17] ، يقول: لما أراد الله خلق عيســى، وذهب لها الرسول فسرت اللذة بالنظر إليه، فاستعاذت منه، وعرفها بنفسه أنه رسول الحق ليهب لها غلاما زكيا فتأهبت لقبول الولد فســرت فيها لذة النكاح بمجرد النظر فنزل الماء منها إلى الرحم فتكون جســم عيســى من ذلك الماء المتولد عن النفخ الموجب للذة فيها فهو من ماء أمه، وينكر ذلك علماء الطبيعة ويقولون: إنه لا يتكون من ماء المرأة شــىء ، وذلك غير صحيح – والكلام لا يزال لإبن عربى – ،

[1] الفتوحات المكية : محيى الدين ابن عربى – المجد الثانى – ص 676.

وهو عندنا أن الإنسان يتكون من ماء الرجل ومن ماء المرأة ، وقد ثبت عن النبى ﷺ الذى لاينطق عن الهوى أنه قال : «إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرا (بتشديد الذال) وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثا » (بتشديد النون) ، وفى رواية أخرى : سبق بدل علا ، فقد جاء بالضمير المثنى فى أذكرا وأنثا .. إن المرأة والرجل إذا لم يسبق أحدهما صاحبه فى إنزال الماء وأنزلا معا بحيث أن يختلطا ولا يعلو أحد المائين على الآخر فإنه من أجل تلك الحالة إذا وقعت على تلك الصـورة يخلق الله الخنثى فيجمع بين الذكورة والأنوثة ، فسـبحان القدير الخلاق العليم » ..



أرض الله وأرض البدن

هناك نوعان من الأرض ، الأرض التى نعرفها ، وهى أرض الله ، ولأنها منسوبة إلى الله فهى أرض طهور وترابها من طهور وخلق الإنسان من طينتها ، وإليها يعود مرة أخرى بعد الموت ، فهى أصله ، ثم لأنها طهور ومنسوبه إلى الله فهو سبحانه وتعالى يورثها لعباده الصالحين وحاشى أن يورث سبحانه غير طهور ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾[الأنبياء:105]..

وقال عبادى مثل أرضى، ولم يقل عباد كما لم يقل حتى عباد الله ، وهو أقوى فى مستوى الانتساب عن اللفظين السابقين ، وما ينسبه لنفسه سبحانه وتعالى ما هو إلا كل طيب وطاهر .

أرض الله :

ولأنها أرض الله « أرضى » فهى عابدة ذاكرة حامدة جبلت على الطاعة ، ولأنها كذلك فهى لا تحب أن ترتكب المعاصى والمخالفات من الإنسان فى حق الله عليها وتلعن عصاة الله عليها ، هى تحن على عباد الله المؤمنين الصالحين وتدعو لهم ، فإذا مات الصنف الأول من العصاة أكلته وحللت جسده إلى تراب ، وإذا مات المؤمن الصالح أبت على نفسها أن تأكل جسده الشريف وبقى دون تحلل ، وهذا ما يفسر بقاء أجساد الرسل والأنبياء والأولياء والصالحين دون تحلل بعد الموت ..

ولأن الأرض من الدنيا فإن الدنيا تفرح عندما يعمل المسلم أو المؤمن عملا صالحا وتعامل الإنس على أنهم أولادها التى تعمل من أجلهم وترعاهم وتخرج لهم المأكل والمشرب ، وتحزن إذا عمل الإنسان عملا يغضب الله ، وصدق الرسول ﷺ إذ يقول : **« نعم الدنيا مطية المؤمن »** ..

والدنيا هى بالنسبة إلى العباد كالأم الحنون تفرح لهم وتحزن عليهم ، ومن عظم حنانها إذا سبها إبن آدم لا تقابل سبه لها بسب مماثل ، فإذا لعن ابن آدم الدنيا ، فإنها لا تلعنه مثل ما لعنها ، بل تقول : لعن الله أعصانا إلى الله ، كما أنها ليست كضرتها الآخرة ، فالدنيا كالأم التى تربى وتتحمل الأذى والنكران والسب وينسب لها كل ما هو سيئ ، وتأتى الآخرة تأخذ أبناء الدنيا على الجاهز دون تعب أو أذى أو نكران من الابن العاق الذى يسب أمه ، وهى من كل ما يفعله بريئة ..

ولأنها طهور أيضا فقد جُعلت الأرض مسجدا فهى مسجد الله ، كقول الرسول ﷺ وهى من الأمور الستة التى حازها محمد دون غيره من الرسل **« جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا »** فأينما حلت الصلاة على أى من أمة محمد ﷺ أقام الصلاة ، فى وقتها ..

الأرض المسجد الكبير:

ولأنها مســجد الله الكبير للمؤمن ، وأن المؤمن جليس الحق فى مســجده ، فإن أمة محمد ﷺ جلســاء الله على هذه الأرض « المؤمن جليس الله » ، فأينما حل المؤمن فى هذه الأرض فهو جليس الله ، و بالتالى فيتعين على هذا المؤمن أن يكون على طهارة ووضــوء ظاهرا وباطنا حينما وأينما خرج من بيته إلى هذه الأرض التى هى أرض الله ، لأنه فى معية الله ، فأينما حلت الصلاة صلى وهو على طهور ..

بل ينبغى أن يكون المؤمن المدرك لهذه الحقيقة أن يتحلى بالثياب الحســن النظيف من القذارة وأن يكون على طهارة لأنه خارج إلى المســجد الكبير عملا بقوله تعالى : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ [الأعراف:31] ، وكان أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يتحلى بأحسن الثياب ويتطيب عند كل خروج من البيت ،وكذلك أولياء الله من العارفين من أهل الله المدركين لبحور المعانى الإلهية ودرر آياته القرآنية ، وليس أدل على ذلك فى زماننا هذا من الصورة التى نرى عليها العارف بالله الشيخ صالح أحمد الشافعى أبو خليل شيخ المدرسة الصوفية الخليلية من حسن الهندام والثياب ..

روى ذات مرة أن أحد المتصــوفة وكان يرتدى ثيابا رثة مرقعة أمســك يوما بثياب أبو الحسن الشاذلى الذى كان حسن الهندام والمظهر والزينة ، وقال له : ما هكذا يعبد (بضم الياء) الله يا مولانا ؟؟؟ ..

فأمســـك أبو الحســـن الثياب الرثة التى كان يرتديها الرجل فقير المظهر وقال : وما هكذا يعبد الله يا أخى ؟؟؟ ..

وم ضى أبو الحـ سن يقول : ثيابى يقول: أنا غنى عنكم فلا تعطونى ، وثيابك يقول أنا فقير إليكم فإعطونى .. فهذه شيمة أهل الله من أهل الكشف الذين يعبدون الله على بصيرة لا يأخذون بظاهر الأمر دون باطنه ، ولا يرتدون ما يشير أو يظهر حالهم أمام الناس (□).

أرض البدن :

وهناك صــنف آخر من الأراضــين هو أرض بدن الإنســان ، فمثلما هناك العالم الكبير الذى حوى السماوات والأرض وما فيهما ، لأن السماء من الدنيا ، فهناك العالم الصغير الذى هو الإنسان ..

فقد خلق الله بدنك وجعله أر ضا لك ف سميت بأرض بدنك ، ومثلما جعل الكعبة فى الأرض التى هى أرض الله جعل فى أرض بدنك كعبة أخرى فى بدنك هى قلبك ،

(□)قضية التصوف عند المدرسة الشاذلية : د. عبد الحليم محمود .

وجعل هذا البيت القلبى فى المؤمن أشـرف البيوت بل وأوسـع من الأرض الحقيقية ..

فقد أخبر الحق أن السـماوات وفيها البيت المعمور والأرض وفيها الكعبة المشـرفة أى البيت الحرام ما وسعته وضاقت به عنه ووسعه هذا البيت القلبى من النشأة الإنسانية المؤمنة « ما وسعتنى أرضى ولا سمائى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن » ، والمراد هنا بالسعة العلم بالله سبحانه وتعالى ..

فهذا يدلك على أن أرض بدنك هى الأرض الواسـعة وأنها أرض عبادتك ، فتعبده كأنك تراه من حيث بصـرك لأن قلبك محجوب أن يدركه بصـرك فإنه فى الباطن منك ، فتعبد الله كأنك تراه فى ذاتك كما يليق بجلاله وعين بصيرتك تشهده فإنه ظاهر لها ظهور علم ومعرفة ، فتراه بعين بصيرتك وكأنك تراه من حيث بصرك فتجمع بين عبادتين :

بين ما يسـتحقه تعالى من العبادة فى الخيال وبين ما يسـتحقه من العبادة فى غير موطن الخيال فتعبده مطلقا ومقيدا انطلاقا من هذه النشأة الإنسانية ..

وإذا نظر الإنسـان إلى نشـأته البدنية ، قامت معه الأرض التى خلق منها وجعل فيها غذاؤه وصلاح نشأته ..

من لم يعبده فى أرض بدنه لم يعبد :

إن أرض بدنك هى الأرض الحقيقية الواسعة التى أمرك الحق أن تعبده فيها وذلك لأنه ما أمرك أن تعبده فى أر ضه إلا مادام روحك يسكن أرض بدنك ، فإذا فارقها أ سقط عنك التكليف مع وجود بدنك فى الأرض مدفونا فيها فتعلم أن الأرض ليست سوى بدنك ، وجعلها وا سعة لما و سعته من القوى والمعانى التى لا توجد إلا فى هذه الأرض البدنية الإنسانية ..

أما قوله : ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء: 97] فكلمة تهاجروا فيها لأنها محل للهوى ومحل للعقل فتهاجروا من أرض الهوى فيها إلى أرض العقل فيها ، وأنت فى هذا كله فيها ما خرجت عنها ..

فقد قال ر سول الله ﷺ « **لا هجرة بعد الفتح** » فهى هجرة سياحة وخروج من أمر إلى أمر آخر عن أمر إلهى فهى سياحة داخلية ، فإن استعملك الهوى أرداك وهلكت وإن استعملك العقل الذى بيده سراج الشرع نجوت وأنجاك الله به ..

ومن لم يعبد الله فى أرض بدنه الواسعة فما عبد الله فى أرضه التى خلق فيها فإن الله يقول ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ [السجدة: 7 ، 8]

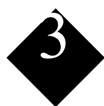
وهو الماء الذى نبع من هذه الأرض البدنية واستقر فى رحم المرأة ..

وجعل الشرع لهذا العقل فى الأرض البدنية سراجا فأضاء زوايا هذه الأرض، فأعطى من العلم بها مما فيها ما لم يعطه نور العقل الذى هو بمنزلة القمر ، فخلق أرواحنا من أرض أبداننا فى الدنيا لعبادته وأسكننا أرض أبداننا فى الآخرة لمشاهدته إن كنا سعداء ..

كما آمنا به فى النشــأة الأولى لما اعتنى الله بنا والموت بين النشــأتين ما هو إلا حالة برزخية تعمر الأرواح فيها أجسادا برزخية مثل إعمارها فى النوم وهى أجساد متولدة من هذه الأجسام الترابية ..



فلسفة التذوق الصوفي
بين
علماء الرسوم وعلماء الحقيقة



الباب الثالث

التكليف من الرب والعبد

الفصل الأول النهي والأمر في حق آدم وإبليس

العالم الكبير كله عاقل حى ناطق وإلا ما خاطبه الحق عندما قال فى حق السـماوات والأرض ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: 11] ، وكذلك قال ﴿فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا﴾ [الأحزاب: 72] ، وذلك لما كان منه سـبحانه وتعالى عرضـا لا أمرا وأما لو كان أمرا لأطاعوا وحملوها ، فإنه لا تتصـور منهم معصـية لأنهم جبلوا على الطاعة ، على غير الجن والإنس فى هذه المسألة .

إن أصـحاب الأفكار من أهل النظر والأدلة المقصـورة على الحواس يقولون أن من البديهيات أن المكلف لا بد أن يكون عاقلا بحيث يفهم ما يخاطب وصـدقوا فيما يذهبون إليه ، وكذلك هو الأمر عند أهل الله ، العالم كله عاقل حى ناطق من جهة الكشف بخرق العادة التى عليها الناس ، حتى وإن قال آخرون هذا جماد لا يعقل ووقفوا عند ما أعطاهم بصرهم ..

غير أن الأمر بالنسـبة للجن والإنس قد اختلف ، فهم المكلفون فى الأرض ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: 31] ، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: 72]

وبالتالى فقد صدر التكليف إليهم وإن كان سيسقط بعد هذه الحياة الدنيا عنهم لأنه لا تكليف فى الآخرة ..

التكليف بين الأمر والنهى:

التكليف يتمثل فى حالين نهى أو أمر أوكليهما معا ، وهذا ما حدث بالنسبة لآدم عليه السلام ، وإبليس .. فقد قال الله تعالى لإبليس أسجد لآدم ، وقال لآدم وحواء : ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف :19] ، إذن التكليف مقسم بين أمر ونهى وهما محمولان على الوجوب والتنفيذ ، وهذا أول أمر ونهى ظهر فى العالم الطبيعى ، لذلك وقعت العقوبة عند المخالفة ولم يمهلوا ..

ولهذا كان إبليس أول الأشقياء من الجن مثلما كان قابيل الذى قتل أخاه هابيل أول الأشقياء من الإنس ..

نعود إلى التكليف ، بالقول أن التكليف بالنهى لآدم والأمر لإبليس ، هو على غير الأوامر والنواهى التى تأتى من خلال الوسائط ، أى من خلال ملك أو رسول ، فيكون فعله وأثره ليس بالقوة مثل القادم مباشرة من الحق الى صاحب التكليف أى المكلف بفتح الكاف لذلك لا تقع العقوبة معجلة كالسابق ،

فإما إمهال للآخرة وإما غفران ، ولذلك كان إرســال الرســل والأنبياء منذرين ومحذرين هو من قبيل رحمة الله بعباده لأنه لو صدر الأمر المبا شر لعوقب من يعصى فى الحال ..

كما أن الله خص آدم وحواء بالنهى، والنهى ليس بتكليف عملى ويتضمن أمرا عدميا، وهو لا تفعل ، وهذا عمل ســهل وهين يمكن تنفيذه وفعله ، فكأنه قيل له: لا تفارق أصلك ، فلم يكلفه شىء خارج عن طبيعته يصعب عليه فعله بل مجرد نهى ..

غير أن الأمر ليس كذلك وهو أن يفعل ، فكأنه قيل له : اخرج عن أصــلك ، فالأمر أشق على النفس من النهى ، فلو أن إبليس عندما عصى ولم يسجد لم يقل ما قال من التكبر والأفضــلية التى ينســبها إلى نفســه على غيره فخرج عن عبوديته ما حلت به نتيجة لذلك عقوبة الله ..

نزول آدم وهبوط إبليس :

في حين كانت العقوبة لآدم وحواء « لم تتضــمن الخروج عن أصــلهما وهو الترك ، فبالرغم من أن الله شــرك بين إبليس وآدم وحواء فى ضــمير واحد وهو الهبوط ، إلا أن العقوبة على إبليس كانت أشــد ،فقيل لهم : اهبطوا بضــمير الجماعة .. ولم يكن الهبوط عقوبة لآدم وحواء وإنما كان عقوبة لإبليس ..

لأن هبوط آدم كان هبوطا لـ صدق الوعد بأن يجعل الله فى الأرض خليفة ، بعدما تاب عليه واجتباه وتلقى الكلمات من ربه بالاعتراف ، فاعترف ..

فى حين قال إبليس ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: 12] .. فعرفنا الحق بمقام الاعتراف فى الذنب عند الله وما ينتجه من السعادة لصاحبه لنتخذه طريقا وسبيلا فى التعامل مع مخالفاتنا ..

نقل عن على رضى الله عنه قوله: يارسول الله أخبرنى عن قول الله تعالى : ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: 37] ، ما هؤلاء الكلمات ؟؟ فقال النبى ﷺ : **«إن الله تعالى أهبط آدم عليه السلام بأرض الهند ،وحواء بجدة ،والحية بأبهان وإبليس ببيسان، ولم يكن فى الجنة أحسن من الحية والطاووس، وكان للحية قوائم كقوائم البعير فلما دخل إبليس لعنه الله جوفها أغوى آدم عليه السلام وخدعه فغضب الله تعالى على الحية فألقى عنها قوائمها وقال : جعلت رزقك من التراب وجعلتك تمشين على بطنك لا رحم الله من رحمك ..**

وغضب الله عز وجل على الطاووس فمسح رجليه لأنه كان دليلا لإبليس على الشجرة ،فمكث آدم عليه السلام مائة عام لا يرفع رأسه إلى السلام ، يبكى على خطيئته وقد جلس جلسة الحزين، فبعث الله جبريل عليه السلام فقال : السلام عليك يا آدم الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك : ألم أخلقك بيدى وأنفخ فيك من روحى ؟؟ ألم أسجد لك ملائكتى ؟؟ ألم أزوجك حواء أمتى ؟؟ ما هذا البكاء ؟؟ ..

قال : يا جبريل وما يمنعنى من البكاء وقد أخرجت من جوار ربى ؟؟ قال له جبريل عليه السلام : يا آدم تكلم بهؤلاء الكلمات فإن الله تعالى غافر ذنبك وقابل توبتك ، قال : فما هن ؟؟ قال : قل اللهم إنى أسألك بحق محمد وآل محمد ، سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسى، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، وإرحمنى وأنت خير الراحمين ، سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا ،وظلمت نفسى فتب على، إنك أنت التواب الرحيم ، سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسى فاغفر لى وأنت خير الغافرين ، فهؤلاء الكلمات ..

وعرفنا أيضا بدعوى إبليس ومقالته واستكباره وخطورته لنحذر منها عند مخالفاتنا ، وأهبط حواء للتناسل ،وأهبط إبليس للإغواء ،

فكان هبوط آدم وحواء هبوط كرامه وكان هبوط إبليس هبوط إذلال وخزلان وعقوبة ، فإن معصيته كانت لا تقتضى الشقاء فإنه لم يشرك بل افتخر بما خلقه الله عليه ، فأنزله الله إلى الأرض ليسن بذلك الشرك بالوسوسة فى قلوب العباد ..

وإبليس مع ذلك أحسن حالا من جليس إبليس من العباد ، لأنه (أى إبليس) لا يطيع جليســه فى الكفر عندما يكفر ويقول : ﴿قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الحشر:16] ..

مازال سجود الملاكة لبنى آدم :

وكما سجدوا لأبيهم آدم ، ما زال سجود الملائكة لبنى آدم فى كل صلاة ، فمازالت الخلافة فى بنى آدم ما بقى فيهم مصل يقول الله الله ، فإن الأمر الإلهى والشأن إذا وقع فى الدنيا لم يرتفع حكمه إلى يوم القيامة ، وقد وقع السجود لآدم من الملائكة فبقى سجودهم لذريته خلف كل من يصلى إلى يوم القيامة ، كما نسى آدم فنسيت ذريته ، ، كما جحد آدم فجحدت ذريته ، كما قتل قابيل هابيل ، ظلما فمازال القتل ظلما فى بنى آدم إلى يوم القيامة ، وعلى الأول كفل من ذلك ، كما للأول فى الخير نصيب من كل من فعله ..

فمن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فله وزر ها ووزر من عمل بها إلى يوم القيا مة وهم ا لذين يحملون ﴿أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾[العنكبوت: 13]، فكل مصل إمام للملائكة ، والملائكة خلفه تسجد له ..

إلا أن الفرق بين الأ صل والفرع أى آدم وذريته، أن الملائكة تسجد لسجود بنى آدم فى القراءة والصلاة ، وآدم سجدوا له سجود المتعلم للمعلم فاجتمعا فى السجود واختلفا فى السبب ، وبالتالى فإن سجود الملائكة خلف بنى آدم لم يرتفع، وأن الإمامة ما ارتفعت من آدم إلى آخر مصل ..



العالم الكبير والعالم الصغير (ولماذا كملت مريم وآسية)

العالم مظهر الحق على الكمال، فليس فى الإمكان أبدع من هذا العالم، ثم إن الله اختصــر من هذا العالم مختصــرا مجموعا يحوى على معانيه كلها سـماه آدم ، وقال: إنه خلقه على صورته ، فالإنسان مجموع العالم وهو العالم الصغير ..

ولا فضل للإنسان على العالم بجملته ، والعالم أفضل من الإنسان لأنه يزيد عليه درجة ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر:57]، والإنســان و جد من العالم الكبير فللعالم الكبير عليه در جة الســببة ؛لأن الإنسان متولد عنه ، قال تعالى : ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة : 228] ..

والعالم الكبير كله عاقل حى ناطق وإلا ما خاطبه الحق عندما قال فى حق الســماوات والأرض ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: 11] ، وكذلك قال: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ﴾ [الأحزاب : 72] ، وذلك لما كان منه سبحانه وتعالى عر ضا لا أمرا وأما لو كان أمرا لأطاعوا وحملوها ، فإنه لا تتـصور منهم مع صية، لأنهم جبلوا على الطاعة ، على غير الجن والإنس فى هذه المسألة (1) ..

(1)فلسفة التصوف الإسلامى : كتاب المؤلف: الناشر مدبولى .

إن أصحاب الأفكار من أهل النظر والأدلة المقصورة على الحواس يقولون: إن من البديهيات أن المكلف لا بد أن يكون عاقلا بحيث يفهم ما يخاطب وصدقوا فيما يذهبون إليه ، وكذلك هو الأمر عند أهل الله ، العالم كله عاقل حى ناطق من جهة الكشف بخرق العادة التى عليها الناس ، حتى وإن قال: آخرون هذا جماد لا يعقل ووقفوا عند ما أعطاهم بصرهم ..

فإذا جاء عن نبى أن حجرا كلمه أو كتف شاة أو جذع نخلة أو بهيمة يقولون خلق الله فيها الحياه والعلم فى ذلك الوقت ، والأمر عند أهل الله ليس كذلك ، بل سر الحياه فى جميع العالم وأن كل من يسمع المؤذن من رطب ويابس يشهد له ولا يشهد إلا من علم وعن علم ، ومن أراد أن يقف على هذا الكشف يسلك طريق الرجال وليلزم الخلوة والذكر فإن الله سيطلعه على هذا كله عينا فيعلم أن الناس فى عماية عن إدراك هذه الحقائق ..

حقائق الأسماء الإلهية وأحكامها :

إن الأسماء الإلهية اجتمعت بحضرة المسمى، ونظرت فى حقائقها ومعانيها ، فطلبت ظهور أحكامها حتى تتميز أعيانها بآثارها فإن الخالق الذى هو المقدر ،

والعالم والمدبر ، والمفصــل والبارئ ، والمصــور والرزاق ، والمحيى ، والمميت ، والوارث والشكور ، وجميع الأسماء الإلهية نظروا فى ذواتهم فلم يروا مخلوقا و لا مدبرا ولا مفصــلا ولا مصــورا و لا مرزوقا ، فقالوا : ما العمل حتى تظهر هذه الأعيان التى تظهر أحكامنا فيها فيظهر سلطاننا ؟؟

فقد أوجد الله العالم ليظهر سلطان الأسماء ، فإن قدرة بلا مقدور ، ووجودا بلا عطاء، ورازقا بلا مرزوق ، ومغيثا بلا مغاث ، ورحيما بلا مرحوم ، حقائق معطلة التأثير وحاشا أن تعطل أسماء الله الإلهية ..

لماذا كملت مريم وآسيا :

ولأن حواء صــدرت من آدم فلم تزل الدرجة تصــحبه عليها فى الذكورة على الأنوثة ، وإن كانت الأم سببا فى وجود الابن فابنها يزيد عليها بدرجة الذكوره لأنه أشبه أباه (آدم) فى جميع الوجوه ، فوجب على الإنسان تعظيم أبويه ..

ولما كان الولد لا يدعى إلا لأبيه لا ينســب إلى أمه لأن الأب له الدرجة وله العلو فينسب إلى الشرف ، ولما لم يتمكن لعيسى عليه السلام أن ينسب إلى من وهبه لها بشرا سويا أعطيت أمه الكمال ، وهو المقام الأ شرف فنـ سب عيـ سى إليها فقيل: عيـ سى ابن مريم فكان لها هذا الشرف بالكمال مقام الدرجة التى شرف بها الرجال على النساء ..

قال رسول الله ﷺ : «**كمل من الرجال كثير ، وكمل من النساء أربع مريم بنت عمران وآسية زوجة فرعون وخديجة زوج رسول الله ﷺ وفاطمة بنت محمد ﷺ** »..

مرتبة الصديقية لمن لا يتعجب:

أمر الله لا يتعجب منه أهل الله ، ولهذا لما بشـــرت مريم بالولد من غير أب لم تتعجب من ذلك ولهذا سماها الله صديقة فقال سبحانه وتعالى : ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾[المائدة :75] ، ولم تتعجب من الأمر مثلما فعلت زوجة إبراهيم : فعندما بشرتها الملائكة بالولد قالت : ﴿ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴾ [هود: 72] ، فقالت الملائكة ﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾أى أمر الله لا يتعجب منه ، وهذا خلاف ما فعلته مريم وهذا فرق فى المراتب والمنازل بين العباد ..

ألا ترى الحديث الوارد عن رســول الله ﷺ أن بقرة فى بنى اســرائيل ركبها رجل وأجهدها فقالت : ســبحان الله ، لم أخلق لهذا ، إنما خلقت للحرث ، فقال الصــحابة : سبحان الله أبقرة تتكلم ؟ ، فقال الر سول ﷺ : «**آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر** »(رواه البخارى) و هما غائبان ، يقول أبو العباس المرســى أى من غير تعجب وأنتم آمنتم متعجبين ، لأجل ذلك قالوا كسبحان الله أبقرة تتكلم !!

ما بين كمال مريم وكمال آسية :

وكمال مريم بنت عمران شهد لها بذلك ر سول الله ﷺ ، ولآ سية امرأة فرعون ، غير أن كمال آسـية فلشـرف المقام الذى ادعاه فرعون فلم يكن ينبغى لذلك المقام أن يكون العرش الذى يـستوى عليه إلا مو صوفا بالكمال فحـصل لآ سية الكمال بـشرف الكمال الذى شقى به فرعون ولحق بالخسران المبين وفازت امرأته بالسعادة ..

ولـشرف مقام الكمال الذى حـصل لها (أى آ سية) قالت : ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: 11] فما أنطقها إلا قوة المقام بعندك، ولم تطلب مجاورة موسى ولا أحدًا من المخلوقين، ولم يكن ينبغى لها ذلك فإن الحال يغلب عليها فإن الكامل (آسية) لا يكون تحت الكامل (موسى) لأن التحتية نزول درجة ..

ولما كان كمال مريم بعيسى فى نسبته إليها لم تقل ما قالت آسية ، آسية تقول : ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: 11] حتى لا تنتهك حرمة النسب ، ومريم تقول : ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: 23] وهى بريئة فى نفس الأمر عند الله فما قالت ذلك من أجل الله كما قالت آســية عندك فقدمته وطلبت جواره والعصــمة من أيدى عداته ، ولكن قالت ذلك مريم حياء من الناس لما علمته من طهارة بيتها وآبائها فخافت من إلحاق العار بهم من أجلها ..

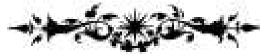
وإن كانت هناك جماعة من أهل الله ترى إلى جانب ذلك – وأنا به أقول – أنا ما قالته مريم عندما جاءها المخاض :﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴾ ينطوى فى معناه الظاهرى فقط على اعتراض على أمر ومشيئة الله فى أن تلد بلا زوج وعلى هذا النحو، وأن هذا التصرف منها على ظاهره أنها تراعى الخلق دون الخالق ، وحاشياأن تقصد مريم ذلك ، تلك العابدة البتول التى نشـأت فى بيت الطهر والعفاف وتولاها الله منذ أن نذرتها أمها وهى فى رحمها أن تكون لله حتى قبل أن تعرف أنها ستكون أنثى ..

ثم أن العبد حينما يصل بتقواه إلى مرتبة العبد الربانى ، يكون الله سمعه وبصره ويده فلا ينطق إلا بالله ، فيفنى بالله عن المعاصى والمخالفات وعن هوى نفسه بل عن الخلق أنفسهم ، فكيف لهذا العبد (مريم) أن يعمل حسابا للناس فيما أمر وشاء رب الناس ..

إن أهل الله من الأكابر لا يعيرون أحدا من الخلق اهتماما بل كل همهم واهتمامهم هو العمل على مرضـاة الله لأنهم فى واقع الأمر ليس لأنفسـهم من الأمر أو فى الأمر شـيئا ولكنهم وما يقولون وما يفعلون مقصدهم به الله ..

فكيف تقصد مريم بقولها الخوف من الناس أو ما سيقوله الناس على ميلاد إبنها دون أب معلوم كالعادة ، إن ذلك يمثل ظاهره اعترا ضا ورفضا وحا شا أن تقصد ذلك ، وهى من هى التى كفلها زكريا والذى كان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا من ثمار الجنة ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ ، والأولى فى قول مريم هذا – وهو قول هذه الطائفة – وأنا به أقول – أنها علمت من وارد اللوح المحفوظ ، أنها وابنها سيعبدان من دون الله ، فاستنكرت، وقالت قولتها :﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ ، وهذا التأويل أولى فى الذوق أن يصدر عن عبد ربانى (مريم)..

قال ر سول الله ﷺ ، وهوما يؤيد الرواية الـسابقة على نحو وا ضح أيـضا ، « **لا يتمنى أحدكم الموت لضر أصابه** » ، فكيف تطلب مريم الموت ، إن هذا نوع من القنوط واليأس والمغاضبة الذى لا يتناسب مع مرتبة سيدة من النساء الكمل ..



التكليف بين الخالق والمخلوق

التكليف كما أشرنا آنفا ، أنه بين حالين إما أمرا بفعل شيء ما ، وإما نهيا عن فعل شيئا ما ، وقد يزداد في بعض الحالات ليضاف إليهما عرضا وفي هذه الحالة ليس ملزما فيخرج عن كونه تكليفا ..

أعضاء التكليف :

وأعضاء التكليف في الإنسان ثمانية لا تاسع لها ،وهي القلب واليد واللسان والفرج والرجل والبطن والسمع والبصر ، وهي بعدد أبواب الجنة فمن رعى أداء هذه الأعضاء فيما لا يغضب الله دخل الجنة من أي من الأبواب الثمانية شاء ..

والأمر في التكليف أشـــد ثقلا من النهي ، إذ يســتلزم الأمر أحيانا خروج المأمور بالتكليف عن طبيعته وعن عادته وأحيانا عن قدراته التي يعلمها هو من نفسه عن نفسه ، أو قد يتعارض مع أهواء نفســه فينزل منه منزلة الغربة فيرفضــه أحيانا وهذا ما ذكرناه في فصل سابق عن إبليس ..

أما النهى وهو الحال الثانى للتكليف ، فهو الأيسر مقارنة بالسابق ، لأنه ما خرج عن استطاعة المكلف به ، حتى وإن كان صعبا فى شكله إلا أنه فى إطار قدرات صاحبه ، لأنه الامتناع عن فعل الشـــىء الذى هو فى مقدوره ، فلم يكلف صـــاحبه عناء أمر يجهله أو غريب عنه ..

مثلما كان الأمر لإبليس بالسجود لآدم ، فأخرجه هذا الأمر عن طبيعته النارية ، ليأمره بالخضـــوع لمن كانت طبيعة طينية وهو آدم ، وقد رآه إبليس أقل منه شـــأنا لجهله وقلة معرفته بشأن آدم ، فكان منه الا ستكبار على أمر ربه لا على ربه ، لأنه مع رفضه الخضوع للأمر والســـجود ، إلا إنه أقر بوحدانية الله وأولوهيته وربوبيته وإلا ما قال: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾..

فكان ما قاله إقرار منه بأن الله هو الخالق له ولغيره ، ولكن اســتكباره جاء من نشــأته النارية فهو مخلوق من نار وهواء والتى لها الغلبة على الطين الذى خلق منه آدم الذى خلق من عجين من الماء والتراب ..

ثم أن ما حدث من إبليس كان إساءة أدب مع الله لأنه جهل ما فى نشأة آدم من عناصر الثبات فى عنصرى الماء والتراب وهى النشأة التى تفتقر إليها نشأته النارية المؤلفة من النار والهواء ، التى ليس لها الثبات بل الخفة ، ولهذا كان حكمه يفتقر إلى التفكير بل التسرع والاستخفاف فجاء خاطئا ..

فكان آدم محظوظا لأن تكليف الله له انطوى على نهى دون أمر وهو العنصر الأيسر من التكليف الربانى للخلق ، أما التنفيذ الفورى للعقاب بالنزول من الجنة دون تأخير إلى يوم القيامة ، إنما جاء لصدور الأمر الإلهى مبا شرة لهما ،وليس من خلال وا سطة ملك أو رسول أو غير ذلك ،بما يستوجب التنفيذ الفورى للمكلف به الذى يقتضى بدوره التنفيذ الفورى للعقوبة ..

قوة الأمر المباشر:

فهناك فرق بين قوة الأمر الذى يصدر عن الآمر مباشرة ، وبين قوته إذا صدر عن رسول أو مبعوث عن الآمر ، ولهذا كان الله رؤوفا بنا أن أرسل لنا الرسل مبشرين ومنذرين ومبلغين أمره لنا ، حتى لا يكون بلاغه مباشرا لنا فينزل عقابه عاجلا ، لإعطائنا الفرصة للاعتراف بالذنب والتوبه من الفعل موضع التقصير فى التكليف ..

أما ما ينطوى على عرض ليس بتكليف ، مثل الذى حدث من الله عندما عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ، فهذا كان فى مقام العرض لا أمرا و لا نهيا وبالتالى لا تكليفا ، وإلا فإنه لو كان تكليفا لحملتها السماوات والأرض والجبال ، فلا يكون لمخلوق فى الأكوان أن يرفض أمر الله ، وإنما كان ذلك عرضا لا أمر ولا نهيا كما في حال آدم وإبليس ..

ولا أرغب هنا فى الإسهاب عن مسألة آدم وإبليس وكيف كان هبوط آدم هبوط تكريم ووعد بتعمير الأرض ، غير أن هبوط إبليس كان هبوط ذلة وهوان ، فنزل آدم للهداية وتعمير الأرض بعدما تاب الله عليه ونزل إبليس للغواية وانتظار وعد الآخرة هو ومن يمشى فى فلكه من بنى آدم ، فقد تحدثنا عن هذا الأمر فى فصل سابق من الكتاب ، فإن حديثنا هنا منصب على التكليف الربانى للخلق ..

تكليف الخلق للخلق :

ولأن التكليف الربانى يخص الإنس والجن ، باعتبار أنهما الثقلان أو المخلوقان المهمان ، فإن هناك نوعا آخرا من التكليف لاسيما داخل نطاق الإنس يمكننا أن نطلق عليه تكليف الخلق للخلق وليس الخالق للخلق ..

وهو ذلك التكليف الذى يأخذ به البعض من الناس خاصــة من المســلمين بترك التكليف الربانى الذى به كل شــىء والعمل بتكليف مخلوق لمخلوق ، أى ترك حكم التشـريع الربانى الذى أتت به الشـريعة المحمدية ، والأخذ بتشـريع وضـعى من وضـع البشــر ، ومن حكم البشــر ، فإن الإنســان فى هذه الحالة حتى وإن كان ذلك التكليف البشرى يتفق مع حكم الشرع الربانى إلا أن هذا التكليف إذا قام به صاحبه لا يحتسب له طاعة لله ، لأنه ما نفذه إلا تكليفا من بشــر مثله ، فصــاحبه منقوص الإيمان أو نوع من الخروج عن الشرع لأنه عدم طاعة للتكليف الربانى وطاعة لتكليف من إنسان لإنسان..

فعلى ســبيل المثال ، فإذا كان الشــرع المحمدى الذى هو التكليف الربانى قد حرم شرب الخمر لأضرارها على جسم الإنسان ، فإذا لم يقلع هذا الإنسان عن شربها تنفيذا لتكليف الشرع المحمدى ، وأقلع عنها بعد ذلك عندما ذهب إلى الطبيب الذى حذره بأن لها آثارا مدمرة على كبده ستودى بحياته ، وأقلع عنها نزولا على أمر الطبيب ، بالرغم من أن التشريع الربانى يقضى فى الأصل بذلك التحريم ، فإن الشخص فى هذه الحالة لم يأخذ بالتكليف الربانى وإنما أخذ بالتكليف البشرى الذى صدر من مخلوق لمخلوق ، فهنا يسقط فى المحظور ، لأنه ما أطاع هنا التكليف الربانى بل عمل بالتكليف الوضعى ، حتى وإن كان ما فعله منسجما مع السابق ، فطاعته ومقصوده فى هذه الحالة ليست الله ..

أو إذا لم يمتنع المرء عن أكل لحم الخنزير رغم علمه بأضـــرار أكله وما ينطوى عليه من مشاكل صحية ، ولم يلتزم بالتحريم الربانى لأكل الخنزير فى أصل الشريعة ، فإن فعل وامتنع بعد ذلك عن أكل لحم الخنزير بعد أن حذره الطبيب من الضـــرر الذى ســيلحق به ، فهو هنا كان تاركا لتكليف ربانى ، ثم عاد وأخذ بتكليف بشـرى ، فطاعته ومقصــوده من الامتناع ليس امتثالا لتكليف إلهى بقدر ، ما هو امتثال لتكليف بشــرى وشــتان ما بين المقصدين ..

وهذا هو الفرق بين ما يعبد الله على بصــيرة وبينة من نفســه ومما يفعله وبين من كان هواه هو محركه ودافعه وآمره وناهيه ومكلفه ، فعبد الله على نحو خاطئ ، « ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ ، فأين أنت يا أخى من تكليف الخالق للخلق وتكليف الخلق للخلق ؟؟ ..



الفصل الثاني لماذا ادعى الإنسان الألوهية؟

صفات الإنسان الكامل:

لم يتصـف الإنسـان الكامل بهذه الصـفة إلا ،لأن الإلوهية أو الربوبية انعدمت فيه تماما فكان إنسانا مخلوقا عابدا محضا لله ، ولهذا اتصف بها آدم وظهر هذا الكمال الذى هو الإنسان الكامل تلك المرتبة العالية فيه وهو ما أشار إليه تعالى عندما قال : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾[البقرة: 31] ، فأكدها بالكل وهى لفظة تشمل الإحاطة ..

غير أن هذا الكمال قد ظهر أيضـا فى محمد ﷺ بقوله « **علمت علم الأولين وعلم الآخرين** » فدخل علم آدم فى علمه ﷺ فإن آدم من الأولين ، و ما جاء بالآخرين إلا ليعرف من لم يعرف الإشـارة إلى أنه ﷺ قد أوتى جوامع الكلم ، فالحبيب ﷺ له الكمال فى كل فضـيلة وخلق نالها أى ممن كان قبله أو بعده ، فهو ﷺ لكونه العبد الكامل ، فهو الإنسان الكامل والمؤمن الكامل والرجل الكامل ..

والسبب فى الإشارة إلى كون آدم وكذا الرسول ﷺ قد حظى بهذا المنصب العالى ألا وهو الإنسـان الكامل ، نظرا لكمالهما عن المخلوق البشـرى الذى انطوت نفسـه على نفسه على الإلوهية

التى نتجت للصورة التى خلق عليها ، فآدم وقبله محمد ﷺ الإنسان الذى لم تشب إنسانيته ربوبية أصلا فاستحق وصف الإنسان الكامل ..

الألفة بين الحق والخلق :

فمنزلة الألفة التى هى النسبة الجامعة بين الحق والخلق نتجت عن الصورة التى خلق عليها الإنسان ، ولذلك لم يدع أى من مخلوقات الله الإلوهية إلا الإنسان على غير المخلوقات الأخرى ، قال فرعون ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: 24] ، ثم أنه لا يوجد فى المخلوقات من يملك سوى الإنسان ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: 3] ..

كما ليس هناك موجود أو مخلوق غير الإنسان أقرت له العبودية بين المخلوقات سوى الإنسان ، فيقال هذا عبد فلان ، ولهذا شرع الله له العتق ورغبه فيه وجعل له ولاء العبد المعتق إذا مات عن غير وارث ، كما أن الورث لله من عباده ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ [مريم: 40] ..

التماثلية مع التنزيه والتقديس :

كما أن الإنسان هو موجود يقبل التسمية دون غيره من الخلق بالأسماء الإلهية ، وندب إلى التخلق بها ، ولهذا أعطى الخلافة والنيابة وعلم الأسماء كلها ،

كما أن الإنســان اختص – دون غيره – بســبب نشــأته الطبيعية بالطبائع الأربعة للقوة الناطقة وهى الحياة والعلم والقدرة والإرادة ..

وبهذه الطبائع الأربعة صــح إيجاد العالم له وتقوى على غيره لأن يكون إلها بها ، إذ لو جرد من هذه الطبائع الأربعة لما كان إلها للعالم ، ولهذا قال الله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: 11] أى ليس مثل مثله شيئا ، حتى لا يعتقد الإنسان ولا يفكر فى أى مثلية ويتعين عليه التنزيه والتقديس حتى لوجمع من القوى الأربع ماجمع ، أى إذا كان المثل المفروض لا يماثل فهو تعالى أبعد وأنزه أن يماثل من أي مخلوق ..

لقد وقع أهل الكتاب فى خطأ أخرجهم عن صحيح الملة ، عندموا شبهوا ولم ينزهوا فى حديثهم عن الحق ، فنحن نقول أن لله يد يبطش بها ، ولكن حاشــى أن تكون كأيدينا ، وقلنا أن الحق ينظر ، ولكن حاشــا أن تكون له عين كأعيننا وهكذا ، غير أن ما وقع فيه أهل الكتاب أنهم شبهوا ولم ينزهوا ،

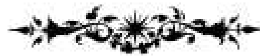
وتحدثوا إلى ربهم وعن ربهم على نحو خلى من الربوبية واقترب من التماثلية ولا يصح ذلك أبدا ، فلله المثل الأعلى ذو الجلال والإكرام تقدســت أســماؤه وصــفاته ســبحانه وتعالى عما يصفون ..

نفى تماثل المثل:

ولما كانت إشـارة السـنة أنه خلق آدم على صـورته ونفى بهذه أن يماثل هذا المثل ، ولما كان الإنسـان بهذه المثابة كانت الألفة بينه وبين ربه ، فأحبه الحق فأحبه الخلق ، وو سع له قلب عبده المؤمن ولم تـ سعه الـ سماء والأرض وهذه من صفة الإنـ سان لا من صفة الملك ..

ولكون ما امتاز به الإنسـان من مجموع المخلوقات بكل هذه الصـفات ، امتاز من تميز بو صف الإنسان الكامل عن غيره لأن عبوديته كانت محضة وخالصة لله لا تشوبها ربوبية وهى العبودة المحضـة للإنسـان تجاه الحق لا العبودية ، فالعبودة أكمل من العبودية ..

فالإنـ سان على صورة الحق من التنزيه والتقديس عن الـ شوب فى حقيقته فهو المألوه المطلق والحق سـبحانه وتعالى هو الإله المطلق ، وهذا هو معنى الإنسـان الكامل ، ولا ينفصـل الإنسـان الكامل عن الإنسـان غير الكامل إلا بسـمة واحدة وهى ألا تشـوب عبوديته ربوبية أصلا ..



كمال الوحي

أعطى الر سول محمد ﷺ الكمال فى كل فضيلة ، فمثلما أعطى جوامع الكلم وعلم علم الأولين والآخرين « علمت علم الأولين و الآخرين » ، فقد أعطى الكمال فى الوحى ، عندما حظى بكل أنواع الوحى السماوى دون ا ستثناء كغيره من الأنبياء والر سل ، ولكن ما هو الوحى ؟

الوحى :

الوحى هو لغة الإعلام فى خفاء وسـرعة ، وقد يكون على سـبيل الرمز .. وهو إلقاء علم فى إخفاء .. وهو الإعلام بخفاء بطريق من الطرق سـواء كان بهمسـة أو بإيماءة أو كتابة فى سر .. وكل ملقى الى الغير بسرعة حتى فهمه فهو وحى ..

وهو ما تقع به الإشـارة القائمة مقام العبارة من غير عبارة ، فإن العبارة تجوز منها الى المعنى المقصود بها ولهذا سميت عبارة ، بخلاف الإشارة التى هى الوحى فإنها ذات المشار إليه ، والوحى هوالمفهوم الأول والإفهام الأول ، ولا أعجل من أن يكون عين الفهم عين الإفهام عين المفهوم منه ، فإن لم تحصل لك هذه النكتة فلست صاحب وحى ..

وهو ما يلقيه الملك فى روع الإنسان (قلبه) دون أن يراه أو يسمعه بحواسه .. وهو إنزال المعانى المجردة العقلية فى القوالب الحسية المقيدة فى حضرة الخيال فى نوم كان أو يقظة ، وهو من مدركات المحسوس مثل قوله ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: 17] وفى حضـرة الخيال كما أدرك رسـول الله ﷺ العلم فى صـورة اللبن وكذا أول رؤياه .. قالت عائشـة « أول ما بدىء به رسـول الله ﷺ من الوحى الرؤيا فكان لا يرى رؤيا إلا خرجت مثل فلق الصـبح » وهى التى أبقى الله على المسـلمين وهى من أجزاء النبوة فما ارتفعت النبوة بالكلية ، ولهذا قلنا ارتفعت نبوة التشريع ، فهذا معنى لا نبى بعده .. فقوله ﷺ لا نبى بعده معناه أى لا مشرع خاصة أنه لا يكون بعده نبى ..

أنواع الوحى :

أولاً : الوحي غير السماوي :

1 – الإلهام الفطرى للإنسـان كالوحى إلى أم موسـى عليه السـلام ، كقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص: 7] ..

2 – الإلهام الغريزى لكل المخلوقات جميعا من غير الإنس والجن – ككل ولكن من حيث تفصـيلهما – كالنبات والحيوان والطير والجماد والسـموات ومفردات الكون وغيرها ،

والإنسان من حيث تفصيله كالشعر والجلد والدم واليدين والرجلين وغير ذلك من الأعضاء والجوارح والطفل مجمله وتفصيله قبل الحلم ..

3- **الإشــارة على ســبيل الرمز والإيحاء** كقوله تعالى عن زكريا : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم : 11] ..

4- وسوسة الشيطان وتزيينه الشر فى نفس الإنسان ، كقوله تعالى ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام: 121] ..

5- **أمر الله إلى الملائكة كقوله تعالى** ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[الأنفال 12]..، وهذه الأنواع الخمسة هي الوحي غير السماوي ..

ثانيًا : الوحي السماوي :

وهو كلام الله المنزل على الأنبياء بطريقة خفية ســريعة غير معتادة للبشــر .. وهو ما نتحدث عنه لاحقا بالتفصيل من خلال الحديث عن الرسول ﷺ والوحى (□).

(□)إحياء علوم الدين : أبو حامد الغزالى .

القرآن والوحى :

والقرآن الكريم اســتعمل كلمة الوحى بنفس المعنى اللغوى أى الإعلام فى خفاء ، كما فى قوله تعالى ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم: 11].. أى إشارة إليهم بدون أن يتكلم لأنه مأمور بعدم الكلام ..

كما إستعملها القرآن للتعبير عن الأمور التى أودعها الله تعالى فى طبيعة الأشياء عندما خلقها وهى تلك الأمور التى يعبر عنها بالأمور الفطرية والغريزية ، أى الإعلام الذاتى أى المودع فى حقيقة وذات الأشــياء منذ أن خلقها الله ســبحانه وتعالى ومنها قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ [النحل :68 ، 69] ..

فالأعمال العجيبة التى يقوم بها النحل فى صنع بيوتها فى الجبال والأ شجار وبأ شكال عجيبة ، ثم الحركة المســتمرة فى صــنع العســل وخزنه وغير ذلك إنما هو بهداية غريزية مودعة فى مكامن خلقته وصــميم وجوده لا يتوانى معها عن عمله و لا يختار معها عملا آخر ، فهى لا تحيد عن تلك السبيل ..

ومنه قوله تعالى ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: 12] ، والمراد أن الله سبحانه وتعالى قد أودع فى طبيعة خلقه كل النظم الكونية وقدر دوامها ، ونعبر عن هذا التقدير بالوحى مجازا ..

وا ستعمل القرآن كلمة الوحى للتعبير عن الإلهام النفسى ، أو الشعور الباطنى وهو شعور يحس به الإنسان إحساسا يخفى عليه مصدره ، إذا كان من الواعين المتفطنين ومن غير الغافلين ، منه الإلهام الإلهى كما فى قوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 7] .. فهو إلهام ألقى فى روع أم موسى عليه السلام من الله سبحانه وتعالى لإعلامها بما تفعله لخلاص ولدها من بطش فرعون ..

ومنه الإلقاءات والوساوس الشيطانية التى تخفى غالبا عن الغافلين فيمرر عليهم الشيطان ما يريد ويوقعهم فى الأخطاء .. قال تعالى ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: 121]

الوحى الرسالى وهو معنى آخر استعمله القرآن للإشارة الى كلمة الوحى

كقوله تعالى ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: 3] ، وقوله تعالى ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [العنكبوت: 45] ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى: 7] ..

والوحى هنا يعبر عن ذلك الإدراك الخاص الذى يتميز به الأنبياء عليهم السلام عن غيرهم ، وهو إدراك يتميز عن سائر الإدراكات فهو ليس نتاج الحس ولا بالعقل و لا بالغريزة أو الفطرة ، وإنما شعور خاص لا يعرف حقيقته إلا من يحصل لهم يوجده الله فى الأنبياء وهو شعور يغاير الشعور الفكرى المشترك بين أفراد الناس عامة لا يغلط معه النبى ﷺ فى إدراكه ولا يشتبه ولا يختلجه شك فى أن الذى يوحى إليه إنما هو الله سبحانه وتعالى ..

قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء: 193 ، 194] ، وتشير الى أن النبى إنما يتلقى الوحى من الروح الأمين بنفسه الشريفة من غير تدخل الحواس الظاهرة، فهو يرى ويسمع حينما يوحى إليه من غير أن يستعمل حاستى السمع والبصر ..

وبشأن الخواطر ، فإن لله سفراء إلى قلب عبده يسمون بالخواطر ، لا إقامة لهم فى قلب العبد إلا زمان مرورهم عليه فيؤدون ما أرسلوا به عليه من غير إقامة ، لأن الله خلقهم على صورة رسالة ما أرسلوا به ، فكل خاطر عينه عين رسالته ، فعندما يقع عليه عين القلب فهمه ، فإما يعمل بمقتضى ما أتاه به أو لا يعمل ..

وجعل الله بينه وبين هذا القلب طرقا خمسة عليها تمشى هذه الخواطر إلى القلب ، وهذه الطرق أحدثها الله لما أحدث الشرائع ، فسمى الطريق الواحد وجوبا وفرضا ، وسمى الثانى ندبا ، والثالث حظرا ، والرابع كراهة ، والخامس إباحة ، وخلق الملك الموكل بالقلب يحفظه عن أمر الله بذلك وجعل فى مقابلة ذلك شيطانا حسدا من اعتناء الله بهذه النشأة الإنسانية ، وأمر الله النفس بحفظ ذاتها بما جبلت عليه من الشيطان ..

ولأننا تناولنا الخاطر ، فتعين علينا أن نرد بعض الإشارات لتوضيح الوارد ، فالوارد عند أهل الله هو ما يرد على القلب من كل اسم إلهى ، الكلام عليه بما هو وارد لا بما ورد ، ويقولون أن الوارد هو ذلك المحمود من الخواطر ، فإن الله وصف نفسه بالإتيان ، والورود إتيان ، والوارد قد تختلف أحواله فى الإتيان ، فقد يرد فجأة أوغير فجأة .

و كل وارد إلهى لا يأتى إلا بفا ئدة ، و ما ثم وارد إلهى كوني كان أو غير كونى ، والفائدة التى تعم كل وارد ما يحصل عند الوارد عليه من الله من ذلك الورود ولا يشترط فيه ما يسره و لا ما يسوءه ، فإن حكم الوارد ما حصل من العلم ، فهناك وارد بعلم ووارد بعمل ووارد جامع لهما ووارد بحال ووارد بعلم وحال ، فهو تجل من الوجه الخاص الذى لكل مخلوق ، وسوف نتحدث بشىء من التفصيل عن الخواطر والأوراد فى فصل لاحق من الكتاب ..

وسائل الوحى للرسل والأنبياء (الوحي السماوي) :

أولا : بواسطة جبريل عليه السلام ..

ثانيا : بغير واسطة ومنها :

- مثل الرؤيا الصالحة مناما أو يقظة ، عن ء رضي الله عنها قالت أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة فى النوم ، كان لا يرى رؤيا إلا خرجت مثل فلق الصبح (□).

- التكليم الإلهى من وراء حجاب يقظة ، قال تعالى ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾ [النساء: 164] ..

(□)فتح البارى فى شرح صحيح البخارى .

-

- وكذلك ليلة الإسراء والمعراج للرسول عليه الصلاة والسلام ..

ودليل الحالتين السابقتين قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: 51] ..

كيفية نزول جبريل على الرسولﷺ :

- يأتيه مثل صلصلة الجرس وهو أ شد على الر سول ﷺ لأن هذه الحالة انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملكية الروحانية(□) ..

- الحالة الثانية أن يتمثل له الملك رجلا ، ويأتيه فى صورة بشر وهذه الحالة أخف على الر سول ﷺ من الحالة الأولى ، عندما جاءه جبريل فى صورة أعرابى يسأله ويصدقه فى الإجابة لدرجة جعلت الـ صحابة يـ سألون عن الرجل الذى يـ سأل ثم يـ صدق الر سول فيما يقول ، فقال ﷺ :« **أنه جبريل جاء يعلمكم شئون دنياكم**» (□) ..

(□)الراغب الأصفهانى 515 : معجم مقاييس اللغة ج 6 ص 93.

(□)لسان العرب ج 15 ص 379.

-

ثم وبعد النبوة كان ينزل جبريل عليه السـلام بالوحى من الله تعالى فكانت تارة يراه فى صورته الأ صلية أو فى صورة أدمى وتارة أخرى لا يراه بل ينزل الوحى على قلبه ﷺ قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء: 19 ،194] (□) .

وفى أكثر الأحيان كان ينزل عليه الوحى بصـورة مباشـرة ومن دون توسـط ملك قال الإمام الصـادق : كان ذلك إذا جاءه الوحى وليس بينه وبين الله ملك فكانت تأتيه تلك السبتة ويغشاه ما يغشاه لثقل الوحى عليه ، أما إذا أتاه جبريل بالوحى فكان يقول ها هو ذا جبريل ، أو قال لى جبريل (□)..

وقال الشيخ جعفر الصادق الصدوق أن النبى ﷺ كان يكون بين أصحابه فينزل عليه وهو يتصـبب عرقا ، فإذا أفاق قال : قال الله تعالى كذا وكذا وأمركم بكذا ونهاكم عن كذا .. قال : وكان زعم أكثر مخالفينا أن ذلك عند نزول جبريل ، فسـئل الإمام الصـادق عن الغشـية التى كانت تأخذ النبى ﷺ أكانت عند هبوط جبريل ؟؟ فقال : لا إن جبريل كان إذا أتى النبى ﷺ لم يدخل حتى يستأذنه ، وإذا دخل عليه قعد بين يديه قعدة العبد ، وإنما ذاك عند مخاطبة الله عز وجل إياه بغير ترجمان أو واسطة ..

(□)صحيح الاعتقاد ص 56.

(□)آمالى الشيخ الصدوق ص 31 :كمال الدين ص 85 .

كمال الوحى لسيدنا محمد ﷺ:

اختص الله سيدنا محمد ﷺ بالكمال فى كل فضيلة ، فمن ذلك أن خصه بكمال الوحى وهو استيفاء أنواعه وضروبه وهو قوله ﷺ « **أوتيت جوامع الكلم** » ، فما بقى ضرب من الوحى إلا وقد نزل عليه به ، فلما كان بهذه المثابة وبدىء رسول الله ﷺ بالرؤيا فى وحيه .. فإذا كانت الرؤيا الصالحة لسيدنا إبراهيم عليه السلام .. كقوله لابنه ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ ، وإذا كان التكليم إلى موسى عليه السلام ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴾.. فإن الرسول ﷺكانت له كافة أشكال الوحى السماوى وبالتالى كان له كمال الوحى .. فكانت له ﷺالرؤيا الصالحة مناما أو يقظة ، وكان له التكليم ، وكان له الملك الرسول ، وكان له الرسول فى هيئة بشر وغير ذلك ..

فالرسول ﷺ أول ما بدئ الوحى عليه معه كانت بالرؤيا الصالحة .. قالت عائشة : «أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا فكان لا يرى رؤيا إلا خرجت كفلق الصبح » ، وهى التى أبقى الله على المسلمين وهى من أجزاء النبوة

فما ارتفعت النبوة بالكلية .. وعندما سئل رسول الله ﷺ عما هى المبشرات التى هى الرؤيا ؟؟ فقال : رؤيا المسلم وهى جزء من أجزاء النبوة ..

والرؤيا على ثلاث : منها بشـرى (بضـم الباء) وهو ما نحن بصـدده فى هذا السـياق ، ورؤيا مما يحدث المرء به نفســه فى اليقظة فيرتقم فى خياله فإذا نام أدرك ذلك بالحس المشـترك لأنه تصـوره فى يقظته فبقى مرتسـما فى خياله فإذا نام وانصـرفت الحواس إلى خزانة الخيال أبصرت ذلك ، والرؤيا الثالثة من الشيطان ..

ولهذا قيل ارتفعت نبوة التشـريع ، فهذا معنى لا نبى بعده ، أى لا مشـرع بعده ، أى زال التشريع المنزل من عند الله بالوحى بعده صلى الله ، فلا يشرع أحد بعده إلا ما اقتضاه نظر المجتهدين من العلماء فى الأحكام ..

فلما كان بهذه المثابة وبدىء ﷺ بالرؤيا أى وحيه سـتة أشـهر علمنا أن بدء الوحى الرؤيا وأنها جزء من ستة وأربعين جزء ا من النبوة كونها ستة أ شهر ، وكانت نبوته ثلاثا وعشرين سنة ، فستة أشهر جزء من ستة وأربعين ..

متى يكون الإنسان صاحب وحى؟ :(علاقة الوحى بالعلم بالله)

ولنعلم أنه إذا كان الكلام وحيا فإن سلطانه أقوى من أن يقاومه الموحى إليه ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ [القصص: 7] وكذا فعلت ولم تخالف مع أن الحالة تؤذن أنها ألقته فى الهلاك ولم تخالف و لا ترددت ولا حكمت عليها البشرية بأن إلقاءه فى اليم فى تابوت ، أخطر الأشياء ، فدل على أن الوحى أقوى سلطانا فى نفس الموحى إليه من طبعه الذى هو عين نفسه ، قال تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق: 16] وحبل الوريد من ذاته ..

فإذا زعم إنسان أن الله أوحى إليه فلينظر فى نفسه من التردد أو المخالفة ، فإن وجد لذلك أثرا بتدبير أو تفصيل أو تفكر فليس هذا الإنسان بصاحب وحى ، فإن حكم عليك وأعماك وأصمك وحال بين فكرك وتدبيرك وأمضى حكمه فيك فذلك هو الوحى وأنت عند ذلك صاحب وحى ، وعلمت عند ذلك أن رفعتك وعلو منصبك أن تلحق بمن تقول إنه دونك من حيوان ونبات وجماد ، فإن كل ما سوى مجموع الإنسان مفطور على العلم بالله إلا مجموع الإنسان والجان فإنه من حيث تفصيله مفطور على العلم بالله كسائر ما سواهما من المخلوقات من ملك ونبات وحيوان وجماد ، ما من شىء فيه من شعر وجلد ولحم وعصب ودم وروح ونفس وظفر وناب إلا وهو عالم بالله تعالى بالفطرة بالوحى الذى تجلى له فيه

وهو من حيث مجموعيته ، و ما لجمعيته من الحكم جا هل بالله حتى ينظر ويفكر ويرجع إلى نفسه فيعلم أن له صانعا صنعه وخالقا خلقه ، فلو أسمعه الله نطق جلده أو يده أو لسانه أو رجله لسمعه ناطقا بمعرفته بربه مسبحا لجلاله ومقدسا ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: 24] ، ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾[فصلت: 21]، فالإنسان من حيث تفصيله عالم بالله ، ومن حيث جملته جاهل بالله حتى يتعلم أى يعلم بما فى تفصيله فهو العالم الجاهل ، فالإنسان من حيث تفصيله صاحب وحى ، ومن حيث جملته لا يكون فى كل وقت صاحب وحى ..

مقام الرؤية :

وللإنسان حالتان تسمى الأولى النوم ، والثانية تسمى اليقظة ، وجعل الله للإنسان فى كلتا الحالتين إدراكا يدرك به الأشياء تسمى الإدراكات فى اليقظة حسا ، وتسمى فى النوم حسا مشتركا ، فكل شىء تبصره فى اليقظة يسمى رؤية ، وكل ما تبصره فى النوم يسمى رؤيا مقصورا (□)..

(□)فتوحات ابن عربى: المجلد الثانى .

و قد يتقوى الأمر على بعض الناس فيدركون فى اليقظة ما كانوا يدركو نه فى النوم وذلك نادرا وهو لأهل هذا الطريق من نبى وولى ، ولما كانت النبوة خطاب الله تعالى أو كلام الله تعالى لمن شـــاء من عباده فى هاتين الحالتين من يقظة أونوم ، وهذا الخطاب الإلهى المســمى نبوة على ثلاثة أنواع : نوع يســمى وحيا ، ونوع يســمعه كلامه ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى: 51] ونوع بو ساطة ر سول فيوحى ذلك الر سول من ملك أو بشر بإذن الله ما يشاء لمن أر سله إليه وهوكلام الله ، إذ كان هذا الر سول إنما يترجم عن الله كما قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا﴾ [الشــورى: 51] فالوحى منه ما يلقيه إلى قلوب عباده من غير واســطة فأســمعهم فى قلوبهم حديثا لا يكيف ســماعه و لا يأخذه حد و لا يصــوره خيال ، ومع هذا يعقله و لا يدرى كيف جاء و لا من أين جاء و لا ما سببه ، وقد يكلمه من وراء حجاب ، وقد يكون الحجاب بشــريته وقد يكون كما كلم موســى من الشــجرة من جانب الطور الأيمن له ، لأنه لو كلمه من الأيســر الذى من جهة قلبه ربما التبس عليه بكلام نفســه .. وقد يكلمه بوا سطة ر سول من ملك ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [الشعراء: 193 ، 194] يعنى بالقرآن الذى هو كلام الله ..

إذن الرؤيا الصـــالحة بشـــرى من الله تعالى ، ورؤيا من تخزين الشـــيطان ، ورؤيا مما يحدث المرء به نفســـه ، « **وإذا رأى أحدكم ما يكره فليقم وليتفل ولا يحدث به الناس** » (حديث) .. وفى حديث أبى قتادة عن رســـول الله ﷺ « **إذا رأى أحدكم شـــيئا يكرهه فلينفث عن يساره ثلاث مرات وليستعذ بالله من شرها فإنها لن تضره** » وفى حديث آخر « **إن رؤيا المسلم على رجل طائر ما لم يحدث بها فإذا حدث بها وقعت** » ..

إن لله ملكا موكلا بالرؤيا يسمى الروح وهو دون السماء الدنيا وبيده صور الأجساد التى يدرك النائم فيها نفسه وغيره ، فإذا نام الإنسان أو كان صاحب غيبة أو فناء أو قوة إدراك لا تحجب المحسوسات فى يقظته عن إدراك ما بيد هذا الملك من الصور فيدرك هذا الشـــخص بقوته فى يقظته ما يدركه النائم فى نومه ، وذلك أن اللطيفة الإنســـانية تنتقل بقواها من حضـــرة المحســـوســـات الى حضـــرة الخيال المتصـــل بها ، فيفيض عليها ذلك الروح الموكل ..

لماذا قال يوسف : قضى الأمر ...؟؟

وإذا عبرت الصـــورة من الرؤيا كان لها حكم التنفيذ و لابد أن يحدث لها من قوة التعبير لا من نفسها ، وهو أن الذى يعبرها لا يعبرها حتى يصورها فى خياله من المتكلم ،

فقد انتقلت تلك الصورة عن المحل الذى كانت فيه حديث نفس أو تخزين شيطان إلى خيال العابر لها وما هى له حديث نفس ، فيحكم على صورة محققة ارتسمت فى ذاته فيظهر لها حكم أحدثه حصول تلك الصورة فى نفس العابر كما جاء فى قصة يوسف مع الرجلين وكانا قد كذبا فيما صوراه ، فكان مما حدثا به أنفسهما فتخيلاه من غير رؤيا وهو أبعد فى الأمر إذ لو كان رؤيا لكان قد أدخل فى باب التعبير فلما قصاه على يوسف حصل فى خيال يوسف عليه السلام صورة من ذلك لم يكن يوسف حدث بذلك نفسه فصارت حقا فى حق يوسف ، وكأنه هو الرائى الذى رأى تلك الرؤيا لذلك الرجل وقاما له مقام الملك الذى بيده صور الرؤيا ، فلما عبر لهما رؤياهما قالا له : أردنا اختبارك وما رأينا شيئا ، فقال يوسف : ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ [يوسف: 41] فخرج الأمر فى الحس كما عبر ..



الوجوبية على الله

أشـــرك الحق ســبحانه وتعالى نفســـه مع عبده فى الوجوب عليه ، عندما قال : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: 54] ، وإن كان هو الذى أوجب على نفســـه ما أوجب ، فكلامه صدق ووعده صدق وقوله حق ، مثلما يوجب الإنسان نفسه فى حالات النذر فى أمر قد لا يوجبه عليه الحق ، كأن ينذر نذرا إذا نجح ولده أو غير ذلك من النذر ..

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: 47] فعز المؤمن بالله ثقته بمولاه ، ونصرته على نفسه وهواه ، ونجاته من العوارض أن تعطله على سبيل هداه ، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: 8] فصدق الثقة مع الله إنما ينشأ من الإيمان بالله على ســبيل المعاينة والمواجهة ، فيوجب لهم إيمانهم الإعزاز بالله .. و ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: 103] وهذه وجوبية أخرى أوجبها الحق على نفســـه ما أوجبها أحد عليه ، وكذا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فالحق قد يســـخر الفاجر لنصرة دينه ونصرة المؤمن ورد غيبته ..

إن للمطلق أن يقيد نفسه إن شاء وأن لا يقيدها إن شاء فإن ذلك من صفة كونه مطلقا إطلاق مشيئته ، ومن هنا أوجب الحق على نفسه ودخل تحت العهد لعبده فقال في الوجوب ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ ، أى أوجب فهو الموجوب على نفسه ما أوجب غيره عليه ذلك فيكون مقيدا بغيره ..

فقيد نفسه لعبيده رحمة بهم ولطفا خفيفا وقال في العهد ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: 40] فكلفهم وكلف نفسه لما قام الدليل عنهم بصدقه فيما قال ..

ثم رأيناه تعالى لا يستجيب إلا بعد دعاء العبد إياه ، كما شرع ، كما أن العبد لا يكون مجيبا للحق حتى يدعوه الحق إلى ما يدعوه إليه .. قال تعالى : ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾ [البقرة: 186]..

إذن الحق يجيب أمر العبد إذا دعاه وسأله ، كما أن العبد يجيب أمر الله إذا أمره وهو قوله : ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: 40] فاشتركا فى القضية ..

فهو سبحانه وتعالى ملك بما يأمر به عباده وهو سبحانه ملك بما يأمره به العبد ، فيقول : ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ [الأعراف: 151] كما قال له الحق : ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: 14] ..

فيسمى ما كان من جانب الحق للعبد أمرا ، ويسمى ما كان من جانب العبد للحق أدبا إلهيا ، وإن كان على الحقيقة أمر ..

فالمخلوق كما يطلب الخالق من كونه مخلوقا ، كذلك الخالق يطلب المخلوق من كونه خالقا ، ألا ترى العالم لما كان له العدم من نفسه لم يطلب الخالق ، وإنما طلب الخالق من كونه مخلوقا ، فمن هنا قيد الحق نفسه سبحانه بما أوجب على نفسه من الوفاء بالعهد ، فإن المخلوق موجود عن مسبب هو الله تعالى ، ولهذا أيضا وضع الحق الأسباب فى العالم لأنه سبحانه علم أنه لا يصح اسم الخالق وجودا وتقديرا إلا بالمخلوق وجودا وتقديرا ..

والأمر كذلك مع كل اسم إلهى يطلب الكون مثل الغفور والمالك والشكور والرحيم وغير ذلك من الأسماء ، فمن هنا وضع الأسباب وظهر العالم مربوطا بعضه ببعضه ..

فلم تنبت سنبلة إلا عن زارع وأرض ومطر وأمر بالاستسقاء ولهذا لم يكلف عباده قط بالخروج عن الأسباب فإنه لا تقتضيه حقيقته ، فقال : أنا سببك فعلى فاعتمد وتوكل كما ورد ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: 23] ..

لماذا قال عرف ربه وليس عرف الله ؟

اســم الله علم على ا لذات العلية ،وهو نعت إلهى ، ولا يعرف ا لذات إلا ا لذات ، والذات غنية عن الخلق ، على غير الا سم الرب الذى هو من الأ سماء الإلهية التى تطلب الكون ، أى الرب يطلب مربوب ، فالعاقل من الناس من أثبت الأ سباب ، فإنه لونفاها ما عرف ربه و لا عرف نفسه ، وقال ﷺ : « **من عرف نفسه عرف ربه** » ، ولم يقل عرف ذات ر به ، فإن ذات الرب لها الغنى على الإطلاق ، وكيف للمقيد معر فة المطلق ، والرب يطلب المربوب بلا شك ففيه رائحة التقييد فبهذا عرف المخلوق ربه ..

وكما قال أبو العباس المرســى رضــى الله عنه هناك تأويلان لما جاء فى الحديث من عرف نفســه عرف ربه أولا: أى من عرف نفســه بذلها وعجزها وفقرها عرف الله بعزة وقدرته وغناه ، فتكون معرفة النفس أولا ثم معرفة الله من بعد ..

والتأويل الثانى : من عرف نفسه عرف ربه ، أى من عرف نفسه فقد دل ذلك منه على أنه عرف الله من قبل ، فالأول حال السالكين والثانى حال المجذوبين ..

رافع الأسباب سئ الأدب مع الله :

إن من لا علم له بالأخذ بالأسباب ، لا يعلم كيف يسلك الطريق إلى معرفة ربه بالأدب الإلهى ، فإن رافع الأسباب سئ الأدب مع الله ، ومن عزل من ولاه الله فقد أساء الأدب وكذب فى عزل ذلك الولى ، فمن كفر بالأسباب وأخذ بتركها قد أساء الأدب ، فمن ترك ما قرره الحق فهو منازع لا عبد ، وجاهل لا عالم ..

إن العطش إذا أخذك ، فإنك تسعى لشرب الماء لتدفع ألم عطشك ، وإذا جعت تناولت الخبز ، وإذا أردت النظر فتحت عينك لترى ، فهل فعلت ذلك إلا لسبب العطش والجوع والرؤية ؟ مثلما إذا أردت زيارة صديق سعيت لزيارته فسعيك هذا سبب فى وصولك إليه ، فكيف للإنسان أن ينفى الأسباب ؟؟

ولا تكن يا أخى ممن عطلوا صفات الله كطائفة « المعطلة » الذين عطلوا أسماء الصفات الإلهية جهلا منهم وخروجا عن الملة المحمدية ، عندما قبلوا بقوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ورفضوا بجهلهم قبول ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ، فوقعوا فى المحظور،

وسـيكونا بذلك واحدة من أربع طوائف يطلق عليها أهل النار مع المسـتكبرين الذين دعوا اللاألوهية أمثال فرعون ومع المشركين الذين أشركوا مع الله إله آخر ومع المنافقين من المسلمين الذين سيعذبون فى الدرك الأسفل من جهنم أعاذنا الله وإياك ..

معية الحق

كثيرا ما نسـمع وكما تعود عليها الناس ، مقولة أنا مع الله ، أو خليك مع الله ، وقد يستحسنها الكثيرون فهى فى ظاهرها حسنة الكلم مجازيا لا حقيقة ، لكن فيها إساءة فهم وأدب مع الله لمن من عليه بنعمة الفهم ، فمن أنا حتى أكون مع الله ؟؟ومن أنت حتى تكون مع الله ؟، وبأى كيفية حالية أو ظرفية وبأى وجه وعلى أى وجه ..

وقد يقولها :قائلها بنية حسنة المقصد لمن يرغب له الخير بإ ستحضار الحق ، غير أننا إذا أمعنا النظر فى معناها على هذا النحو نجد أن بها تجاوزا منا فى حق الحق فيما يتعلق بالتخاطب مع الله ، فهى لم ترد فيما ورد عنه سـبحانه وتعالى والأولى القول بأنه سـبحانه وتعالى معنا – كما عرف أهل الله – فالحق معنا ، ولسنا معه فهذا ما ورد عنه ..

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[الحديد :4] ، وقال : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: 46] لموسى وهارون ،

فنقول إن الحق معنا على حد ما قاله هو سبحانه وبالمعنى الذى أراده ، ولا نقول: إنا مع الحق ، فإنه ما ورد ، والعقل لا يجيزه ، فما لنا وجه عقلى أو شرعى يطلق به إننا مع الحق ..

ثم إن الله سبحانه وتعالى ما أسرى بعبده محمد ﷺ وكذا فى معراجه لكى يلتقى بربه ، بقدر ما كان بيانا عمليا من الحق لحبيبه محمد ﷺ ليطلعه على آيات ربه فى شوطى الإسراء والمعراج ويلتقى بمن شاء الله له أن يلتقى من الرسل وغيرهم فى ملكوت السماوات والأرض ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ ..



الفصل الثالث يريدون وجهه

تختلف كل جلسة أو صحبة عن الأخرى بما ينطوى عليها أهداف هذه الجلسة أو الصحبة ، فمنهم من تكون جلستهم فى الحق وللحق وبالحق ، ومنها ما تكون لغير ذلك ، فشتان ما بين هؤلاء وهؤلاء ، « **لا يستوى الأعمى والبصير** » ..

إن لله عبادا كل أفعالهم وأحوالهم ذكرا يتقربون به إلى الله ، فمن حبس نفسه مع هؤلاء ومع هذا الذكر لحق بهم وانتسب إليهم ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: 28] ..

فهذه الطائفة التى نزل فيها القرآن ، هى عين أحوالهم وأفعالهم ، وبالرغم من أن كونهم من أصحاب رسول الله ﷺ ، مع ذلك عاتب الله نبيه ﷺ فيهم حتى كان ﷺ إذا لقى أحدا منهم أو جلس فى مجلس يكونوا فيه ، لايزال يحبس نفسه معهم ما داموا جلوسا حتى يكونوا هم الذي ينصرفون ..

وكان ﷺ إذا حضروا لا تعدو عيناه عنهم ، ويقول إذا جاؤوا إليه أهلا ومرحبا بمن عاتبنى فيهم ربى ، ولما عرفوا بذلك كانوا يخففون من جلوسهم مع الرسول ﷺ والحديث لما علموا من تقييده بهم وصبره لنفسه عليهم ..

الذكر فى كل وقت وحين:

فمن يلزم نفسه الذكر فإنه ينتج له معرفة وجه الحق فى كل شئ فلا يرى شيئا إلا ويرى وجه الحق فيه فإنهم ما دعوا ربهم بالغداة والعشى رغم كونه وقت السعى على المعاش وتحصيل الأرزاق، كما قال ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: 62] ..

فكان رزق أصحاب هذه الطائفة الذاكرة بالغداة والعشى ما يحصل لهم من معرفة الوجه الذى هو مرادهم ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: 28]، يعنى بذلك الدعاء صباحا ومساء وجه الحق لما علموا ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: 88] فطلبوا ما يبقى ويدوم وفضلوه وآثروه على ما يفنى، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾..

هم المشاهدون لوجهه:

فإذا تجلى وجه الحق فى الأشياء لهذا الشخص من الذاكرين بهذا الذكر لم تعد عيناه عن هذا الوجه ولا يتمكن أن تعدو عيناه عنه لأنه بذاته يقيد كل ناظر إليه، فهؤلاء المشاهدون للوجه لا لذاته ..

صفة الولى :

فلا تعد عينا الرسول ﷺ عنهم إلى غيرهم ما داموا حاضرين لأنهم مشاهدون للوجه ، ولهذ قال الرسول ﷺ فى صفة أولياء الله « **هم الذين إذا رؤوا ذكر الله** » – بضم الذال وكسر الكاف – لما حصل لهم من نور هذا الوجه الذى هو مراد هؤلاء ..

فإن الذى يتجلى له هذا الوجه لابد أن يكون فيه أثر معلوم جلى وواضح له بحيث أن يراه الغير منه ، ومنهم خفى بحيث لا يراه منه إلا أهل الكشف أو لا يراه أحد وهو الأخفى ..

حكم الأنبياء فى النظر لهؤلاء :

والرسول ﷺ كان يرى فى هؤلاء مشاهدتهم لوجه الله ، فحاشا أن يكون ذلك خفى عنه أو أن يجهله ، غير أن حكم الأنبياء فى مثل هذه الأمور يختلف عن حكم غير الأنبياء وإن شاهدوا هؤلاء حال شهودهم للوجه الذى أرادوه من الله تعالى بدعائهم وذكرهم ..

فإن الأنبياء من حيث إنهم أرسلوا لمصالح العباد لا يتقيدون بهم على الإطلاق ، وإنما يتقيدون بالمصالح التى بعثوا بسببها ، فبرغم العتاب فى حقهم طبقا لهذه الآية وكذلك ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ [عبس: 1]

الذى عاتبه فيه الحق ، إلا أن ما حدث منه ﷺ كان لحر صه على الدعوة الإ سلامية فى مهدها وحر صه على إسلام الكثير من الناس الذين يؤيد الله بهم الدين ، فالعتاب لم يصدر من هذه الجهة ولكن من استغناء القلة المشـركة مع أن الغنى صـفة الحق ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴾ [عبس: 5،6] ،فالغنى صـفة إلهية ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: 97] ، فأين مقام الغنى من هذا الطلب ؟ ولهذا كان رسـول الله ﷺ يظهر من البشـاشـة لهؤلاء على قدر ما يليق بهم ، كما يظهر للغنى من الفرح على قدر ما تقع به المصـلحة فى حق أولئك الجبابرة فإن التواضـع والبشـاشـة محبوبة وهى من مكارم الأخلاق ، وهكذا مازال الله يؤدب نبيه ﷺ حتى تحقق بالأدب الإلهى فقال « إن الله أدبنى فأحسـن تأديبى » ، فإن الله له نسـبة إلى الأغنياء كما أن له نسـبة إلى الفقراء ، وعلى العارف أن يعى ذلك ، فإذا كان النبى ﷺ مقصـودًا بالأدب الإلهى فنحن مقصـودون بالتأسى والاقتداء ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:21] ..

الشيخ والمريد :

وإذا كانت الآية ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ قد نزلت فى حق الرسـول ﷺ ، فإن لها أكثر من وجه فى الأولياء المربين المنفوحين الوارثين المنتمين إلى العترة المحمدية ،

فهذا الأدب النبوى هو أيضا للولى المربى الذى يصبر نفسه مع مريديه الذاكرين الله كثيرا والذاكرت لاسيما المشاهدين لوجه الحق فيه ..

كما أن لها وجهًا آخر أيضا يخص المريد الحقيقى أن يصبر نفسه مع شيخه المربى المنفوح من مدد النبوة والوارث الكامل فى عصره للرسول ﷺ لكى ينهل منه وينهل من مجالسة إخوانه من الذاكرين الله كثيرا والمشاهدين لوجه الحق فتحدث البركة للجميع بمجالسة الشيخ المربى وبمجالسة أعضاء هذه الطائفة بعضهم لبعض « من ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير من ملأه » ، فالأرواح تلقح بعضها بعضا ..

فالحق الذى يرونه فى وجه الولى يحببهم فى ذاك الولى فيحبونه ، فيحببهم الولى فى الله فيحبوه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴾ ، فحبهم لبعض فى الله ولأجل الله توجب محبته سبحانه لهم ، « **وجبت محبتى للمتحابين فى** » ..

فيجب على المريد أن يتأدب بشيخ ،

فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبدا ، يقول أبو يزيد البسطامى : من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان .. وقال أبو على الدقاق : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق لكن لا تثمر ، كذلك المريد إذا لم يكن له أ ستاذ يأخذ منه طريقه نفسا فنفسا ، فهو عابد هواه لا يجد نفاذا ..

وللرجال عليهن درجة

شقائق الرجال :

إذا نظرنا إلى قول النبى ﷺ أن النساء شقائق الرجال ، فإننا نرى أن كل ما يصح أن يناله الرجل من المقامات والمراتب والصفات يمكن أن يكون لمن شاء الله من النساء كما كان لمن شاء الله من الرجال ، ولنرى إلى حكم الله فيما زاد للمرأة على الرجل فى الاسم فقال فى الرجل المرء ،وقال فى الأنثى المرأة فزادها هاء فى الوقف تاء فى الوصل على اسم المرء للرجل ..

ولكن إذا ذكرت أن الحق قد حد إمرأتين فى الشهادة مقام الرجل ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾، فإن ذلك لكون النسيان منهن ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: 282] ، والتذكير لا يكون إلا عن نسيان ، غير أن هذا كان فى حق أبيهم آدم وليس قاصرا على النساء ..

فقد أخبر الله تعالى عن آدم أنه نسى ، وقال ﷺ : «فنسى آدم فنسيت ذريته»، فنسيان بنى آدم ذرية عن نسيان آدم كما نحن ذريته وهو وصف إلهى منه صدر فى حق العالم قال تعالى ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[التوبة: 67] ،

وإن كان النسيان هنا هو الترك ، كما أن الله ما وصف إحدى المرأتين إلا بالحيرة فيما شهدت فيه ولم يصفها بالنسيان ، والحيرة نصف النسيان وليس النسيان كله ، ونسب النسيان بكامله للرجل كما قال تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: 115] ، أى آدم ، إذن يمكن للرجل أن ينسى الشهادة ولا يتذكرها ..

لا فرق من حيث الإنسانية :

إن الرجل لم يكن له درجة على المرأة من حيث الإنسانية ، لأن الإنسانية حقيقة جامعة للرجل والمرأة ، مثلما إشترك الإنسان وهو العالم الصغير مع العالم الكبير فى العالمية ، فليس للعالم درجة على الإنسان من هذه الجهة ، فقد ثبت أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: 27] ، فالدرجة التى فضل بها السماء والأرض على الإنسان هى بعينها التى فضل بها الرجل على المرأة وهى الفاعل والمنفعل ..

الفاعل والمنفعل :

والمسألة تتعلق بالفاعل والمنفعل ، والمنفعل لا يقوى قوة الفاعل لما هو منفعل عنه ، فالإنسان منفعل عن السماء والأرض ، فكان تفضيل السماء والأرض على الإنسان ، وحواء منفعلة عن آدم مستخرجة من ضلع قصير ،

فقصرت بذلك أن تلحق بدرجة من إنفعلت عنه ، فالإنسان لا يعلم من العالم إلا قدر ما أخذه منه ، بالرغم من أنه مختصر عن هذا العالم ..

كذلك المرأة لا تلحق بدرجة الرجل رغم كونها مختصــر منه ، فالرجل يلقى الماء فقط فى الرحم الذى هو محل التكوين والخلق فيظهر المخلوق إلى أن يخرج بشــرا ســويا ، فبهذا القدر يمتاز الرجال عن النســاء ، ولهذا كانت النســاء ناقصــات العقل عن الرجال لأنهن لا يعقلن إلا قدر ما أخذت المرأة من خلق الرجل من أصل النشأة ..

أما نقصـــان الدين عند المرأة فإن الجزاء على قدر العمل ، والعمل لا يكون إلا عن علم ، والعلم على قدر قبول العالم ، والعالم على قدر استعداده فى أصل نشأته ، واستعدادها ينقص عن اســتعداد الرجل لأنها جزء منه ، فلابد أن تتصــف المرأة بنقصــان الدين عن الرجل ..

وقال رســول الله ﷺ « **كمل من الرجال كثيرون وكمل من النســاء مريم بنت عمران وآســية إمرأة فرعون وخديجة وفاطمة** » ، فاجتمع الرجال والنســاء على درجة الكمال ، وفضل الرجال بالأكملية لا بالكمالية ،

فإن كملا بالنبوة فقد فضـــل الرجال بالرســـالة وبالبعثة ولم يكن للمرأة درجة البعثة والرسالة ، بل هناك التفاضل داخل المقام الواحد ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [البقرة: 253] وقال : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [الإسراء: 55] ، وقد شرك الله بين الرجال والنساء فى التكليف فكلاهما مكلف ، حتى وإن اختص الرجل بحكم قد لا يكون للمرأة لكن النساء شقائق الرجال ..

الجزء والكل :

ولأن حواء شـــجنة من آدم فقد جعل الله بينهما مودة ورحمة ، وهو ما بين الرحم والرحمن مودة ، ولذلك أمرنا الله أن نصـــلها بمن قطعت منه فيكون القطع له والوصـــل لك ، فالمودة المجعولة بين الزوجين هى من الثبات على النكاح الموجب للتوالد ، والرحمة للحنين والســكن ، فمن حيث المرأة حنين الجزء إلى كله والفرع إلى أصـــله والغريب إلى وطنه أما حنين الرجل إلى زوجته حنين الكل إلى جزئه ، وحنين الأصـــل إلى الفرع ، فالبمودة والرحمة طلب الكل جزءه والجزء كله فالتحما فظهر عن ذلك الالتحام الأبناء فصح لهم اسم الأبوة ..

ولأن المكان الذى فى الرجل الذى اســتخرجت منه المرأة عمره الله بالميل إليها ، فحنينه إلى المرأة حنين الكبير وحنوه على الصــغير ، وأما أخذ الإرفاق منهن فإنه يأخذه منهن لهن كما أخذه الرسول ﷺ حين أمرهن أن يتصدقن لأنه يسعى فى خلاصهن لما رآهن أكثر أهل النار فأشفق عليهن حيث كن منه فهو شفقة الإنسان على نفسه ..

حبب إلى النساء :

ولأنهن محل التكوين لصورة الكمال فحبهن فريضة وإقتداء برسول الله ﷺ ، قال ﷺ « **حبب إلى من دنياكم ثلاث: النســاء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصــلاة** » ، فهل ترى أنه حبب (أى بضم الحاء) إليه ما يبعده عن ربه ؟؟ لا والله بل حبب إليه ما يقربه من ربه ..

ولقد فهمت عائشة أم المؤمنين ما أخذ النساء من قلب رسول الله ﷺ حين خيرهن فإخترنه فأراد الله تعالى جبرهن وإيثارهن فى الوقت ومراعاتهن ، وإن كان بخلاف مراد رســول الله ﷺ فقال: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ ﴾ [الأحزاب: 52] فأبقى عليه رحمة به لما جعل فى قلبه من حب النساء ملك اليمين ..

حب النساء ميراث نبوى:

وهذه من أشق آية نزلت على رسول الله ﷺ ، فقالت عائشة : ما كان الله ليعذب قلب نبيه ﷺ ، والله ما مات رسول الله حتى أحل له النساء ، فمن عرف قدر النساء وسرهن لم يزهد فى حبهن ، بل من كمال العارف حبهن فإنه ميراث نبوى وحب إلهى ، فإنه قال : « حبب إلى » (بضم الحاء) فلم ينسب حبه فيهن إلا إلى الله تعالى ..

ومعظم الأنبياء والرسل قد رزقن من النساء كثيرات منهن كسليمان وغيره ، إلا محمد ﷺ فقد حببن إليه ﷺ ، فإنه ما ورد قط عن نبى من الأنبياء أنه حبب إليه النساء إلا الرسول ﷺ ، ذلك أنه كان نبيا وآدم بين الماء والطين « **حبب إلى من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة** » (حديث)..

حبب إلى لا أحببت :

وقال:حبب (بضم الحاء) إلىَّ ولم يقل أحببت ، أى أراد الله لرسوله ﷺ أن يحببنهن لأنه كان منشغلا به سبحانه عنهن وعن غيرهن ، ولأنه ﷺ هو المشرع فكانت مشيئة الله أن يحبهن ﷺ حتى يكون أكثر عناية بهن ورعاية بهن وما كان ليحدث ذلك وهو المنشغل به وحده ، فحببهن إليه ..

فكان منقطعا الى ربه لا ينظر معه إلى كون من الأكوان لاشـتغاله بالله عن هذه الأكوان ومن فيها وما فيها ، فإن النبى م شغول بالتلقى من الله ومراعاة الأدب فلا يتفرغ إلى شىء دونه ، فهو العبد الكامل والإنسـان الكامل والمؤمن الكامل والرجل الكامل فقد أعطى الكمال فى كل فضيلة ، فحبب إليه النساء فأحبهن ..

وحبه ﷺ لهن كان عناية من الله بهن فكان ﷺ يحبهن لكون الله حببهن إليه ، فكان هذا محض فضل من الله عليهن ورعاية منه لهن أن يحبهن ﷺ ..

أخرج مسلم فى صحيحه أن رجلا قال لرسول الله ﷺ إنى أحب أن يكون نعلى حسنا وثوبى حسـنا فقال ﷺ : « **إن الله جميل يحب الجمال** » ، ومن ذلك حبب إليه ﷺ حبب إليه الطيب وكان من سنته النكاح لا التبتل ، وجعل النكاح عبادة للسر الإلهى الذى أودع فيه وليس هذا إلا فى النساء ...

ولأن حبه ﷺ كان رعاية من الله لهن بحبه لهن بعد أن كان منصـرفا عن أى فى الملكوت عن اهتمامه بالله ، فقد ظهرت هذه الرعاية النبوية بهن فى كثير من المواقف ،

فحين بلغه ﷺ من عائشة شكوى زوجة ابن مظعون من إهماله لها لدرجة أثرت على هذه الزوجة معنويا ونفسيا وشكلا وجوهرا بين النسوة فقد فاتح ابن مظعون وأعطاه درسا شرعيا فى أداب عبادة المؤمن ونفى الكهنوتية عن الإسلام ..

فقد شرع ابن مظعون فى أن يعتزل النساء ويتبتل فى العبادة دون أى من ملذات الدنيا ، لدرجة أنه فكر فى بتر عضو الذكورة حتى لا يقربهن ، مما أثر سلبا على زوجته وبدت مهملة الشكل شاردة الذهن عابسة بين النسوة عند زيارتهن للسيدة عائشة أم المؤمنين وشكت لها أن زوجها لا يقربها ..

وعندما علم رسول الله ﷺ بذلك ، استدعى إبن مظعون ، ليتحقق من ذلك ، وعندما صدقت رواية زوجته فيه ، رده عما هو فيه وقال له : **«ما بالك بى فأنا أصوم وأفطر ، وأنام وأستيقظ ، وأتزوج النساء وهذه سنتى فمن رغب عن سنتى ليس منى »**، ليعود ابن مظعون إلى رشده وصوابه ويرعى زوجته حسبما تدعو السنة النبوية المطهرة ..

وظهر أثر هذه التربية النبوية ، فعندما عادت زوجة ابن مظعون إلى السيدة عائشة ، كانت على حال البسط والسعادة والشكل على غير سابق حالها ،

مما لفت نظر النســوة وعند ســؤالهن لها : ماذا حل بكى يا زوج ابن مظعون ، قالت متبسمة : أصابنا ما يصيب الناس !!!..

فهذه كانت رعاية الرســول ﷺ للمرأة والحرص على إعادة حقوقها فى بيت الزوجية والإرفاق بها ورفع مكانتها والاهتمام بشــؤونها ، حتى وإن كانت أقل درجة ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾، تنفيذا لمراد ربه الذى حببهن إليه رعاية من الله بهن ، فكان ﷺ رؤوفا رحيما حليما معهن ..



النكاح أفضل النوافل

تتفاضـل النوافل فيما بينها ، وتعلو بعلو فرائضـها إذا كانت النوافل كل عمل له أصـل فى الفرائض ، فإذا كانت النوافل تعلو بعلو فرائضها التى هى أ صولها فأعلى نوافل التنزيه فى الخيرات الصيام ، ، لأنه فرض صوم رمضان ، ويقال: أن رمضان اسم الله والصوم عبادة لا مثل لها وهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: 11] ..

والنكاح أفضـل نوافل الخيرات وله أصـل وهو النكاح المفروض فما زاد عليه كان نافلة ، وهو على نوعين فى وقوعه ، المحبة المطلقة ، أو محبة التوالد والتناسل ، فإذا وقع على محبة التوالد والتناسـل التحق بالحب الإلهى ، فكان النكاح المفروض أفضـل الفرائض ، ونافلته أفضل نوافل الخيرات ..

وقال أبوحنيفة فى النكاح: إنه أفضـل نوافل الخيرات ، وقد حبب إلى رسـول الله ﷺ النساء رعاية من الله بهن ، وكان أكثر الأنبياء نكاحا لما فيه من التحقق بالصورة التى خلق عليها ..

هو القاسم المشترك :

والنكاح هو القاسم المشترك فى كل شىء فى الوجود ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾، فجعل الله العالم فى مقام الزوجية ، ذلك المقام الذى يستلزم النكاح لعمل هذه الأشياء وتمام تكليفها لأداء مهمتها التى خلقت من أجلها فى الوجود ..

الليل والنهار موجودان فى الزمان وجعلهما الله أبا وأما لما يحدث فيهما كما قال : ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ [الأعراف: 54] ، كمثل قوله فى آدم : ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ ﴾ [الأعراف: 189] ، إذا غشى الليل النهار كان الليل أبا والنهار أما ..

وصار كل ما يحدثه الله فى النهار بمنزلة الأولاد التى تلد المرأة ، وإذا غشى النهار الليل كان النهار أبا والليل أما وكان كل ما يحدث الله من الشؤون فى الليل بمنزلة الأولاد التى تلد الأم ..

وكذلك قال تعالى : ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ﴾ [فاطر: 13] فزاد بيانا وإيضاحا فى النكاح ، وأبان سبحانه وتعالى ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ ﴾ [يس: 37] ، أى الليل أم له ، وأن النهار متولد عنه ، كما ينسلخ المولود من أمه إذا خرج منها ، والحية من جلدها فيظهر مولودا فى عالم آخر غير العالم الذى يحويه الليل والأب هو اليوم الذى ذكرناه ..

وأما الآباء الطبيعيون والأمهات ، فالأبوان هما الفاعلان والأمهات هى المنفعلات وما يحدث عنهما هما المنفعل عنهما ، فالحرارة والبرودة فاعلان ، والرطوبة واليبوسة منفعلان ، فنكحت الحرارة اليبوسة

فأنتجت ركن النار ، ونكحت اليبوسة الحرارة فأنتجت ركن الهواء ، ثم نكحت البرودة الرطوبة فأنتجت ركن الماء ، ونكحت البرودة اليبوسة فأنتجت ركن التراب وكان الهواء حارا رطبا فحرارته من جهة الأب وبرودته من جهة الأم ..



الفصل الرابع القرآن محمد ﷺ

من كان خلقه القرآن:

قال أحد الأكابر من أهل الله : الأنبياء إلى أممهم عطية ونبينا ﷺ هدية ، وفرق بين العطية والهدية ، لأن العطية للمحتاجين والهدية للمحبوبين ، قال ﷺ « **إنما أنا رحمة مهداه** » (ابن سعيد والحاكم عن أبى هريرة) ..

إن كل شــىء عظمه الله يجب على كل مؤمن أن يعظمه لتعظيم الله له ، فلينظر المؤمن فى القرآن ، فكل نعت فيه قد مدحه الله ومدح به طائفة من عباده كانوا ما كانوا ، فهذه صفة مدح إلهى فليعمل المؤمن على الاتصاف بتلك الصفات ، ويتجنب الصفات التى ذمها الله فى القرآن ، أى على المؤمن أن يأخذ القرآن على أنه منزل فيه هو وكأن الله قد خاطبه به هو ، فإذا فعل ذلك كان خلقه القرآن ..

انظروا القرآن تبصروا محمدا ﷺ:

ومن لم ير رسول الله ﷺ ، فلينظر فى القرآن فسيبصر محمدا ﷺ ، سئلت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ قالت : كان خلقه القرآن ، كان قرآنا يمشى على الأرض ، وإن قالت ذلك لأنه أفرد الخلق ،

ولابد أن هذا الخلق المفرد جامعا لمكارم الأخلاق كلها ، ووصــف الله ذلك الخلق بالعظمة كما وصــف القرآن فى قوله ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: 87] ، فكان القرآن خلقه ، فمن أراد أن يرى رســول الله ﷺ ، ممن لم يدركه من أمته فلينظر إلى القرآن فإذا نظر فيه فلا فرق بين النظر إليه وبين النظر إلى رسول الله ﷺ ..

فكأن القرآن انتشــأ صــورة جســدية يقال لها محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، والقرآن كلام الله وهو صـفته ، فكأن محمد صـفة الحق تعالى بجملته فمن يطع الر سول فقد أطاع الله لأنه لا ينطق عن الهوى فهو لـ سان حق ، فيكون محمد ﷺ ما فُقد من الدار الدنيا لأنه صورة القرآن العظيم ..

وقد أعطى لمحمد ﷺ ما أعطى لكل نبى قبله ، كما كان فيه ما لم يكن فى نبى قبله لأن القرآن كان خلقه فأعطى هو وأمته ما لم يعط لنبى قبله ، لأن القرآن ثابت لا ينســخ كمثل ما حدث للكتب التى سبقته فهو الكتاب الجامع الأ شد ثباتا فإنه لا ينسخ ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: 38] وفيه ما فى الكتب السابقة وما ليس فى الكتب السابقة ..

العبد والسيد معا :

وجمع محمد بين الضدين فى نشأته فكان عبدا و سيدا حقا خلقا بل هو العالم الذى هو عين الضدين ..

فقد صحت السيادة للرسول ﷺ فى الدنيا بكل وجه ومعنى ، « علمت علم الأولين وعلم الآخرين » ، « **ولو كان موسى حيا ما وسعه أن إتبعنى** » ، ثم نزول عيسى عليه السلام وحكمه فينا بالقرآن ، فصحت لمحمد ﷺ السيادة فى الدنيا ..

ثم أثبت له السيادة على الناس يوم القيامة بفتح الشفاعة ولا يكون ذلك لنبى يوم القيامة إلا لمحمد ﷺ، فقد شفع ﷺ فى الرسل والأنبياء أن تشفع نعم ، وفى الملائكة فأذن الله تعالى عند شفاعته فى ذلك لجميع من له شفاعة من ملك ورسول ونبى ومؤمن أن يشفع ..

فهو أول شافع بإذن الله وأرحم الراحمين آخر شافع يوم القيامة فيشفع الرحمن عند المنتقم أن يخرج من النار من لم يعمل خير قط ، فيخرجهم المنعم المتفضل ، وأى شرف أعظم من دائرة تدور يكون آخرها أرحم الراحمين سبحانه وتعالى وأولها محمد ﷺ..

وآخر الدائرة متصل بأولها ، فأى شرف أعظم من شرف محمد ﷺ حيث كان ابتداء هذه الدائرة حيث اتصل بها آخرها لكمالها ، ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: 43] ،

و ما أظهر من غلظة على أحد إلا عن أمر إلهى حين قيل له ﴿ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [التوبة: 73] ، فإن الكواكب اندرجت فى نور الشمس ، فالنهار لنا والليل وحده لأهل الكتب إذا أعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ..

قال رسول الله ﷺ بشأن عدد الأخلاق التى يعطيها الله منحة لمن يشاء : أن لله ثلاثمائة خلق من تخلق بواحدة منها دخل الجنة ، ولهذا قال فى الثلاثمائة إنها على قلب آدم عليه السلام يعنى هذه الأخلاق التى منح الله آدم ، فمن كملت نشأته من بنيه قبل هذه الأخلاق الثلاثمائة من الخلق ومن لم يكمل كمال آدم فله منها على قدر ما أعطى من الكمال فمنهم الكامل ومنهم الأكمل ..

الأخلاق الوهبية :

وهذه الأخلاق لا تكتسب بالمجاهدة بل يعطيها الله اختصاصا ، ولا يصح التخلق بها لأنه لا أثر لها فى الكون ، وإنما هى تجليات إلهية ، لا يكون شىء من هذه التجليات إلا لمن له هذه الأخلاق ، فهى أخلاق لا تعلق لها لمن كان عليها واتصف بها إلا مع الله خاصة وهى هذه الثلاثمائة ولها من الجنات جنة مخصوصة لا ينالها إلا أهل هذه الأخلاق ..

ثم إن هذه الأخلاق هى بالنسبة لمن تخلق بها كالخلوق الذى يتطيب به الإنسان ، فإن وجود الرائحة الطيبة لمن يضعها لا جهد للمتطيب فيها ، إنما يثنى عليها لذاتها ، فإذا شممت رائحة عطر طيبة على أحد ، يكون ثناؤك على العطر فى الأساس لا على من يضع العطر ، كذلك هذه الأخلاق لأنها إلهية ذاتية فإن الثناء عليها ممن يشهدها على أحد ، عليها هى لا على من تخلق بها ، فهذا من خصائصها ، فكل خلق تجده بهذه المثابة هو من الثلاثمائة ..

وصفة الكرم على سبيل المثال ليست منها ، فبرغم من أن الكرم خلق من أخلاق الله ، ولكن إذا تخلق به العبد أثنى عليه بأنه كريم وكذلك الرحمة يقال فيه رحيم ، أما هذه الأخلاق لا ينطلق على من اتصف بها اسم فاعل جملة واحدة ولكن ينطلق عليها اسم موصوف بها ، والسبب أنه لا تعلق لها بالكون ، إلا بحكم الاشتراك كالغفور ، ولا بحكم الاختصاص كالشديد العقاب ، ويعطيها الاسم الوهاب من غير المنة ..

النور المستور :

وهناك أخلاق أخرى لله : إن لله مائة و سبعة عشر خلقا ، وهذه الأخلاق مخصوصة للأنبياء عليهم السلام ، ليس لمن دونهم فيها ذوق ولكن لمن دونهم تعريفاتها ، فتكون عن تلك التعريفات أذواق ومشارب ..

من هذه الأخلاق خلق النور المستور وهو من أعز المعارف إذ لا يتمكن فى النور أن يكون مستورا فإنه لذاته يخرق الحجب ، ومن هذه الأخلاق خلق اليد وهو القوة وهو مخصوص بالقلوب وأصحابها وهو على مراتب فكيف وكز موسى الرجل فأرداه قتيلا ..

ومن هذه الأخلاق انعدام الأسباب فى عين وجودها ، وغيرها ، وهذه الأخلاق لها مراتب وطبقات مختلفة ومنها من للأنبياء ومنها للأولياء على مراتبهم وأذواقهم ..

وهذه الأخلاق كلها للرسل إلا اثنتين منها ، غير أنها جمعت جميعها لمحمد ﷺ فهى كلها له فإنه جمعها بل هى جمعت له عناية أزلية ، قال الله تعالى : ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: 253] فيما لهم به من هذه الأخلاق ..

قبة الوجود محمد ﷺ :

ولنعلم أن الله عندما خلق الخلق خلقهم أصنافا ،وجعل فى كل صنف خيارا واختار من الخيار خواص وهم المؤمنون ، واختار من المؤمنين خواص وهم الأولياء ، واختار من هؤلاء الأولياء خلاصة وهم الأنبياء ، واختار من الخلاصة نقاوة وهم أنبياء الشرائع المقصورة عليهم ، واختار من النقاوة شرزمة قليلة هم صفاء النقاوة

وهم الر سل أجمعهم، وا صطفى واحدا من خلقه هو منهم وليس منهم ، هو المهيمن على جميع الخلائق جعله الله عمدا أقام عليه قبة الوجود، جعله أعلى المظاهر وأســناها ، صح له المقام تعيينا وتعريفا ، ، فعلمه قبل وجود طينة البشر ..

هو محمد ر سول الله ﷺ لا يكاثر ولا يقاوم ، وهو السيد ومن سواه سوقه ، قال عن نفسه : أنا سيد الناس ولا فخر بالراء والزاى روايتان ، أى أقولها غير متبجح بباطل ، أى أقولها ولا أقصد الافتخار على من بقى من العالم ، فإنى وإن كنت أعلى المظاهر الإنسانية، فأنا أشــد الخلق تحققا بعينى ، ليس الرجل من تحقق بربه وإنما الرجل من تحقق بعينه لما علم أن الله أوجده له تعالى لا لنفسه ، وما فاز بهذه الدرجة ذوقا إلا محمد ﷺ وكشفا إلا الرسل ، وراسخوا علماء هذه الأمة المحمدية ..

وصفه ﷺ :

ارتفعت مكانة الصحابة ومنزلتهم على رؤوس العالمين بسبب اجتماعهم به ﷺ ولرؤيتهم له ﷺ والنظر إليه ، وكذلك كانت رؤية صورته الشريفة فى المنام من أكبر منن الله على المسلم الصادق ، فقد قال ﷺ : «**من رآنى فى المنام فقد رآنى**» (أخرجه البخارى ومسلم) ..

وقد تعجب أصحابه من جماله ، وقد كانت لرؤيته أثر كبير فى إرتقاء الناس فى الدنيا والآخرة ، فبرؤيته يرقى العبد فى مدارج العبودية إلى الله ومسالك الطريق إليه سبحانه وتعالى ..

فقد قال عنه حسان بن ثابت :

رسول الله ياخير البرايا — دخيل يا ختام الأنبياء
رسول الله إنى مستجير — بجاهك والزمان له إعتداء
وظنى فيك يا طه جميل — ومنك الجود ينبع والسخاء
وحاشا يا رسول الله ترضى — وفينا من يعذب أو يساء
خلقت مبرءًا من كل عيب — كأنك قد خلقت كما تشاء
وأجمل منك لم تر قط عينى — وأكمل منك لم تلد النساء
عليك صلاة ربى ما توالت — دهورا أو تلا صبحا مساء

فكان هذا الجمال المغلف بالجلال والمكسو بجميل الخصال سببا فى دخول الإيمان قلب كل صادق ، وكان أصحابه يعظمونه ويهابونه ويقومون لهذا الجمال والجلال تأدبا منهم ، وعجزوا عن ترك القيام بالرغم من أن النبى نهاهم عن ذلك القيام (أخرجه أبو داوود فى سننه) لشدة جماله وبهائه ﷺ ..

أم معبد :

فقد وصفته أم معبد ، وهند ابن أبى هالة ، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم ، تقول أم معبد : « رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، أبلج الوجه (مشرق الوجه) ، لم تعبه نحلة (نحول الجسم) ، ولم تزر به صعلة (الصعلة صغر الرأس ، وخفة البدن ونحوله) ، وسيم قسيم (حسن وضىء) ، فى عينه دعج (شدة السواد) ، وفى أشفاره وطف (طويل شعر الأجفان) ، وفى صوته صهل (بحة وحسن) ، وفى عنقه سطع (طول) ، وفى لحيته كثاثة (كثافة الشعر) ، أزج أقرن (حاجباه طويلان ورقيقان ومتصلان) ، إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد ، وأجلاهم وأحسنهم من قريب ،

حلو المنطق ، فصــل لا نزر ولا هذر (كلامه وســط ليس بالقليل ولا بالكثير) ، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن ، ربعة لا تشنؤه من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر (ربعة ليس بالطويل البائن ولا بالقصير) ،

غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدرا ، له رفقاء يحفون به ، إن قال أنصتوا لقوله ، وإن أمر تبادروا لأمره ، محشود محفود (عنده جماعة من أصحابه يطيعونه) ، لا عابس ولا مفند (غير عابس الوجه وكلامه خالى من الخرافة) ((رواه الطبرانى فى الكبير)) ..

أما ما يتعلق بتفاصيل حسنه ﷺ ووصف جسده حتى نتخيل صورته الشريفة ، عسى الله أن يرزقنا رؤيته ﷺ فى الدنيا والآخرة : حسنه ﷺ : إذ قال أصحابه : كان ﷺ أحسن الناس وجها وأحسنهم خلقا ، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير (أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير) ، وكان النبى ﷺ إذا سر ا ستنار وجهه ، حتى كان وجهه ﷺ قطعة من قمر (أخرجه البخارى ومسلم) ، كان وجه النبى ﷺ مثل الشمس والقمر وكان مستديرا (أخرجه مسلم فى صحيحه) ..

فخما مفخما :

لونه ﷺ « كان النبى ﷺ أبيض اللون أزهر حسن الوجه ، أبيض مليح الوجه ، (أزهر اللون يعنى أبيض مشـــرب بحمرة) . ، أما وجهه ﷺ كالقمر يتلألأ كما ذكر هند بن أبى هاله رضـــى الله عنه وغيره حيث قال : كان ﷺ فخما مفخما ، يتلألأ وجهه كتلألؤ القمر ليلة البدر (أخرجه البخارى ومسلم) .. صلى الله عليك ياحبيبى يا رسول الله ..



وتقلبك في الساجدين

أصلاب الطاهرين :

من كرم الله على نبيه ﷺ أن كل الأ صلاب التى تقلب وانتقل فيها محمد ﷺ من آدم عليه السلام حتى مولده ﷺ كلها كانت أ صلابًا شريفة لم تكن كافرة ولم تسجد لصنم قط ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾..

لقد قالها القرآن صــريحة بما يعنى أن نطفة النبى الأكرم قد تقلبت فى ظهور آبائه الساجدين ، وكلهم موحدون وهم من ذرية إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ ، فكل آباء الأنبياء موحدون فما بالك بسيدهم نبينا الأكرم عليه وآله السلام ..

حدثنا الحسن ابن على ، قال : ثنا أبو عا صم الضحاك ابن مخلد عن شبيب عن بشر عن ابن عباس ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الشــعراء: 219]، قال : من نبى إلى نبى حتى صرت نبيا ..

وأخرج ابن أبى حاتم وإبن مردو يه فى الدلا ئل عن إبن عباس فى قو له ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ قال : مازال النبى ﷺ يتقلب فى أصلاب الأنبياء حتى ولدته أمه ..

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : سـألت الرسـول ﷺ فقلت بأبى أنت وأمى أين كنت وآدم فى الجنة ؟؟؟ فتبسـم حتى بدت نواجزه ثم قال : « **إنى كنت فى صـلبه ، وهبط فى الأرض وأنا فى صلبه ، وركبت السفينة وأنا فى صلب أبى نوح ، وقذفت فى النار وأنا فى صـلب أبى إبراهيم ، ولم يلتق أبواى قط على سـفاح ، فلم يزل الله ينقلنى من الأصـلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا ، لا تتشعب شعبتان إلا أنا فى خيرهما** »..

وقد أخذ الله بالنبوة ميثاقى ، وبالإسـلام هدانى ، وبين فى الإنجيل والتوراة ذكرى ، وبين كل شىء من صفتى فى شرق الأرض وغربها ، وعلمنى كتابه ، ورقى بى فى سمائه ، وشـق لى من أسـمائه فذو العرش محمود وأنا محمد ووعدنى أن يحبونى بالحوض ، وأعطانى الكوثر ، وأنا أول شافع ، وأول مشفع ، ثم أخرجنى فى خير قرون أمتى ، وأمتى الحمادون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ..

يروى الإمام البهيقى رحمه الله عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله متى بدأ أمرك ؟؟ فقال : دعوة إبراهيم ونبوءة موسى وبشارة عيسى ورؤيا أمى آمنة » ..

وقال ﷺ : «**لايزال الله يخرج بى من أصلاب الطاهرين إلى فروج الطاهرات**» ، فقد خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح » ، وهو القائل **أنا خيار من خيار من خيار من خيار ، إن الله ا صطفى من ولد إبراهيم إ سماعيل ومن إ سماعيل كنانة ومن كنانة قريش ومن قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم** » ..

دعوة إبراهيم ونبوءة موسى :

فقد قال إبراهيم وإبنه إسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ..[البقرة:127- 129]

وجاءت نبوءة موسى عليه السلام وجاء فيها ومن آمن بالنبى الخاتم فقد أفلح ، وصدق الله القائل : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[الأعراف: 157] ..

وبشارة عيسى ورؤيا آمنة :

وتحققت بشارة عيسى عليه السلام حيث بشر بمجيء محمد ﷺ وأمرهم أن يؤمنوا به لكنهم قالوا سحر مبين ..، وصدق الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف: 6] ..

وتحققت رؤيا أمه آمنة بنت وهب فقد رأت كأن نورا قد خرج منها فأضاء المشرق والمغرب وسمعت من يقول لها إنك حملت سيد الأولين والآخرين فإذا وضعتيه فسميه محمدا وقولى: أُعيذه بالله الواحد من شر كل حاسد، ومن كل بر عاهد، ومن كل عبد رائد يذوذ عنى ذائد حتى أراه قد أتى المشاهد ..

نور بين عينى والده :

وتمر الأيام ويقترن عبد الله والد رسول الله ﷺ بآمنة بنت وهب وكان بين عينيه نور توسمته السيدة رقيقة بنت نوفل، لما سمعته من بشارات من أخيها ورقة ابن نوفل فعرضت نفسها عليه ليتزوجها فرفض ولما تزوج بآمنة وانتقل النور إليها عاد لرقيقة يعرض عليها فلما لم تجد النور قالت له: لا حاجة لى بك لتكون آمنة الوعاء لهذا النور الكريم

والله أعلم حيث وضع رسالته ، وبعد شهرين من حمل رسول الله ﷺ توفى والده عبد الله ، فتضرعت الملائكة إلى الله قد أصبح رسولك يتيما: فمن يكفله ؟؟ فقال الله: أنا كفيله وأنا ناصره وأنا وليه ..

وتمر أشهر الحمل على آمنة فما أحست تعبا و لا نصبا و لا وحما و لا ألما كما يشعر النساء ، حتى جاء فجر الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول عام الفيل والطير الأبابيل فيولد محمد رسول الله ﷺ ، لتتحول الدنيا من ظلام دامس إلى نور آبد ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[الأحزاب: 45، 46]..

فلم يزل الرسول ﷺ يتقلب فى أصلاب النبيين من نبى إلى نبى حتى أخرجه من صلب أبيه ، مما يعنى أن جميع آبائه ﷺ وآله كانوا موحدين بل كانوا من الأنبياء حتى والده ، ولا مانع أن يكونوا كذلك ، فقد كان ثمة أنبياء تقتصر نبوتهم على أنفسهم ،وعلى المحيط المحدود الذى يعيشون فيه ، وقد تمتد نبوتهم إلى العشيرة أو الحى أو البلد الصغير أو الكبير من أجل أن يحفظوا الحق والخير فى الناس بالمقدار الممكن لهم ، بحسب ما يوجههم الله سبحانه وتعالى إليه ويأمرهم به ..

مسألة آذر عم إبراهيم:

وكعادة أعداء الإسـلام ، وكذلك أصـحاب الفهم المتسـرع للأمور والمتشـككين السـطحيين ، يتسـاءلون كيف كانت الأصـلاب النبوية شـريفة غير مشـركة غير كافرة لم تسجد لصنم قط ، فى ظل الحوار الذى دار بين إبراهيم وأبيه آذر والذى يظهر أن آذر كان مشـركا عابدا للأصـنام والأوثان ، وبالتالى فإن آذر ليس صـلبا شـريفا لإبراهيم وبالتالى لمحمد ﷺ ..

ولأن إبراهيم عليه السـلام هو الأب للأنبياء عليهم السـلام والذى تقلب فيه وانتقل منه محمد ﷺ ، فيثير البعض ويتسـاءل كيف كل أصـلاب النبى شـريفة غير كافرة غير مشركة ، فى وجود آذر أب إبراهيم وكان مشركا يعبد الأصنام ..

وصـدقوا فيما قالوا: أن آذر كان مشـركا عابدا للأصـنام والأوثان ، غير أنهم كذبوا وضلوا وأخطؤوا فى أن آذر هو الأب لإبراهيم عليه السلام ولهذا تسقط فريتهم فى مسألة التشكيك فى الأ صلاب الشريفة لمحمد (محمد) ، فآذر لم يكن أبا لإبراهيم بل كان أحد أعمامه ..

أبوة العموم :

ولذلك قال : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ ﴾ ، ولم يقل وإذ قال: إبراهيم لأبيه فقط فدل ذلك على العم شقيق الأب، بما يعنى أنه قصد أبوة العموم وليست الأبوة المباشرة وهذا ينفى أن آذر هو أبو إبراهيم بل عمه شقيق والده ، وبالتالى فهو ليس كوالده ..

فمن عادة العرب وهذا الأمر لازال قائما فى مجتمعاتنا الريفية حتى يومنا هذا ، أننا نطلق على العم شقيق الأب كلمة الأب ولكن مقترنة باسمه مع كلمة أب ..

فعندما قرب يعقوب من الموت جمع أبنائه ليسألهم عمن سيعبدون من بعده ؟؟ ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[البقرة: 133] ..

فهنا كان الخطاب لليهود من أبيهم يعقوب ابن إسحاق الشقيق الأصغر لإسماعيل ابن إبراهيم ، وهى وصية لأبنائه من الأسباط بأن يعبدوا الله الإله الواحد لإبراهيم جدهم ولكل من إسماعيل وإسحاق ، وكان إسماعيل العم أبا كما تسمى الخالة أما ..

ورغم و صية يعقوب إلى أبنائه أنبياء اليهود ، بألا يموتوا إلا وهم م سلمون ، فإنهم قد خالفوه وحنثوا بو عدهم له وفعلوا ما لم يقره أو يقو له رغم تأكيده على و حدانية الإ له الواحد لإبراهيم وذريته ، وهو نفس مافعله الآخرون رغم بشرى عيسى عليه السلام ..

ومثل آخر أورده القرآن فى التدليل على كلمة أبوة العموم عند ما قال يعقوب لبنيه لحظة اقترا به من الموت : ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: 133] ، مع إن إسماعيل كان عم يعقوب وإبراهيم كان الجد وإسحاق كان الأب له ، فجمعت الآية بين أبوة الجدود وأبوة العموم والأبوة المبا شرة المتمثلة ليعقوب فى إسحاق ، إذن أطلق على إسماعيل وهو العم كلمة الأب ولكنها مقترنة باسمه إسماعيل فهم من أباء للأسباط ..

فإن إبراهيم عليه السلام كان له من البنين إسماعيل أولا ثم إسحاق الذى أنجب يعقوب أبو الأسباط ، فى حين ينتمى الرسول محمد ﷺ إلى إسماعيل من إبراهيم عليهما السلام ، بوصف إسماعيل أبو العرب ..

عم الرجل صنو أبيه :

وقال رسـول الله ﷺ : عم الرجل صـنو أبيه ، وقال فى عمه العباس : ردوا على أبى من يد قريش خوفا من أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود وذلك أنهم قتلوه ..

وجاء القرآن ليؤكد الله تعالى على شرف أصلاب حبيبه المصطفى ﷺ فى الآية الكريمة ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾[الشعراء:219] التى أكدت أن محمدا ﷺ قد انتقل من آدم حتى ظهوره ومولده فى أصلاب شريفة لم تسجد لصنم قط ..



الخلافة لمحمد ﷺ وآدم وداوود

الدنيا محل تكليف العبد:

قال أبو العباس المرسي رضي الله عنه خلق الله آدم بيده وأسجد له ملائكته، وأسكنه الجنة نصف يوم أى خمسمائة عام ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، ثم نزل به الى الأرض، فوالله ما نزل الله بآدم الى الأرض لينقصه، ولكن نزل به الأرض ليكمله، ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30] ما قال فى الجنة ولا فى السماء فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة فإنه كان يعبد الله فى الجنة بالتعريف، فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف، فلما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفة ..

فكانت الخلافة لآدم عليه السلام دون غيره من أجناس العالم لكون الله تعالى قد خلقه على صورته، وإن كان ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾، فالخليفة لابد أن يظهر فيما أستخلف عليه بصورة مستخلفه بضم الميم، وإلا فليس بخليفة له فيهم، فأعطاه الأمر والنهى و سماه بالخليفة، وجعل البيعة له بالسمع والطاعة ..

وأمر الله عباده بالطاعة لله والرسول ﷺ والطاعة لأولى الأمر منهم ، فجمع رسول الله ﷺ بين الرسالة والخلافة كداود عليه السلام، فإن الله نص على خلافته عن الله ، يقول تعالى : ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ [ص: 26] ، وأجمل خلافة آدم عليه السلام ..

الفرق بين الرسول والخليفة :

ولا أتحدث هنا عن الخلافة التى يخلعها الشيخ فى الطريق الصوفي على بعض أتباعه المقربين ليمثلوه فى إحدى المدن أو المناطق أو الأحياء ، فهذا شأن آخر إنما حديثى يتناول خلافة الله للإنسان فى الأرض ..

فليس كل رسول خليفة ، فمن أمر ونهى وعاقب وعفا وأمر الله بطاعته وجمعت (بضم الجيم) له هذه الصفات كان خليفة ، ومن بلغ أمر الله ونهيه ولم يكن له من نفسه إذن من الله تعالى أن يأمر وينهى فهو رسول يبلغ رسالات ربه ..

وبهذا يظهر الفرق بين الرسول والخليفة ولهذا جاء بالألف واللام فى حق محمد ﷺ كقوله تعالى ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 80] ، وقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 59] أى فيما أمركم به على لسان رسوله ﷺ

مما قال فيه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ ﴾ [النساء: 58] وهو كل أمر جاء فى كتاب الله تعالى ، ثم قال : ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: 59] ففصل أمر طاعة الله عن طاعة الرسول ﷺ ..

فنحن مأمورون بطاعة رسول الله ﷺ عن الله بأمره ، وقال تعالى ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[النساء: 80] وطاعتنا له فيما أمر به (ص) ونهى عنه مما لم يقل هو من عند الله فيكون قرآنا ، قال تعالى : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر:7] فأضاف النهى إليه ﷺ فأتى بالألف واللام فى الرسول يريد بهما التعريف والعهد أى الرسول الذى استخلفناه عنا فجعلنا له أن يأمر وينهى زائد على تبليغ أمرنا ونهينا إلى عبادنا ..

ثم قال : ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء: 59] أى إذا ولى عليكم خليفة عن رسول الله أو وليتموه من عندكم كما شرع لكم فاسمعوا له وأطيعوا ، ولو كان عبدا حبشيا فإن فى طاعتكم إياه طاعة للرسول ﷺ ولهذا لم يستأنف فى أولى الأمر أطيعوا واكتفى بقوله : ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: 59]

ولم يكتف بقوله : ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء:59]عن قوله ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: 59]ففصل لكونه تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11] ..

واستأنف القول بقوله : ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: 59]، فهذا دليل على أنه تعالى قد شرع له ﷺ أن يأمر وينهى ، وليس لأولى الأمر أن يشرعوا شريعة إنما لهم الأمر والنهى فيما هو مباح لهم ولنا ، فإذا أمرونا بمباح أو نهونا عن مباح وأطعناهم ، فإن فى ذلك أجر من أطاع الله فيما أوجبه عليه من أمر ونهى وهذا من كرم الله بنا ..

لماذا داوود :

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: 24] ، لما كان اسم داوود عليه السلام أقرب الشبه باسم آدم ، مقارنة بباقى بنى آدم ، أورد الله فى القرآن خلافته فى الأرض كما صرح بخلافة آدم فى الأرض ، فحروف اسم آدم غير متصلة ببعضها ، وكذلك حروف اسم داوود ، إلا أن الفرق بين اسم داوود واسم آدم ، أن اسم آدم انتهى بحرف الميم الذى من صفته القبول بالاتصال القبلى والبعدى فأتى الله به آخرا حتى لا يتصل به حرف سواه ، وجعل قلبه واحدا من الحروف الستة التى لا تقبل الاتصال البعدى ، فأخذ داوود من آدم ثلثى مرتبته فى الاسم ، وأخذ محمد ﷺ ثلثيه أيضا

وهو الميم والدال ، غير أن محمدا متصـــل كله ، والحرف الذى لا يقبل الاتصـــال البعدى جعله آخرا حتى يتصل به (بضم الياء) ولا يتصل هو بشىء بعده ..

وهو قوله ﷺ « **لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صـاحبكم خليل الله** » ، فيتصل به ولا يتصل هو بأحد ، فناسب محمد آدم عليهما الصلاة والسلام من وجهين : الأول مناسـبة النقيض بالاتصـال بآدم وآدم له الانفصـال كداوود ، والميم من آدم كالدال من محمد ، فجاءتا آخر أى فى آخر اســميهما ، والثانى : مناســبة النظير التى بين آدم ومحمد فى كون الحق ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: 31] ، وأعطى محمدا جوامع الكلم وعمت رسالته كما عم التناسل من آدم فى ذريته ..

فالناس بنو آدم والناس أمة محمد ﷺ من تقدم منهم ومن تأخر لأنه ﷺ قال : « آدم ومن دونه تحت لوائى » ، فنظر آدم لداوود دون غيره من أولاده ، فاســتقل عمره فأعطاه من عمره ســتين عاما وهو عمر محمد ﷺ فلما وصــل إلى الميم من اســمه رأى صــورة محمد ﷺ فى الميم فرجع عن داوود لأنه فارق رؤية الألف والدال فرجع فى عطيته التى أعطاها داوود من عمره فدخل تحت لواء محمد ﷺ ..

أما تصــريح الحق بالخلافتين فى حقهما فقوله تعالى فى خلافة آدم ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: 30] ، يريد آدم وبنيه ، وأمر الملائكة بالسجود له ، وقال تعالى فى داوود : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [ص:26] ، غير أنه قال فيه ما لم يقل فى آدم : ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [ص:26] .

وتفســير ذلك القول بإتباع الهوى ، ، أنه لما لم يعلم فى اســمه حرف من حروف الاتصال ، فما فى اسمه حرف يتصل بآخر من حروف اسمه ، فعلم أن أمره فيه تشتيت لما كان لكل إنسان من اسمه نصيب ، فكان نصيبه من اسمه ما فيه من التشتيت ، فأوصاه تعالى ألا يتبع الهوى ، لإنفراد كل حرف من اسمه بنفسه ..

فلما علم ذلك داوود بما أعلمه الله بطريق التنبيه فى نهيه إياه ألا يتبع الهوى لإنفراد كل حرف من اسمه بنفسه ، ولم يقل هواك ، أى لا تتبع هوى أحد يشير عليك وأحكم بما أوحيت به إليك من الحق فإن الهوى ما له حكم إلا بالاتصال ،

وحروف اسم داوود لا تقتضى الاتصال فعصمه الله ، فلما وصاه الحق تعالى استغفر ربه أى: طلب الستر من الله بما يحول بينه وبين الهوى المضل ..

و سقط على الأرض اختيار قبل أن تسقط الأهواء وتؤثر فيه ، فكان ركوعه رجوعا إلى أصله من نفسه فهو عين الستر الذى طلبه فى استغفاره ، فلما جاء الهوى لم يجد شيئا منتصبا قائما يرده عن مجراه ، فيؤثر فيه فراح عنه ولم يصبه ،وعصمه الله و ستره ، وليس الابتلاء مما يحط درجة العبد عند الله ، بل ما يبتلى الله إلا الأمثل فالأمثل ..



الفصل الخامس أهل البيت وآل البيت

قد يختلط الأمر على الكثيرين منا فى اســتخدام لفظ أهل البيت ،وآل البيت ، وتعددت الروايات ، فهناك من قال: لا فرق بينهما وهناك من قال :إن الأولى ليســت كالآخرة ، فكان لزاما أن نقدم قدرا من التوضيح استنادا إلى الأدلة القرآنية لتبيان الفرق بينهما ..

إن كلمة آل قد تســتخدم فى نحو خمســة معان ، وأن من جملة هذه المعانى : آل بيت رسول الله ﷺ ، وهو كل مسلم وإن كان عاصيا ..

وبناء على هذا الأمر فإن جميع المســلمين والمؤمنين يعتبرون من آل بيت رســول الله ﷺ ، وأما من حازوا شــرف القرب إليه خاصــة ،فهم أهل البيت وهى للخصــوص ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [هود: 73] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: 33] ..

فى الآيتين السابقتين استخدم الله تعالى قرابة النبى ﷺ بقوله :« أهل البيت » ولم يذكر فى الإشارة إلى قرابة الرسول ﷺ كلمة « آل » ، وأهل البيت هنا هم أهله وقرابته وزوجاته وهم الذين لهم الشــرف ، أكرمهم الله بشــرف النســب إلى رســول الله عن طريق ســيدنا الحسن والحسين وعن ذريتهما إلى يوم الدين ..

أما كلمة الآل ذكرت فى القرآن وأريد بها الأتباع ، قال الله تعالى : ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا ﴾[سبأ: 13]، والمراد بالآل هنا آل داوود وأمته وأتباعه الذين آمنوا به ..

ثم أن آل ا ستخدمت فى القرآن أيضا مع فرعون وأتباعه : ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر: 46] ..

الآل ليست كالأهل :

وآل فرعون هنا هم أتباعه الذين آمنوا به وكفروا بالله تعالى ، وما يؤكد الفرق بين اللفظين وأن الآل تعنى الأتباع ، كما أن الآل ليست كالأهل وإلا دخلت آسية زوجة فرعون فى الكلام عن العذاب ..

فالله تعالى لم يستخدم مع فرعون كلمة أهل لأن ذلك كان سينسحب على زوجته المؤمنة التى استجارت بالله من فرعون وعمله وطلبت منه أن ينجيها الله منه ويبنى لها بيتا فى الجنة ..

وكيف يكون ذلك لآسية وهى من النساء الكمل كحديث رسول الله ﷺ « **كمل من الرجال كثير وكمل من النساء أربع مريم بنت عمران وآسية زوجة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ** » ..

ولأنها من الكمل لم تستجير بموسى عليه السلام بل استجارت بالله تعالى ، لأن الكامل لا يستجير بالكامل ، فلا يصح لها أن تطلب ذلك من نبيها موسى بل طلبته من الله تعالى : ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ [التحريم: 11] (□) .

كذلك الأمر فى الصلاة الإبراهيمية أن كلمة الآل تشمل كل من آمن بمحمد ﷺ وآله وصحبه وسلم لأنه كما رأينا فى مقام الدعاء :« اللهم صلى على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد » أى صل عليه وعلى أتباعه من المسلمين والمؤمنين ..

ومن باب دخول الخاص فى العام يدخل أهل البيت فى هذه الصلاة ، بل هم الأصل والأولى من غيرهم ، فيدخل هنا الأهل على وجه الخصوص فى الآل التى هى على وجه العموم ، إذ هناك فرق بين الآل والأهل ، وأن كلمة الأهل لخصوص القرابة والاتصال ، وكلمة الآل للعموم ..

وأيضا عندما أراد رسول الله ﷺ أن يزيد سلمان الفارسى عنه شرفا أدخله فى أهل البيت حيث يقول : « **سلمان منا أهل البيت** » فهو فى الأصل داخل فى الآل كونه مؤمنا ، لكن عندما أراد رسول الله ﷺ أن يزيده شرفا أدخله فى أهل البيت ..

(□)مفتاح الجنة – محمد الهاشمى .

وأن آل محمد ليست كأهل البيت ، فقد قال رسول الله ﷺ « **لكل نبى آل وعدة وآلى وعدتى المؤمن** » ، ومن أسمائه تعالى المؤمن ، وهو العدة لكل شدة ، أما الآل هو ما يعظم به الأشخاص فعظم الشخص يسمى الآل ، فآل محمد أى العظماء بمحمد ﷺ ، ومحمد ﷺ يعظم من يكون فيه ، آل أبى خليل أى العظماء بأبي خليل ..

وعلى سبيل المثال أيضا ، عن فاتحة الكتاب يقال عنها أم الكتاب أى العظيمة بالكتاب ، أى أن العظمة هنا تعود للكتاب لا عليها ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: 87] ، أم عيسى عليه السلام أى العظيمة بعيسى عليه السلام ..

وهناك من الأقوال التى جاءت فى من هم آل وأهل للنبى ﷺ ، قيل آل النبى ﷺ هم آل جعفر وعقيل والعباس رضى الله عنهم .. أما أهل البيت فهم أصحاب العباءة أهل الكساء رضى الله عنهم : على وفاطمة والحسن والحسين وذرياتهما ، ونساء النبى ﷺ وكذلك سلمان الفارسى وذريته والله أعلم ..

لفظة « البيت » دون الأهل :

ولأمانة البحث ، سوف أعرض لمفهوم آخر للفظة «البيت» ذهبت به طائفة من الناس مستندة إلى ورود كلمة «البيت » دون أهل فى كثير من الآيات فى إشارة إلى أن إبراهيم وولده إسماعيل هما بداية الشجرة المباركة : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ ﴾ [البقرة:135] ، ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ ﴾ [البقرة: 137] ، ﴿ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ ﴾ [البقرة:158] ، ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: 96] ، ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾ [آل عمران: 97] ، ﴿ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾ [المائدة: 25] ، ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾ [المائدة: 97] ، ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [الحج: 26] ..

فهذه الطائفة أصحاب هذا الرأى ترى أن أهل البيت تعود إلى إبراهيم وإسماعيل وذرية إسماعيل ، وأن ذرية إسحاق ليسوا من أهل البيت ، وأنها غير منحصرة فقط فى ذرية ما بعدهم ..

حديث الكساء :

غير أن حديث الكســاء والعباءة عن رســول الله ﷺ يرد على ذلك ، فقد ورد عن على رضى الله عنه مخاطبا : أيها الناس أتعلمون أن الله عز وجل أنزل فى كتابه ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ ، فجمعنى وفاطمة وابنى حسـنا وحســينا ثم ألقى علينا الكســاء ، وقال : اللهم إن هؤلاء أهل بيتى ولحمتى يؤلمنى ما يؤلمهم ويجرحنى ما يجرحهم ، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، فقالت أم سلمة : وأنا يارسول الله ، فقال : أنت إلى خير ..

وإن كثيرا من الكتب أشــارت إلى أن هذه الآية نزلت فى رســول الله ﷺ وعلى بن أبى طالب وزوجه فاطمة وولديه الحسن والحسين ، عن أم سلمة قالت : ان رسول الله ﷺ دعا عليا وفاطمة وحســنا وحســينا فجللهم بكســاء ثم قال ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: 33] قالت وفيهم نزلت .. فهم أهل البيت المكرمين ..

سر سلمان الفارسى :

هذا الأمر يفسر فضيلة الطهارة والحفظ الإلهى بل والعصمة ، ويفسر بالتالى سر سلمان الفارسى والحاقه بأهل البيت الذين طهرهم الله وأذهب عنهم الرجس لأنهم انتسبوا الى رسول الله فما يشينهم يلحق به ﷺ وهذا لا يصح ..

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر: 44] ، إن كل عبد إلهى يعتمد على أحد أو يتوجه لأحد عليه حق من المخلوقين ، فقد نقص من عبوديته لله بقدر ذلك الحق ، فإن ذلك المخلوق يطلبه بحقه وله عليه سلطان به ، فلا يكون بذلك عبدا محضا خالصا لله ولا يكون إنسانا كاملا ، وهذا الذى رجح عند المنقطعين إلى الله انقطاعهم عن الخلق ولزومهم السياحات والبرارى والسواحل والفرار من الناس ..

ولما كان رسول الله ﷺ عبدا محضا خالصا ، فقد طهر الله وأهل بيته تطهيرا وأذهب عنهم الرجس وهو كل ما يشينهم ، فإن الرجس عند العرب هو القذر ، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: 33] ..

فلا يضاف إليهم إلا مطهر ولابد فإن المضاف إليهم هو الذى يشبههم ، فما يضيفون إلى أنفسهم إلا من له حكم الطهارة والتقديس فهذه شهادة من النبى ﷺ إلى سلمان الفارسى بالطهارة والحفظ الإلهى والعصمة حيث قال ﷺ « **سلمان منا أهل البيت** » ..

فإن كان سلمان هكذا ، فما ظنك بأهل البيت نفوسهم فهم المطهرون بل هم عين الطهارة ، فهذه تدل على أن الله قد شرك أهل البيت مع الرسول فى قوله : ﴿ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: 2] ، فما هو ذنب بالنسبة إلينا لو وقع منه كان ذنبا فى الصورة لا فى المعنى لأن الذم لا يلحق به ، ودخل الشرفاء أولاد فاطمة كلهم ومن هو من أهل البيت مثل سلمان الفارسى إلى يوم القيامة فى حكم هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾ [الأحزاب: 33] من الغفران ..

فهم المطهرون اختصاصا من الله وعناية بهم لشرف محمد ﷺ وعناية الله به ، ولا يظهر حكم هذا الشرف لأهل البيت إلا فى الدار الآخرة ، فإنهم يحشرون مغفور لهم ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الحديد: 21] ..

وبالتالى ينبغى على كل مسلم مؤمن بالله وبما أنزل أن يصدق الله تعالى فى قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾ ، فيعتقد فى أن جميع ما يصدر عن أهل البيت أن الله قد عفا عنهم فيه ..

ولا يذهب حكم هذا الشرف فى أهل البيت إلا فى الدار الآخرة فإنهم يحشرون مغفور لهم ، أما فى الدنيا فمن أتى منهم حدا أقيم عليه كالتائب إذا بلغ الحاكم أمره وقد زنى أو سرق أو شرب أقيم عليه الحد مع تحقق المغفرة كما عز وأمثاله و لا يجوز ذمه ..

ولا يجوز ذم قدر الله ولا قضائه ، بل ينبغى له أن يقابل بالتسليم والرضا وإن نزل عن هذه المرتبة فالصبر ،وإن إرتفع عن تلك المرتبة فبالشكر ..

إن النبى ﷺ ما طلب منا عن أمر الله ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾[الشورى: 23] والمودة هى ورود اسم الودود لله تعالى مع كل قريب فما بالك مع خاصة وقرابة أهل بيت النبى ﷺ ..

ولا يقتصر حب العقلاء لأهل البيت على من رأوا منهم الإحسان بل يجب أن ينسحب هذا الحب ليشمل جميع أهل البيت جملة ..

الأقطاب الركبان (الأفراد)

وهى طائفة خارجة عن حكم القطب ، فهى وحدها ، ليس للقطب فيها تصرف ولهم من الأعداد بين ثلاثة إلى ما فوقها ، يأتون من الأمور مثل ما أنكر موسى على الخضر رغم شهادة الله فيه لموسى عليه السلام ومعرفته بمنزلته وتزكية الله إياه وأخذه العهد عليه إذا أراد صحبته ..

مقام موسى ومقام الخضر :

ولما علم الخضر أن موسى عليه السلام ليس له ذوق فى المقام الذى هو الخضر عليه ، كما أن الخضر ليس على ذوق فيما هو موسى عليه من العلم الذى علمه الله ، إلا أن مقام الخضر لا يعطى الاعتراض على أحد من خلق الله لمشاهدة خاصة هو عليها ..

ومقام موسى والرسل يعطى الاعتراض من حيث هم رسل لا غير فى كل ما يرونه خارجا عما أرسلوا به ، ودليل ذلك قول الخضر لموسى ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ [الكهف: 68] ، فلو كان الخضر نبيا ما قال له ما لم تحط به خبرا ، فالذى فعله لم يكن من مقام النبوة ، وقال له فى انفراد كل واحد منهما بمقامه الذى هو عليه ..

الإنكار ليس من شأن الأقطاب الأفراد :

وقال الخ ضر لمو سى عليه الـ سلام : يا مو سى أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا ، وافترقا وتميزا بالإنكار ، فالإنكار ليس من شأن الأقطاب ،الأفراد فهم ينكر عليهم و لا ينكرون ..

قال الجنيد : لا يبلغ أحد درج الحقيقة حتى يشهد فيه ألف صديق بأنه زنديق ، لأنهم يعلمون من الله ما لا يعلمه غيرهم وهم أصـــحاب العلم الذى كان يقول فيه على بن أبى طالـ ﷺ حين يـ ضرب بيده على صدره ويتنهد : إن هنا لعلوم لو وجدت لها حملة ، فإنه كان من الأفراد ، فلم يسمع هذا من أحد غيره فى زمانه إلا من أبى هريرة ..

أخرج البخارى فى صـــحيحه عنه أنه قال : حملت عن النبى ﷺ جرابين ، أما الواحد فبثثته فيكم ، وأما الآخر لو بثثته لقطع منى هذا البلعوم .. وكان من الأفراد أيضـا عبد الله بن عباس البحر الذى كان يلقب به لاتســاع علمه فكان يقول فى قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ [الطلاق: 12] لو ذكرت تفســيره لرجمتمونى ، أو لقلتم أنى كافر ..

ولهذا كان على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طال ﷺ يشير بقوله :ولا ندرى إن من كلامه أو يتمثل بهما :

يارب جوهر علم لو أبوح به — لقيل لى أنت ممن تعبد الوثنا

ولاستحل رجال مسلمون دمى — يرون أقبح ما يأتونه حسنا

ويقال أن من أقطاب هذا المقام عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن عباس وعلى زين العابدين وأحمد بن حنبل والخضر ..

وحى خاص إلهى

وهذه المنزلة لدى هذه الطائفة من الأفراد الأقطاب أو الركبان يكون فيها العبد يسمع بالحق وينطق بالحق ويبصر بالحق ويبطش به ويدرك به وهذا فى حد ذاته وحى خاص إلهى أعطاه هذا المقام ليس للملك جبريل فيه وساطة من الله ، ولهذا قال الخضر لموسى عليه السلام ﴿مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ ، فإن وحى الرسل إنما هو بالملك بين الله وبين رسله فلا خير له فى هذا الذوق ..

فما تعود الإرسال لتشريع الأحكام الإلهية إلا بواسطة الروح الذى ينزل به على قلبه ، ولكن من العلم بالله لا من علم التشريع فلم يحط به خبرا من هذا القبيل ..

فهذا القدر هو الذى اختص به الخضر دون موسى، وهذا تعريف إلهى وعصمة يعطيها هذا المقام لصاحبه ليس للرسالة فيه مدخل ﴿مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ ...

الملامية :

وهم أيضا نوع من الأقطاب ولكن فى مقام القربة ، ما فوقهم إلا درجة النبوة ، وآيتهم من القرآن : ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن: 72] ، وهم رجال الله الذين اقتطعهم إليه وصانهم وحبسهم فى خيام صون الغيرة الإلهية فى زوايا الكون أن تمتد إليهم فتشغلهم ، ولا يشغلهم نظر الخلق إليهم ..

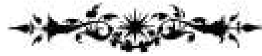
لا يعرفون بخرق عادة فلا يتم تعظيمهم ، ولا يشار إليهم بالصلاح ، الذى فى عرف العامة مع كونهم لا يكون منهم فساد ، فهم الأخفياء الأبرياء الأمناء فى العالم الغامضون فى الناس ..

فيهم قال رسول الله ﷺ عن ربه عز وجل « **إن أغبط أوليائى عندى لمؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة ، أحسن عبادة ربه وأطاعه فى السر والعلانية وكان غامضا فى الناس** » ، يريد أن يقول لايعرفون بين الناس بكبير عبادة ، ولا ينتهكون المحارم فى السر أوالعلن ..

قال بعض الرجال فى صفتهم لما سئل عن العارف قال : مسود الوجه فى الدنيا والآخرة .. فهم مع الحق فى الدنيا ومع الحق فى الآخرة ..

ثم إن هذه الطائفة ، إنما نالوا هذه المرتبة عند الله لأنهم صانوا قلوبهم أن يدخلها غير الله أو تتعلق بكون من الأكوان سوى الله ، فليس لهم جلوس إلا مع الله ، ولا حديث إلا مع الله ..

هم بالله قائمون وفى الله ناظرون وإلى الله راحلون ومنقلبون وعن الله ناطقون ومن الله آخذون وعلى الله متوكلون وعند الله قانطون ، فما لهم معروف سواه ، ولا مشهود إلا إياه ، فهم فى غيابات الغيب محجوبون يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ..



المناجاة والمشاهدة وما بينهما

التكليم مناجاة لفهم ما يتكلم به إلى من يتلقى التكليم من المتكلم فليس مشاهدة بل مناجاة وكذلك الصلاة مناجاة ليست مشاهدة أما الصوم ليس كمثله شيء فجزاؤه المشاهدة لحظة اللقاء ..

فقد قال الرسول ﷺ عن ربه « **كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به** » ، وقال ﷺ لرجل « **عليك بالصوم فإنه لا مثيل له** » ، وقال تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11] ..

فالصوم صفة صمدانية ، لأنه التنزه عن الأكل والشرب وطبيعة المخلوق التغذى والأكل والشراب ، فما أراد العبد أن يتصف بما ليس من حقيقته أن يتصف به ، وإن كان اتصافه به شرعا لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة: 183] ..

قال الله له: الصوم لى لا لك أى أنا هو الذى لا ينبغى لى أن أطعم أو أشرب ، وإذا كان بهذه المثابة وكان سبب دخولك فيه كونى شرعته لك فأنا أجزى به ..

كأن يقول : وأنا جزاؤه لأن صفة التنزه عن الطعام والشراب تطلبنى وقد تلبست بها أيه العبد الصائم وما هى حقيقتك أيها العبد وما هى لك وأنت متصف بها فى حال صومك ، فهى تدخلك على ، فإن الصعب حبس النفس وقد حبستها بأمرى عما تعطيه حقيقتها من الشراب والغذاء ..

ولهذا قال : « **للصائم فرحتان فرحة عند فطره ، وتلك الفرحة لروحه الحيواني لا غير» وفرحة عند لقاء ربه »** ، وتلك الفرحة لنفسه الناطقة أى لطيفته الربانية ..

فأورثه الصوم لقاء ربه وهو المشاهدة ، فكان الصوم أتم من الصلاة لأنه أنتج لقاء الله ومشاهدته ، الصلاة مناجاة لا مشاهدة والحجاب يصحبها ، وأن الله يقول : ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ** ﴾ [الشورى: 15] ، وكذلك ﴿ **وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا** ﴾ [النساء: 164] ..

ولذلك طلب موسى الرؤية ، فقرن الكلام بالحجاب والمناجاة مكالمة بقوله تعالى : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، نصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل ، يقول العبد الحمد لله رب العالمين ، يقول الله حمدنى عبدى .....

أما الصوم فإنه لا ينقسم فهو لله لا للعبد بل للعبد أجره من حيث ما هو لله ، وهنا سر شريف ، فالمشاهدة والمناجاه لا يجتمعان فإن المشاهدة للبهت والكلام للفهم ، فأنت فى حال الكلام مع ما يتكلم به لا مع المتكلم أى شىء كان فإفهم القرآن تفهم الفرقان ..

فبهذا قد تبين الفرق بين الصلاة والصيام والصدقة ، وأما القول أن الله جزاء الصائم للقائه ربه فى الفرح به الذى قرنه به فسر ذلك فى قوله فى سورة يوسف ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾ [يوسف: 75] أى جزاء لقائه ..

فأما الحج فلما فيه من الصبر وهو حبس الإنسان نفسه عن النكاح ولبس المخيط كما حبس الإنسان نفسه عن الطعام فى الصوم والشراب والنكاح ، ونظرا لأنه لم يعم الحج مسك الإنسان نفسه عن الشراب والطعام إلا عن النكاح لذلك تأخر فى القواعد التى بنى عليها الإسلام ..



فلسفة التذوق الصوفي
بين
علماء الرسوم وعلماء الحقيقة



الباب الرابع

العارف وظلمة القلب

الفصل الأول واعبد ربك حتى يأتيك اليقين

سكون النفس :

اليقين صفة لها الشمولية ، فهى موجودة فى كل خلق الله وهى ليست خاصة بأهل الله وطريقهم التى فيها السعادة ، غير أن الخلاف بشأن اليقين يرجع إلى بمن و بماذا يتعلق اليقين ؟؟ ..

واليقين هو سكون النفس بالمتيقن ، وهو ما يكون الإنسان فيه على بصيرة ، والنفس المؤمنة تتوقع الإتيان باليقين حتى إذا لم يأت بعد ، لأنه أمر الله فلا فرق عندها بين حصوله وبين عدم حصوله ، مثلما قال أحد السابقين : لو كشف عنى الغطاء ما ازددت يقينا ، فاليقين هو قول الله لنبيه ﷺ : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: 99] ..

اليقين بغير علم ليس بيقين:

واليقين على محورين : الأول من هو على صواب ولهذا النوع من اليقين علما وعينا وحقا ولكل حق حقيقة ، والثانى وهو اليقين الذى ليس على صواب وهو ليس بعلم و لا عين و لا حق ، وقد يقطع به من حصل عنده وهو صاحب يقين وليس صاحب علم يقين ، فحال كل صاحب يقين يتوقف على ما إذا كان ما عليه علما كان أو غير علم ..

ولما كان اليقين هو سكون النفس لأن متعلق اليقين هو الجناب الإلهى لا غير ذلك ، فإن الاضطراب الذى قد ينجم عن الألم الناتج مثلا عن الجوع والعطش أو الحر والبرد ، وهو الذى يحرك صاحبه ويزيحه عن السكون لا يقدح فى اليقين ولا يؤثر فيه سلبا ، فإنه ما يفسده ، فإن اليقين سكون النفس إلى من بيده هذه الأمور المزيلة للآلام ، فيريد من قامت به الآلام سرعة زوالها طبعا ..

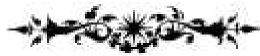
فالاضطراب لا يقدح فى اليقين إذا كان هبوب اليقين فى إزالة تلك الآلام إلى جناب الحق لا إلى الأسباب المزيلة ، فإن شاء الحق أزالها بتلك الأسباب وإن شاء أزالها بغير ذلك فصار متعلق اليقين بالجناب الإلهى لا غير ، فالعبد أصله مضطرب متزلزل فلا يقين له من حيث حقيقته فإنه محل لتجدد الأعراض عليه واليقين سكون ، والله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾..

وبالتالى فإن أهل الله فى نفوسهم بمعزل عما يطلبه اليقين وأن اليقين هو السائل ، ولهذا قال ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: 99] فيكون اليقين هو الذى يأتى إليك لا تبحث عنه أنت ..

اليقين هو الموت :

ومعنى آخر فى هذا السياق نفسه من قوله ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ ، أن العبد يعلم حق اليقين أن الموت حق وهو آت لا محاله ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ ، ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ فاليقين هنا هو الموت وأن على العبد إذا كان صاحب يقين أن يعبد ربه حق عبادته إلى أن يأتيه الموت ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ ، ولأن اليقين هو نتاج الصدق والصدق ثمرة اليقين قال تعالى : ﴿ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: 94] ..

فالموت يأتى ومجيئه يقين ولا يذهب إليه العبد ، بل لا يسعى إليه العبد وهو غيب يستوجب الإيمان به حق اليقين ، لأنه حق ومن الحق ، فهو الذى يسعى إلى صاحبه وليس العكس ، وأما من ينهى حياته بيده متعمدا بأى من أنواع القتل والانتحار فليس بصاحب اليقين الحق فلا علم ولا عين وحق فى يقينه ، لأنه لو لديه علم باليقين لعبد ربه حتى يأتيه اليقين ..



نعلا موسى

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ [طه: 9 – 13] ..

قال ابن عباس ، كان موسى رجلا غيورا لا يصحب الرفقة لئلا ترى امرأته ، فلما قضى الأجل وفارق مدين ، وخرج معه غنم له ، فأ ضل الطريق فى ليلة ظلماء ، وتفرقت ماشيته وامرأته معه ، فرأى نارا من بعيد كانت عند الله نورا وعند موسى نارا فقال عند ذلك لأهله ﴿ٱمْكُثُوٓا۟﴾أى الزموا مكانكم ، وكانت ليلة الجمعة من الشتاء حسبما قيل ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ ، أى أبصرت نارا ، ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ أى بشعلة تصطلون بها ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ أى أجد على النار هاديا يدلنى على الطريق ، وقيل: علامة استدل بها على الطريق ، والهدى أى ما يهتدى به ، فهو اسم مصدر ..

قال السدى: لأن النار لا تخلو من أهل لها وإناس حولها وعندها ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا ﴾قال ابن عباس : لما توجه إلى النار فإذا النار فى شجرة عناب ،

فوقف متعجبا من حسن ضوء تلك الشجرة ، و شدة خضرة تلك الشجرة ، فسمع النداء من تلك الشجرة وهو قوله: ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾، والنداء على طريقة يا فلان .. أنا ربك الذى خلقك ودبرك ، فلبى موسى النداء وقال : إنى أسمع صوتك ولا أدرى مكانك ، فأين أنت ؟؟ فقال: أنا فوقك ومعك وأمامك وخلفك وأقرب إليك من نفسك ، فعلم أن ذلك لا ينبغى إلا لربه عز وجل ..

وعلم موسى عليه السلام أن ذلك من قبل الله تعالى لمعجز أظهره الله سبحانه وتعالى ، كما قال تعالى فى موضع آخر: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٠ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾. [القصص:30 ، 31] إلى آخر هذا الكلام ..

وقيل: إنه لما رأى شجرة من أسفلها إلى أعلاها تتوقد فيها نار بيضاء ، وسمع تسبيح الملائكة ، ورأى نورا عظيما لم تكن الخضرة تطفئ النار ولا النار تحرق الخضرة ، وعلم أنه معجز خارق للعادة ، وأنه لأمر عظيم ، فألقيت عليه السكينة ، ثم نودى :أنا ربك ، وإنما كرر الكناية وإزالة الشبهة وتحقيق المعرفة ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾أى انزعهما وقيل: فى السبب الذى أمر بخلع النعلين أقوال :

- أنهما كانتا من جلد حمار ميت ، هذا ما روى عن كعب وعكرمة وعن الإمام الصادق ..

- كانتا من جلد بقرة زكية وأنه أمر بخلعهما ليباشر بقدميه الأرض فتصيبه بركة الوادى المقدس .. هذا عن الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وابن جريج ..

- إن الحفاء من علامة التواضع ولذلك كانت السلف تطوف حفاة .. وهذا عن الأصم ..

- أن موسى عليه السلام إنما لبس النعل اتقاء من الأنجاس، وخوفا من الحشرات فأمنه الله مما يخاف وأعلمه بطهارة المو ضع .. هذا عن أبى م سلم ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ، أى المبارك ..

عن ابن عباس ، بورك فيه بسعة الرزق والخصب وقيل: المطهر « طوى » هو اسم الوادى .. عن ابن عباس ومجاهد والجباتى ، وقيل سمى به لأن الوادى قدس مرتين فكأنه طوى بالبركة مرتين عن الحسن ، ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: 13] إليك من كلامى وأصغ إليه وتثبت ، لما بشره الله سبحانه بالنبوة ..

وقيل فى النعلين أقوال كثيرة ، منها أن المقصود بهما الدنيا والآخرة ، وإن كان البعض اعترض على ذلك لقولهم أن الانخلاع من الدنيا والآخرة هو براءة من الله جلت عظمته ، إذ يستحيل على الإنسان أن يخلع الزمان والمكان ..

***

وقيل: أنهما لدى الخاصة هما الحزن والغضب (□)، حيث أشارت بعض آيات القرآن إلى الدلالة على الحزن والغضب والنهى عنهما ، وإن كان البديل عن الحزن وهو الأفضل هو التسليم له سبحانه وتعالى وحسن التوكل عليه ، كما أن القرآن الكريم يدعو فى عمقه إلى الفرح ، بما يكون الله فى قلوب أنبيائه وأوليائه وعارفيه ، يعنى أن تكون قلوبهم غير حزينة ، وأقصى ذلك هى آية تدعو إلى التوازن بين الحزن والفرح والاعتدال وهى : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد : 23] ..

(□)أحكام القرآن لابن العربى محمد بن عبد الله الأندلسى الطبعة الأولى.

أنبأنا أبو عبد الله اللخمى ، أنبأنا أبو زد الحميرى ، أنبأنا أحمد بن عبد الوهاب أبو على ، حدثنا إسـماعيل بن إسـحاق عن عمر محمد بن يوسـف عن عبد الله بن الحارث عم عيسى بن يونس ، قال رسول الله ﷺ كانت نعلا موسى من جلد حمار ميت ..

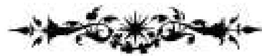
﴿ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴾ [طه: 12] ، نعلا مو سى عليه السلام كانتا من جلد حمار ميت فجمعت ثلاثة أشياء :

أولا : الجلد وهو ظاهر الأمر ، أى لا تقف مع الظاهر فى كل لأحوال ..

ثانيا : البلادة فإنها منسوبة للحمار ..

ثالثا : كونه ميتا فإنه غير مزكى والموت جهل ، ثم إنك إن كنت ميتا لا تعقل ما تقول ولا ما يقال لك ، والمناجى لابد أن يكون بصفة من يعقل ما يقول وما يقال له ..

فتكون حى القلب فطنا بمواقع الكلام غواصـا عن المعانى التى يقصـدها من يناجيه بها ، فإذا فرغ من صلاته سلم على من حضر سلام القادم من عند ربه إلى قومه بما أتحفه الله به ، فهذا هو سر خلع النعلين فى الصلاة على ظاهر الأمر عند أهل الكشف .



يونس ولد مرتين

شــاء الله تعليم يونس عليه الســلام – عندما ذهب مغاضــبا – من خلال بيان عملى ، لا بالقول النظرى ، لما ذهب عليه السلام مغا ضبا وظن أن الله لا يضيق عليه لما عهده من سعة رحمة الله فيه ، وما نظر ذلك الاتساع الإلهي الرحمانى فى حق غيره فتناله أمته واقتصر به على نفسه ، فما أراد لقومه سوى العدل لا الرحمة ..

يونس وأهل نينوى :

كان قوم يونس من الأشــوريين يعيشــون فى مدن كبرى ، وكانت مدينة نينوى أكبر مدنهم ، وفى تلك المدينة ولد يونس عليه السلام ، وعاش حتى أدرك قومه يعبدون الأ صنام والأوثان ، واصطفى الله يونس نبيا على أهل نينوى يدعوهم إلى عبادة الله وحده ..

غير أن أهل نينوى رفضوا دعوته ووقفوا فى وجهه وحذرهم من عاقبة عنادهم وأن الله سـيعذبهم بنزول الغضــب الإلهى عليهم ، وذهب مغاضــبا باتجاه البحر الأبيض ، مترقبا نزول عذاب الله بقومه ..

ولكن بعد مغادرته لنينوى شهد أهل المدينة علامات مخيفة للغضب الإلهى بغيوم سوداء كالحة ، ورأى بعض الصالحين فى المدينة أن الغضب الإلهى يوشك على الوقوع فيدمر المدينة بمن فيها ، وراحوا يتراجعون عن عبادة التماثيل

وعلموا أن سبب ذلك رفضهم لدعوة يونس ، وبالتالى راحوا يعلنون إذعانهم لدعوة يونس عابدين لله الواحد ، وآمنوا جميعا وانتظروا نبيهم يونس ولكن يونس غادر إلى مكان بعيد لا يعرفه أحد ..

وظل أهل نينوى على هذا الحال من البكاء والتوبة والتعبد لله حتى زال غيوم السماء وأشرقت الشمس من جديد وفرحوا برحمة الله الواسعة وبنعمة الإيمان ..غير أن يونس المغاضب ظل باتجاه البحر لتقله سفينة متهالكة تأتى القرعة عليه ليرمى به تخفيفا عن حمولتها وتضحية ليأكله حوت ضخم يسمى حوت العنبر ، وعلم يونس أن هذه مشيئة الله عندما استقر فى ظلمة بطن الحوت ليقول: « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » ..

الغضب ظلمة القلب:

والغضب هو ظلمة القلب فأثرت لعلو منصبه فى ظاهره فأسكن فى ظلمة بطن الحوت ما شاء الله لينبهه الله على حالته عندما كان جنينا فى بطن أمه فمن الذى كان يدبره فيه ؟؟؟

وهل كان فى ذلك الموطن يتصور منه أن يغاضب (بفتح الضاد) أو يغاضب (بكسر الضاد) ، بل كان فى كنف الله لا يعرف سوى ربه ، فرده الله الى هذه الحالة فى بطن الحوت تعليما له بالفعل لا بالقول ..

﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ ﴾ [الأنبياء: 87] عذرا عن أمته فى هذا التوحيد أى تفعل ما تريد وتبسط رحمتك على من تشاء ﴿ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهى مشتقة من الظلمة ، أى ظلمتى (بضم الظاء) عادت إلى وعلى ، ما أنت ظلمتنى ..

بل ما كان فى باطنى سرى إلى ظاهرى ، وانتقل النور إلى باطنى فاستنار فأزال ظلمة المغاضبة وانتشر فيه نور التوحيد وانبسطت الرحمة فسرى ذلك النور فى ظاهره مثلما سارت ظلمة الغضب ..

يونس والنشأة الأخرى :

فا ستجاب له ربه فنجاه من الغم فقذفه الحوت من بطنه مولودا على الفطرة السليمة ، فلم يولد أحد مرتين من بنى آدم إلا يونس عليه السلام ، فخرج ضعيفًا كالطفل ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ [الصافات: 149] ،

ورباه الله بإنبات شجرة عليه من يقطين يستظل بها ويأكل من ثمارها على رمال الجزيرة التى قذفه الحوت إليها ..

واليقطين ورقه ناعم ولا ينزل عليه الحشرات أو الذباب ، كما أن من خواص ورق اليقطين إحتوائه على مواد تفيد فى ترميم الجلد وتقوية البدن ،

وهكذا شـــاء الله أن ينجو يونس ويدرك أن الله هو القادر الرحمن الرحيم ، ليســـتعيد صحته ويعود إلى أهل نينوى ..

فإن الطفل لضعفه لا يستطيع أن يزيل أو يطرد الذباب والحشرات عن نفسه فغطاه بشجرة خاصتها ألا تقربها الحشرات ، فإن ورق اليقطين مثل القطن فى نعومته ، وأنشأه الله نشأة أخرى ..

وهكذا أظهر الله ليونس فى بيان عملى ، مدى المغاضبة التى كان لا يتعين عليه فعلها ، لأن المغاضبة هى ظلمة القلب ، وهى بالتالى الجهل وهو ما لا يعتين عليه أن يكون ، إلى أن أدرك أن ظلمته (بضم الظاء) عادت إليه ما ظلمه الله ، فقد ظلم نفسه عندما أظلم قلبه وجهل المشيئة الإلهية فى قومه فكان ماكان من هذا البيان العملى الربانى ..

من يولد مرتين :

سئل أبو الحسن الشاذلى عن قول عيسى عليه السلام : يا بنى إسرائيل بحق أقول لكم: لا يلج ملكوت السماوات من لم يولد مرتين ، فقال الشيخ : أنا والله ممن ولد مرتين ، الإيلاد الأول : إيلاد الطبيعة ، والإيلاد الثانى : إيلاد الروح فى سماء المعارف ..



الفصل الثاني الخلوة والجلوة ...

« من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى »

أصل كلمة الخلوة فى اللغة هى الخلاء ، وأصلها فى الشرع : « من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه » ، وأصل الخلوة من الخلاء الذى وجد فيه العالم ..

وثمرة الخلوة للمختلى العديد من أنواع الكشف الإلهى التى عددها البعض بنحو 25 كشفا ، وأنها بغير هذه الكشوفات لاتصح الخلوة لصاحب الخلوة ، وأجمع أهل الله أن حصول هذه الكشوفات من علامات صحة الفتح، وإن لم تحصل ، فعلى صاحبها الاشتغال بالكسب الدنيوى، والصنائع والحرف أفضل من دخوله الخلوة ..

من هذه الكشوفات أن يكشف له عن عالم البشر الغائب عنه فلا يحجبه ظلمة ولا جدار ، وأن تنزل عليه المعانى العقلية فى صور حسية ، وأن يتجلى له المذكور ويفنى عن الذكر فى حضرة المشاهدة ، وأن يكشف له عن أسرار الأحجار، فيعرف كل منها مضاره ومنافعه ، وكذلك أسرار الحيوان كله حتى الحشرات ..

أن يعطيه الله تعالى المشى على الهواء والماء ويصير يتصرف بهمته فى الكون، بإذن الله وتطوى له الأرض، ويخلع عليه من الخلع مالم يخطر على باله ..

خلوت بمن أهوى فلم يك غيرنا

ولو كان غيرى لم يصح وجودها

وكان أبو العباس الحريثى يختلى الأربعين، وأكثر ويقول كل خلوة لا تنتج لصاحبها العلوم الآتية فهى عبث ناقص الاستعداد : علم حروف الجمع الأكبر وعلم الحروف المسطورة فى اللوح المحفوظ ومنها علم الغيب الذى انفرد به الحق جل وعلا ، والغيب الذى يطلع خواص عباده عليه ، وهل بين كل أرض وأرض سماء ، ومنها علم الصفات والأحكام فهذه بعض علوم الخلوة(□) ..

والخلوة من شرط الفتوح على المريد السائر فى درب الولاية والمعرفة بالله ، ودخل مشايخ الطريقة الخليلية بالزقازيق هذه الخلوات ، ابتداء من العارف بالله الشيخ الحاج محمد أبو خليل مؤسس هذه الطريقة المباركة ، والذى دخل خلوتين الأولى الخلوة الكبرى التى دامت به نحو خمس سنوات ،

(□)الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية للشعرانى .

والثانية الخلوة الصغرى التى مكث فيها ثلاث سنوات ، وحدث على نحو آخر مع كل من العارف بالله صالح أحمد الشافعى أبو خليل ، ووالده من قبله العارف بالله الشيخ أحمد الشافعى ، والتى لأجلها فتح الله على أشياخ هذه الطريقة بالكثير من العلوم.

والخلوة هى المرحلة الأولى التى يمر بها العارف الوارث للميراث المحمدى ، والذى تتطلب منه الفرار من الخلق والبقاء بالحق ، ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ ، والمصطفى هو الولى الذى يختلى بربه ، وهى بداية أصناف الورثة المحمديين ، وهم الذين بخلوتهم بالله ، ظلموا أنفسهم فى الدنيا من أجل أنفسهم فى الآخرة ولم يأخذوا بالرخص بل بعزائم الأمور ..

فبدلا من النوم فضلوا السهر مع الله ، وبدل الأكل والشراب صاموا نهارهم وقاموا ليلهم ، ولم يأخذوا برخصة أن لبدنك عليك حق وأن لعينك عليك حق ، بل أجهدوا أجسادهم وحوا سهم فى عبادة الله ، وفروا من الخلق لكى يبقوا بالحق ، وما كان تحنث محمد ﷺ لستة أشهر فى غار حراء حتى قبل البعث وقبل أن يكلف بالرسالة إلا عين هذا ، فى وقت كان شبان قريش يلهون ويعبثون ويتمتعون بملذات الدنيا فرهو من الخلق ليبقى بالحق ، وهذا ما ورث عنه السالكون طريقه من أولياء الله الوارثين ..

سئل ر سول الله ﷺ أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟؟ قال : « **كان فى عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء ثم خلق الخلق وقضى القضية وفرغ من أ شياء** » ، وقال : « **كان الله وما شيء معه** » ..

والخلوة أعلى المقامات ، وهو المنزل الذى يعمره الإنسان ويملؤه بذاته فلا يسعه معه فيه غيره ، ونسبته إليها نسبة الحق إلى قلب العبد الذى وسعه ولا يدخله ، وأصل الخلوة فى العالم الخلاء الذى ملأ العالم ..

ولهذا أول ما يكشف للإنسان صاحب الخلوة آيات العالم قبل آيات نفسه لأن العالم قبله كما قال الله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت: 53] ليعلموا أن الإنسان عالم وجيز من العالم الذى يحوى الآيات ، ثم يريه بعد ذلك الآيات التى أبصرها فى العالم فى نفسه والحق محيط بكل شيء من كونه محيطا ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ [فصلت: 54] (□).

ومراتب الخلوة تختلف فهى بين أمرين حسب مراتبها ، الخلوة بربه والخلوة بنفسه ، فالخلوة بربه هى تلك المعهودة لدى اصحاب الخلوات ودرجاتها تتعدى الألف مرتبة والتى تظهر فيها أعيان شيئيات العالم من عرش وكرسى وغير ذلك ..

(□)إنشاء الدوائر : محيى الدين بن عربى .

وإذا انصــبغ بالنور كان فى خلوة مع ربه ، وبقى فى تلك الخلوة إلى الأبد ولا يتقيد فى خلوته بالزمان لا بأربعين يوما ولا بغير ذلك ..

قال بعضــهم لصــاحب خلوة : أذكرنى عند ربك فى خلوتك ، فقال له : إذا ذكرتك فلست معه فى خلوة ، ومن هنا تعرف معنى « **أنا جليس من ذكرنى** » ، فإنه لا يذكره حتى يحضر المذكور فى نفسه إن كان المذكور ذا صورة فى اعتقاده أحضره فى خياله ..

وإن كان من غير عالم الصور أو لا صورة له أحضرته القوة الذاكرة ، من شرط الخلوة عند أهل الله الذكر القلبى لا الذكر اللفظى ، فمن الذكر القلبى ينقدح المطلوب [□].

ومن الناس من يأخذ الخلوة لصــفاء الفكر ليكون صــحيح النظر فيما يطلبه من العلوم ، مثل هذه الخلوة لا يدخلها أهل الله وإنما لهم الخلوة بالذكر ، ليس للفكر عليهم سلطان ولا له فيهم أثر ، وأى صــاحب خلوة طرأ عليه الفكر ،فليخرج منها فإنه ليس من أهل العلم الإلهى ، إذ لو أراده الله لعلم الفيض الإلهى لحال بينه وبين الفكر ..

(□)الكواكب الدرية للمناوى .

ومنهم من يأخذ الخلوة لسيطرة وحشة الأنس بالخلق عليه فيجد انقباضا فى نفسه برؤية الخلق حتى أهل بيته ، حتى إنه يكره الحركة فينشد السكون فيؤديه ذلك إلى اتخاذ الخلوة ، وهذه كلها أمور معلومة لا تعطى مقاما و لا رتبة ، ولكن صاحب الخلوة لا ينتظر واردا ولا صورا ولا شهودا وإنما يطلب علما بربه ..

وأما الجلوة ، فهى الكشف ، والكشف يمنع من الخلوة ، فإذا انكشف العلم لصاحب الخلوة فإنه لم يكن فى خلوة ، فإن صاحب الخلوة عند الكشف يعرف جهله ..

ومن الناس من يرجح الخلوة ومن الناس من يرجح نقيضه وهو صاحب الجلوة ، فالاسم الأول والباطن يطلبان الخلوة ، والاسم الآخر والظاهر يطلبان تركها وهى الجلوة ، فالخلوة دنيوية والجلوة أخروية والآخرة خير ..

إذا لم يـر الإنسان غير إلهه ... لدى كل عين فالخلاء محال

فإن كنت هذا كنت صاحب خلوة ... ولله فيك فيصل ومقام ..



بمن يتمسحون ؟؟

قد يستنكف المرء أن يرى مشهدا لأحد الأشخاص وهو يقبل يد أحد الأكابر من رجال الله أو يتمسح به ، وتأخذه العزة بالإثم لرؤية من يقبل حديد أحد مقامات العترة المحمدية من أهل البيت ، هذا الشخص نفسه قد لا يستنكف أو قد لا يستنكف بنفس القدر أن يرى رجلا عظيم الشأن دنيويا وهو يقبل يد سيدة أو واحدة من المشاهير أوالفنانات أوالراقصات ، أو يفعل هو ذلك نفس الأمر على سبيل الفرنجة والإتيكيت ..

ليس بالعبد يتمسحون :

قيل لأبى يزيد البسطامى فى تمسح الناس به وتركه لهم يفعلون ذلك ، فقال رضى الله عنه : ليس بى يتمسحون ، وإنما يتمسحون بحلية حلانيها ربى ، فكيف أمنعهم ذلك وذلك لغيرى .. وقيل لأبى مدين فى تمسح الناس به وتقبيل يده بنية البركة ، وتركهم يفعلون ذلك ؟؟ ، أما تجد فى نفسك أثرا ؟؟؟ ، فقال :هل يجد الحجر الأسود فى نفسه أثرا يخرجه عن حجريته إذا قبلته الرسل والأنبياء والأولياء وكونه يمين الله ؟؟؟ ، قيل : لا ، قال أنا ذلك الحجر ..

قال تعالى فى هذا المقام ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: 10] .. فنفاه بعد ما أثبته صورة كما فعل به الرامى سواء أثبته ونفاه ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[الأنفال: 17] ثم جعل الله يده فوق أيدى المبايعين ..

أدب المبايعة:

فمن أدب المبايعة إذا أخذ المبايعون يد المبايع للبيعة ليقبلوها جعلوا أيديهم تحتها ، كما أخذ الرحمن الصدقة بيمينه من يد المتصدق ،فمن الأدب من المتصدق أن يضع الصدقة فى كف نفسه وينزل بها حتى تعلو يد السائل إذا أخذها على يد المعطى حتى تكون هى اليد العليا وهى خير من اليد السفلى ، واليد العليا هى المنفقة فيأخذها الرحمن لينفقها له تجارة حتى تعظم فيجدها يوم القيامة قد نمت وزادت ..

ورأى آخر يتمثل فى أن السائل إذا بسط يده لقبول الصدقة من المتصدق جعل الحق يده على يد السائل فإذا أعطى المتصدق الصدقة وقعت بيد الرحمن قبل أن تقع بيد السائل كرامة بالمتصدق ، ويأخذ الحق عين تلك الصدقة فيربيها فتربوا حتى تصير مثل جبل أحد فى العظم

وقد قال رسول الله ﷺ :

« **لودليتم بحبل لهبط على الله** » ، أى كما ينسب له العلو فى الاستواء على العرش هو فى التحت أيضا كما هو بكل شىء محيط ، له الفوق كما له التحت

و له الظاهر كما له الباطن هو المبايع والمبايع فإنه لا يبايع إلا بالسـمع والطاعة والسـمع لا يكون إلا هو والعمل بالطاعة لا يكون إلا له .فلا تنستنكف يا أخى عندما ترى من يقبل يد أحد أهل الله من المباركين ، كما لا تستنكف من تراه يقبل حديد مقام أحد أهل البيت المكرمين ، قد لا تفعل مثل ما يفعلون ولك حق ، ولكن من الأدب ألا تنكر عليهم حقهم ولا تستنكف عليهم أفعالهم ، لأنهم على ذوق ليس كذوقك ..

فلسفة المكان :

ولتسأل نفسك لو كانت هذه الحديدة بالمقام التى يقبلها ذلك الشخص ، فى الشارع أو فى مكان آخر وليس مقام السيدة زينب أو الحسين مثلا ، هل كان لصاحبك أن يقبلها أو يتمسح بها !!!! .. إنها يا أخى فلسفة المكان .. ثم ما أدراك من يقبل وبمن يتمسح ؟؟ .. فإذا فتح الله عليك بهذا الذوق ، لعرفت وأدركت وقد تفعل ما فعل .. فإن المعرفة تقود إلى الذوق وذاك يقود إلى اللذة .. « لو علم الملوك وأبناء الملوك ما لدينا من لذة لحاربونا عليها بالسيوف » (□).



(□)الحب الإلهى فى التصوف –د. محمد مصطفى حلمى .

مدد يا ...

كلمة المدد من الأمور التى أثارت جدلا كبيرا ، واستغلها أصحاب النظر الفكرى فى مهاجمة أهل الله وانتقاد أهل الكشف لاحتواء قاموسهم على هذه الكلمة ، وشيوع استخدامها بينهم طلبا للعون أو البركة ، واستنكر الكثير من أهل النظر أهل الظاهر استخدامها هذه الكلمة مع غير الله ، «إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله » ، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾..

وصورت الكلمة من قبل هؤلاء على أنها تجاوز فى حق الله لا يجب التفوه به ، ولا يجب أن تكون لغيره ، ولهم الحق فذوق هؤلاء لا يمكنهم من الغوص فى المعانى والعطاءات ، فهم أقرب إلى الإنكار منه إلى النظر فى عطاء أهل الكشف والعطاء ، لأنهم ظنوا أنهم هم العلماء ، لاعتقادهم أن العلم لا يحصل إلا بالقلم والكتاب الوضعى ..

ولو أن هؤلاء نظروا بعين التفكر والتدبر فى خلق الله كما طالبهم الحق لغاصوا فى بحور من المعانى والأذواق التى لا تتوفر ولا تظهر على سطح الماء ، بل يجب الغوص فى الأعماق لنيلها ..

نعم إن المعلم هو الله ، ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فهو سبحانه المتولى للتعليم ولكن من الذى يستحق أن يرتشف من البحور النوارنية والتجليات الربانية ، ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾..

إن الله سبحانه وتعالى هو أصل كل عطاء وأصل كل نور وأصل كل مدد فهو العاطى وهو الوهاب ، ولكنه اختص من عباده من يقسم ومن يوزع بأمره ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾، فهو يسوق الخير إلى عباده حتى على أى من عباده ..

وقد وردت صورة المدد الربانى على أيدى مخلوقين فى مواضع من القرآن ، عندما حضر جبريل إلى مريم وتمثل لها بشرا سويا وقالت له أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ، ماذا قال لها الملك جئت : ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ [مريم: 19] ، وقال لأهب لكِ ولم يقل لأوصل عطاء الله لكِ أو لأعطيكِ ما وهبه الله لكِ ، فظهر على أنه الموزع ، وهو كذلك لكنه بالله يهب وبالله يعطى وبالله يمد ، فالأصل فى ذلك العطاء هو الله العاطى وليس جبريل الذى حمل المدد إلى مريم ..

وفى موضع آخر من كتاب الله يظهر الأمر أكثر وضوحا وبيِّنة ، عند ما يقول الله لسليمان عليه السلام ، ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ،

فالعطاء عطاء الله ، ولسليمان أن يوزع ، بل وأن يمنع وأن يمسك لأنه بالله سيفعل ، وبالله سيمنع ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ..

فالله يعطى للرسول الذى يقسم ويعطى لأهل الله من العارفين من أهل الكشف والأولياء الذين يعطون بدورهم ، فقد اختلفت المشارب باختلاف المقامات والقربة من الله ، فهناك من يأخذ بيد القدرة وهناك من يكون مشربه من يد الرسول ﷺ ، وهناك من يكون مشربه من يد أحد صحابة رسول الله ﷺ ، وهناك من يكون مشربه من أحد العارفين ، بل هناك من الأولياء من يكون مشربه من ولى آخر فوقه ، فقد اختلف المشارب باختلاف مستوى التجليات ، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ [البقرة: 60] ..

بل أن الله يسوق مدده حتى إلى من هو فى حاجة إليه على يد شخص عادى قد لا يعى ما يفعله سوى بعد أن يفعله رحمة بنا ، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ ، فجعلنا الله نمد بعضنا بعض لينفذ أمر الله فينا ، ولا تتعطل أحكام أسمائه الإلهية ، فالرازق يحتاج مرزوق والرب يحتاج مربوب وهكذا ..

فقد يقوم شخص ظاهر البخل الشديد ممسك على الدنيا ، بإقراضك مبلغًا من المال صــغر أم كبر أنت فى أشــد الحاجة إليه دعوت الله من أجل أن يرزقك به ، ويكون هذا الشـخص من اللين والسـهولة واليسـر معك حين طلبت ذلك ، على نحو لم تعهده فيه أنت ، حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ، ويكون هذا البخيل لينا كريما معك ، إنها أحكام أسماء الله التى سرى مفعولها فيه لكى يمدك بعطاء الله على نحو لا يدركه البخيل نفسه ، لدرجة أنه يتســاءل متعجبا بعد نفاذ الأمر كيف فعل ذلك وأقرضــك ؟؟ نادما على ما فعل ؟؟ ولا يدرى أن مدد الله ســاقه لك رغم أنفه ؟؟ ، وما أكثر هذه الأمور فى حياتنا اليومية ، ولا يقتصر المدد الربانى أن يكون المستخدم فيه عارف بالله أو ولى أو رجل صالح

بل أنه دفع الله للناس بعضهم ببعض ، لتنفذ مشيئته فمن ينكر أن هذا عطاء الله ساقه للإنســان؟؟؟ ، ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴾[الإسراء: 20] فالكل يمد من الله والكل يمد مدد الله إلى بعضه بعضا ..

الأهم أن تفهم وتعى أن الممد هو الله فى كل شىء ، وهو الأصل فى كل شىء وفى كل عطاء ، وهو أصل النور وحينما تقول: مدد يا رسول الله ، أو مدد يا شيخ ..... فما هى إلا بيعة من الرسول المبايع من الله ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [الفتح:10] ،

يد الله فوق أيديكم، فأنت تخاطب الله أصـــل المدد فيما اختص به ذلك المبروك من أهل الله ، المسألة تتعلق بالفهم والإدراك لا بالعمل ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ ، وهذا هو الفرق بين من يعبد على بينة وبصيرة من أمر ربه وبين غيرهم من أهل النظر ..

ولكرم الله معنا ، وتعليمنا الأدب ، يطالبنا وهو العاطى أن نشـــكر ظاهرا من أجرى نعمته لنا على يدية حتى تســـود الألفة بيننا « **إن لم تشـــكر عبدى الذى أجريت نعمتى على يديه ، فإنك لم تـ شكرنى** » ، غير أن الفاهم والمدرك والـ صالح والمكا شف لا يغيب أبدا عنه أنه ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾، فهو أصل العطاء وأصل كل مدد ..

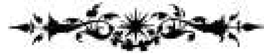
ثم أن الله قال ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾، والســـؤال طلب ، وقال : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ ، أى اسأل من لديه ذوق ربانى من أهل الكشف والعطاء ، فهو الذى يستطيع أن يفيدك ويعلمك بما علمه الله وعلمه رسوله ﷺ ..

فإذا ما قال : مدد يارســـول الله جائز وإذا ما قال : مدد يا حســـين جائز وإذا قال مدد لشـــيخ عارف مربى موصـــول ينتمى إلى الدوحة المحمدية من أهل البيت جائز المهم صحيح اعتقاده فى أن الله هو أصل العطاء ،

وأن ما يطالبه بالمدد ما هو إلا واحد من المختارين الذين مكنهم الله من أن ينهل من الأصل ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾

فلهم الطهارة والحظ الإلهى ، و بل ولهم ما يشاؤون عند ربهم فاللهم انفعنا بهم ، « **أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة وأحبونى لحب الله لى وأحبوا أهل بيتى لحبى لهم** » ..

قيل لأبى يزيد البسطامى وآخرين من أهل الله ، لماذا يترك الناس يتمسحون فى ملابسه ويقبلون يده تبركا منه ، ولا يمنعهم ولا يجد فى نفسه أثرا نفسيا فى ذلك يخرجه عن ورعه وتقواه لله ، قال: إنها حلة حلانيها ربى ، فكيف أمنعهم عما لا أملكه وليس لى ..



الفصل الثالث استدارة الزمان كهيئته

محمد ﷺ سـيد النبيين ، فعند أول خلق للزمان بحركته ، خلق الله الروح المدبرة روح محمد ﷺ ثم صـدرت الأرواح عند الحركات فكان لها وجود فى عالم الغيب دون عالم الشـهادة ، وأعلمه الله بنبوته وبشـره بها وآدم لم يكن إلا كما قال بين الماء والطين « **كنت نبيا وآدم بين الماء والطين** » (حديث) ..

فأول روح وجد روح محمد ﷺ ، وأول جسـم إنسـانى جسـم آدم ، وأول شـخص اسـتفتحت به الرسـالة نوح عليه السـلام وللوراثة حظ من الرسـالة ، ولهذا قيل فى معاذ وغيره رسول رسول الله وما فاز بهذه الرتبة ويحشر يوم القيامة مع الرسل إلا المحدثون الذين يروون الأحاديث بالأسـانيد المتصـلة بالرسـول ، وهم نقلة الوحى وهم ورثة الأنبياء فى التبليغ ..

وجود جسمه ﷺ :

وانتهى الزمان باسـم الباطن فى حق محمد ﷺ إلى وجود جسـمه وارتباط الروح به ، لينتقل حكم الزمان فى جريانه من الاسـم الإلهي الباطن فى حقه ﷺ إلى الاسـم الظاهر فظهر محمد ﷺ بذاته جسما وروحا ،

فكان الحكم له باطنا أولا فى جميع ما ظهر من الشـرائع التى سـبقت ظهوره على أيدى الأنبياء والرسـل سـلام الله عليهم أجمعين « أعطيت جوامع الكلم » ، فكل الشـرائع التى سبقت ظهوره الجسمانى تندرج تحت شرعه ..

نبوته سبقت خلق آدم :

فنبوته ﷺ سبقت نبوة الأنبياء بل و سبقت خلق آدم نفسه ، **« كنت نبيا وآدم بين الماء والطين »** ، فكان له الحكم باطنا من الاسم الباطن على جميع من سبقه من الأنبياء والرسل الذين هم بمثابة نواب له ، فهو سيد المرسلين وسيد النبيين وجمعوا له تشريفا ليصلى بهم إماما يوم أن أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ..

ثم صار الحكم له ظاهرا بظهور جسده وروحه ليقول « **إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلقه الله** » فنسخ بهذا الظهور كل شرع أبرزه الاسم الباطن بحكم الاسم الظاهر ، فالمشرع واحد وهو صاحب الشرع وهو محمد ﷺ ، فإنه قال: **كنت نبيا** وما قال : كنت إنسانا ولا كنت موجودا ، فأخبر أنه صاحب النبوة قبل وجود الأنبياء الذين هم نوابه فى هذه الدنيا .

فكانت اســتدارته انتهاء دورته بالاســم الباطن وابتداء دورة أخرى بالاســم الظاهر فقال: اســتدار كهيئته يوم خلقه الله فى نســبة الحكم لنا ظاهرا كما كان فى الدورة الأولى منسوبا إلينا باطنا أى إلى محمد ﷺ ..

لذلك قال فى اللســان الظاهر : إن الزمان قد اســتدار كهيئته يوم خلقه الله ، فأظهر محمد ﷺ كما ذكرنا جســما وروحا بالإثم الظاهر فنســخ من شــرعه المتقدم ما نســخ وأبقى ما أراد الله أن يبقى منه ، ولهذا أعطى محمد ﷺ علم الأولين وعلم الآخرين ، أى علم ما سبقه وعلم الآخرين ، وشهد لنا نحن أمته أن لدينا علوما لم تكن موجودة من قبل ولهذا قال : « لو أن موسى حيا ما وسعه أن اتبعنى » ، يقصد ظاهرا أيضا لأنه موسى كان نائبا لها فى الباطن قبل ظهور حكم الاسم الظاهر ..

كل الأنبياء نواب له ﷺ :

فكل الأنبياء كانوا نوابا له فى الباطن قبل ظهوره ﷺ إلا عيسى ابن مريم عليه السلام سيكون نائبا عنه ﷺ فى الظاهر أيضا عندما يظهر من جديد فى آخر الزمان ليحكم بشريعة محمد ﷺ لا بشرعه هو، فتتحق لعيسى النيابة ظاهرا مثلما كانت باطنا ليصبح بذلك من أمة محمد ﷺ..

ولهذا قيل أن عيسى عليه السلام هو الوحيد الذى يحشر يوم القيامة حشران ، الأول كرسول متبوع لأمته التى بعث إليها ، والثانى لكونه تابعا من أمة محمد ﷺ ..

ولهذا قال الترمذى أن هناك من أمة محمد ﷺ من تكون منزلته أفضــل من منزلة أبي بكر الصديق ، ألا وهو عيسى عليه السلام لأنه بالقطع نبى ورسول .. وهى المنزلة التى طلبها مو سى عليه الـ سلام أن يكون من أمة محمد ﷺ ظاهرا وباطنا « اللهم اجعلنى من أمة محمد » كعيسى عليه السلام ولم يعط إياها ..

فكان ظهوره ﷺ باستدارة الزمان ، كالشمس التى طلعت لتزيل ظلام الليل ولتختفى كل النجوم ، ليســتدير الزمان بعد إنقضــاء دورة الزمان الأولى التى هى كما قيل 78 ألف ســنة ، ثم ابتدأت دورة أخرى من الزمان بالاســم الظاهر فظهر فيها جســم محمد ﷺ وظهرت شريعته على التعيين لا بالكناية ..

ولهذا فإن محمد ﷺ ســيد النبيين مثلما هو ســيد العابدين وســيد المرســلين وســيد العالمين و سيد المتقين و سيد المـ ستغفرين و سيد التوابين و سيد القائمين .... فلا نبى قبله « **كنت نبيا وآدم بين الماء والطين** « **ولا نبى بعده** » انقطعت الرســالة بعدى فلا نبى بعدى ولا رسول » ،

وبالتالى سيكون نزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان ، خاتما للولاية من آدم حتى آخر ولى فى أمة محمد ﷺ ، عاملا بشرع محمد ﷺ ، ومصليا صلاة المسلمين ومؤديا زكاة المسلمين « وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا » ، ولا صلاة ولا زكاة معرفة بالألف واللام إلا صلاة وزكاة أمة سيد المرسلين محمد ﷺ ..

اليوم الأصغر والأيام الكبار:

نعرف أنه من طلوع الشمس إلى غروبها يسمى نهارا ومن غروب الشمس إلى طلوعها يسمى ليلا ، وهذان مجتمعان يسميان يوما ، وأظهر اليوم وجود الحركة الكبرى وما فى الوجود إلا وجود المتحرك ولا غير ولا هو عين الزمان ، فيتضح ذلك إلى أن الزمان أمر متوهم لا حقيقة له ..

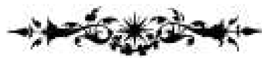
فاليوم المعقول المقدر هو المعبر عنه بالزمان الموجود وبه تظهر أيام الجمعة والشهور والسنون والدهور وتسمى أياما ، ، وهذه تقدر بما يسمى اليوم الأصغر المعتاد الذى فصله الليل والنهار ..

فالزمان المقدر هو ما زاد عن هذا اليوم الأصغر الذى تقدر به سائر الأيام الكبار ، فيقال : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: 5] ، وقال : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: 4] ..

وقال عليه السلام فى أيام الدجال : « **يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم** » ، فقد يكون هذا لشدة الهول ، وظاهر إتمام الحديث فى قول عائشة : « فكيف يفعل فى الصلاة فى ذلك اليوم ؟؟ » ، قال لها الرسول ﷺ: « **يقدر لها** » ، فلولا أن الأمر فى حركات الأفلاك على ما هو عليه باق ، ما اختل ما يقدر لذلك بالساعات التى يعمل صورتها أهل هذا العلم ، فيعلمون بها الأوقات فى أيام الغيم إذ لا ظهور للشمس ..

فيكون فى أول خروج الدجال تكثر الغيوم وتتوالى بحيث أن يستوى فى رأى العين وجود الليل والنهار وهو من الأشكال الغريبة التى تحدث فى آخر الزمان فيحول هذا الغيم المتراكم بيننا وبين السماء ..

فالأيام كثيرة الأنواع ومنها كبير ومنها صغير ، فأصغرها الزمن الفرد وعليه يخرج ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٍ﴾ ، فسمى الزمن الفرد يوما ، لأن الشأن يحدث فيه هو أصغر الأزمان وأدقها و لا حد لأكبرها ..



هلي يعصي العارف ؟؟

قيل لأبى يزيد البسطامي ﷺ : « هل يعصى العارف ؟؟ قال : وكان أمر الله قدرا مقدورا ، يريد القول أن معصيتهم بحكم القدر النافذ فيهم لا أنهم يقصدون انتهاك حرمات الله .. فهم بحمد الله إذا كانوا أولياء عند الله تعالى معصومين فى هذا المقام فلا تصدر منهم معصية أصلا انتهاكا لحرمة الله كمعاصى الغير ، فإن الإيمان المكتوب فى القلوب يمنع من ذلك ، فمنهم من يعصى غفلة، ومنهم من يخالف على حضور عن كشف إلهى قد عرفه الله فيما قدره عليه قبل وقوعه فهو على بصيرة من أمره وبينة من ربه ..

وهذه الحالة الأخيرة بمنزلة البشرى فى قوله : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: 2] ، فقد أعلمه الله بالذنوب الواقعة المغفورة فلا حكم لها و لا لسلطانها فيه ، فإنه إذا جاء وقت ظهورها يكون فى صحبتها الاسم الغفار ،

فتتنزل بالعبد ويحجب الغفار حكمها فتكون بنزلة من يرمى فى النار ولا يحترق كإبراهيم عليه السلام فكان فى النار ولا حكم لها فيه بالحجاب الذى هو المانع ..

ما هو مقام الكشف بالأقدار ؟؟:

كذلك زلة العارف صاحب مقام الكشف بالأقدار تحل به النازلة وحكمها بمعزل عنها فلا تؤثر فى مقامه ، بخلاف ما تحل به وهو على غير بينة و لا بصيرة بما قدر عليه ، فهذا يستلزم الحياء والندم وذلك ليس كذلك وهذه أسرار إلهية ..

وهذا فرق بين معصية العارفين وبين معاصى العامة من علماء الرسوم ومقلديهم ...

فإذا كان لأصحاب مقام الرسالة والنبوة الطهارة والحفظ الإلهى و العصمة ، فإن لأهل البيت والعارفين الطهارة والحفظ الإلهى ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾...

الاتهام بالزندقة

يقول الجنيد لا يبلغ أحد درج الحقيقة حتى يشهد فيه ألف صديق أنه زنديق ، لأن أهل الله يعلمون من الله ما لايعلم غيرهم تولى الله تعليمهم وأطلعهم على ما شاء من العلم والمعرفة التى قد يراها العامة بل والعلماء من غير أهل الله أنها ضرب من الشرك ..

وينسب إلى على زين العابدين قوله :

يارب جوهر علم لو أبوح به　　　لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا

ولاستحل رجال مسلمون دمى　　　يرون أقبح ما يأتونه حسنا

يجب الإيمان والتصديق بكل ما صح عن رسول الله ﷺ من الأخبار فى كل ما وصف به فيها ربه تعالى من الفرح والضحك والتبشبش والغضب والمحبة والشوق ، ولكن ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۭ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾

ويذهب أهل الكشف وبينهم العالم والشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى فى تأوليهم «إن الله خلق آدم على صورته » الى كثير من المحتملات بشأن إعادة الضمير ..

ويقولون اذا هبت نفحات من هذه الحضرة الإلهية كشفا وتجليا وتعريفا إلهيا على قلوب الأولياء بحيث يعلموا بإعلام الله و شاهدوا بإ شهاد الله من هذه الأمور المعبرعنها بهذه الألفاظ على لسان الرسول ﷺ .. وأتى أحد الأولياء بهذا الكلام ألست ترميه بالزندقة ؟؟؟؟؟؟ ...

كيف يصف الحق بما وصف به المخلوق ؟؟؟ ما فعلت عبدة الأوثان أكثر من هذا كما قال على زين العابدين ألست كنت تقتله أو تفتى بقتله كما قال ابن عباس ؟؟؟؟

فبأى شىء آمنت و سلمت ما سمعت ذلك من ر سول الله ﷺ فى حق الله من الأمور التى تحيلها الأدلة العقلية ومنعت من تأوليها ..

فهلا قلت : القدرة واسعة أن تعطى لهذا الولى ما أعطت للنبى من علوم الأسرار ، فإن ذلك ليس من خصائص النبوة ، ولا حجر المشرع ﷺ على أمته هذا الباب ، بل قال : «**إن يكن فى أمتى محدثون فإن عمر منهم**» ..

ولهذا قال ﷺ فى عمر بن الخطاب ، يذكر ما أعطاه الله من القوة « يا **عمر ما لقيك الشـيطان فى فج إلا سـلك فجا غير فجك** » ، فدل على عصـمته بشـهادة المعصـوم ، والمعروف أن الشـيطان ما يسـلك بنا إلا إلى الباطل وهو غير فج عمر بن الخطاب الذى ما كان يسلك إلا فجاج الحق .. فكان ممن لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولهذا قال ﷺ : « **ما ترك الحق لعمر من صديق** » يعنى الظاهر والباطن ، أما الظاهر فلعدم الإنصاف وحب الرياسة وخروج الإنسان عن عبوديته ، واشتغاله بما لا يعنيه ، وأما الباطن فما ترك الحق لعمر فى قلبه من صديق فما كان له تعلق إلا بالله ..

فأثبت النبى ﷺ أن ممن يحدث ليس بنبى و قد يحدث بمثل هذا فإنه خارج عن تشريع الأحكام من الحلال والحرام ، فإن ذلك أعنى التشريع من خصائص النبوة

وليس الاطلاع علي غوامض العلوم الإلهية من خصائص نبوة التشريع بل هى سارية فى عباد الله رسول وولى وتابع ومتبوع ، فأين الإنصاف منك ؟؟؟؟؟؟ ..

ألم يعط الله عبده الخضــر من أســرار العلوم الإلهية التى قوبلت بالإنكار من جانب النبى موسى عليه السلام لأن تشريعه لا يقرها ، فإن ذلك ليس من خصائص النبوة ، وأن موســى ليس على ذوق بها ، وقد قال له الخضــر : أنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا ، وأنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت ، ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:65] ..

إن ما أوتى الخ ضر ر ضى الله عنه من العلم ليس ذلك العلم الذى يو صف بالقلة أو الكثرة ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الذى أخذه أنبياء بنى إســرائيل ، بل ذلك العلم الوهبى اللدنى ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65] ، فهناك من أهل الله من يتولى الله تعليمه ، ولو كان إتيان لكان قد قال علمناه الوســيلة لتحصــيل العلم ، فسبحان الله الذى يتولى أهل الله بتعليمهم دون وسيلة ..

إن المصيبة والطامة الكبرى أنك إذا قلت لأحد من المنكرين خليك فى نفسك ،يقول لك : إنما أقوم بحماية دين الله وغيرة عليه والغيرة لله من الإيمان ،

ولا ينظر هل هذا من قبيل الإيمان أم لا ؟؟ .. أعنى أن يكون الله قد عرف وليا من أوليائه بما يجريه فى خلقه ، كالخضـــر ويعلمه علوما من لدنه تكون العبارة عنها بهذه الصيغ التى ينطق بها الرسول ﷺ ، كما قال الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾ [الكهف: 82] ، وآمن هذا المنكر بها على زعمه إذا جاء بها رسول الله ﷺ ..

فو الله لو كان مؤمنا بها ما أنكرها على هذا الولى لأن المشـــرع ما أنكر إطلاقها فى جناب الحق من اســتواء ونزول ومعية وضـحك وفرح وتبشـبش وتعجب وغير ذلك وما ورد عن رســول الله ﷺ أنه حجرها على أحد من عباد الله بل أخبر عن الله أنه يقول لنا : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: 21] ..

قال الجنيد : لا يبلغ أحد درج الحقيقة حتى يشهد فيه ألف صديق بأنه زنديق ، لأنهم يعلمون من الله ما لايعلمه غيرهم وهم أصـــحاب العلم الذى كان يقول فيه على بن أبى طالب رضى الله عنه حين يضرب بيده على صدره

ويتنهد : إن هنا لعلوم لو وجدت لها حملة ، فإنه كان من الأفراد ، فلم يســمع هذا من أحد غيره فى زمانه إلا من أبى هريرة ،

وقد شهد له الرسول ﷺ بقوله : « **أنا مدينة العلم وعلى بابها** » فما ذلك إلا من مشكاة نور الحبيب ﷺ ..

والدرج غير الدرك ، فالأولى تطلق على درجات ومنازل الجنة وكذلك درجات ومنازل أهل الحقيقة أهل الكشف أهل الله أهل القرآن ، أما الثانية فتطلق على منازل النار ، وكل درج فى الجنة يقابله درك فى النار ، بما يتناسب مع كل عمل ، فإذا أديت العمل دخلت درجه وإذا لم تؤده عوقبت بالدرك المقابل له فى النار ، وقد آثرت أن أوضح لقارئى العزيز الفرق بين الكلمتين والمنزلتين ..



الفصل الرابع عذاب النفس واستعذاب الجوارح

أعضاء وجوارح الإنسان مسبحة لله ومقدسة لجلاله ، وإن كانت الجوارح غير عالمه بما سوف تستخدم فيه من قبل ومن جانب النفس البشرية المدبرة لها المكلفة التى كلفها الله تعالى بعبادته ..

ولو علمت الجوارح ما تعلمه النفس من تحديد ما هو معصية وما هو طاعة ما وافقت صاحبها على ارتكاب مخالفة أصلا ، فإنها تعرف أن كل شىء من المخلوقات والموجودات ما هو إلا مسبح لله مقدسا لجلاله ..

الجوارح لا تنسى :

غير أنها أعطيت من الحفظ القوة العظيمة فى عدم النسيان ، فلا تستخدمها النفس فى أمر إلا وتحفظ ذلك الأمر وتعلمه ، والنفس تعلم أن ذلك طاعة أو معصية ..

فإذا وقع الإنكار يوم القيامة عند سؤال هذه النفس يقول الله لها : نبعث عليك شاهدا من نفسك فتقول فى نفسها : من يشهد على ؟؟؟ فيسأل الله تعالى الجوارح عن تلك الأفعال التى استخدمت فيها ، فيقول للعين : قولى فيما صرفك ، فتقول له : يارب نظر بى إلى أمر كذا وكذا ، وتقول الأذن : أصغى بى إلى كذا وكذا ،

وتقول اليد : بطش بى كذا وكذا ، والرجل وكذا الجلود والألســنة كذلك ، فيقول له هل تنكر شيئا من ذلك ؟؟ ، فيحار ويقول : لا ، والجوارح كما ذكرنا لا تعرف ما الطاعة وما المعصية ..

فيقول الله : ألم أقل لك على لســان رســولى وفى كتبى : لا تنظر إلى كذا ولا تســمع كذا ولا تسع إلى كذا ولا تبطش بكذا ، ويحدد له جميع ما يتعلق بالتكليف للحواس ، ثم يفعل ذلك بالباطن فيما حجر عليه من سوء الظن وغيره ..

الجوارح لا تعذب:

فإذا عذبت النفس فى دار الشــقاء فلا تمس الجوارح من النار وأنواع العذاب ، حيث تستعذب الجوارح جميع ما طرأ عليها من أنواع العذاب ولذا سمى عذابا لأنها تستعذبه ، كما يستعذب ذلك خزنة النار وملائكتها ..

كما ينتقم للجوارح حيث جعلها الله محلا للانتقام من تلك النفس التى كانت تحكم عليها ، كما أبطل مفعول النار مع إبراهيم عليه الســلام وتحولت إلى برد وســلام ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ لم تكن بردا فقط بل سلاما ..

المتألم هو النفس :

فيتخيل الإنسان أن العضو يتألم لإحسا سه فى نفسه بالألم ،وليس كذلك إنما الإنسان صاحب النفس هو المتألم بما تحمله الجارحة ، ألا ترى المريض إذا نام لا شك أن النائم حى والحس عنده موجود والجرح الذى يتألم به فى يقظته موجود ومع هذا لا يجد العضو ألما لأن الواجد للألم قد صــرف وجهه عن عالم الشــهادة إلى عالم البرزخ فما عنده خبر فارتفعت عنه الآلام الحسية وبقى فى البرزخ على ما يكون عليه ..

أما الإنـسان فى الرؤية المنامية المفزعة فيتألم وفى الرؤية المفرحة يتنعم ، فإذا ا ستيقظ المريض وهو رجوع نفسه إلى عالم الشهادة رجعت له الآلام والأوجاع ..

ثم إن الجوارح لو كانت تتألم من العذاب ، لأنكرت كما تنكر النفس وما كانت تشهد على صـــاحبها ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت: 22] ،

وقال ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإ سراء: 36] فهكذا يســأل الإنســان عن رعيته من الجوارح كيف اســتخدمها كالوالى المســؤول عن رعيته ، كلكم راع وكل مسئول عن رعيته ..

الجوارح تفرح فى صاحبها :

والجوارح تفرح وتشمت فى صاحبها العاصى الذى خالف الله وخالف رسوله فيما بلغ عن ربه واستخدمها فى المعصية ، ألا ترى الوالى الظالم إذا اخذه الملك وعذبه ، عند استغاثته برعيته ، كيف إنها تفرح فيه وتفرح بالانتقام منه ؟؟ ..

كذلك الجوارح يوم القيامة يكشف لك عن فرحها ونعيمها بما تراه فى النفس التى كانت تدبرها فى ولايتها لأن حرمة الله عظيمة عند الجوارح التى هى اللسان والأذن والبصر والفرج واليد والرجل والعين والجلد﴿ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم ﴾..

ثم إن الجوارح والأعضاء مسبحة ذاكرة لربها مقدسة لجلاله غير أن الأعضاء (الكبد الطحال ....) تصريفها فى يد خالقها لا سلطان لصاحبها عليها وليس له إرادة عليها ولا مسؤولا عنها ولكن إرادتها فى يد ربها ، فلا أحد يستطيع أن يملى شيئا على كبده أو أن يغير عمل كراته الحمراء أو درجة حرارتها مثلما يأمر جوارحه ، فهو السيد المطاع من جوارحة وهو المسئول عنها بعد ذلك ..

فالجوارح ملك صاحبها واقعة تحت تصرف نفسه إن شاء أحسن استخدامها فكان متنعما ، وإن شاء أساء استخدامها فكان شقيا دون مسؤولية عليها فيما صرفها صاحبها فيه ..



سجن الله في الآخرة

جهنم هى سجن الله فى الآخرة يسجن فيها العاصون والمشركون وهى لهاتين الطائفتين دار مقام والكافرون والمنافقون وأهل الكبائر من المؤمنين ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء: 8] ثم يخرج بالشفاعة من أذن له الرحمن بالامتنان الإلهى من جاء النص الإلهى فيه ..

سميت جهنم لبعد قعرها يقال : بئر جهنم إذا كانت بعيدة القعر وهى تحوى على حرور وزمهرير ، ففيها البرد على أقصى درجاته ، والحرور على أقصى درجاته وبين أعلاها وقعرها مائة وخمس وسبعين سنة كما قيل ..

واختلف الناس فى خلقها ، خلقت أم لم تخلق بعد ؟؟ وكذلك إختلفوا فى الجنة .. وأما عند جماعة من أهل الله وأصحاب أهل الكشف والتعريف ومنهم الشيخ الأكبر محى الدين إبن عربى فهما مخلوقتان غير مخلوقتين ، ويشرحون قولهم ، برجل فكر أن يبنى دارا فأقام حيطانها كلها الحاوية ، فيقال بنى دارا ، فإذا دخلها لم ير إلا سورا على فضاء واسع ، بعد ذلك ينشئ بيوتا على أغراض سكانها من مهالك وغرف وسراديب ..

وهى دار حرورها هواء محترق لا جمر لها سوى بنى آدم والأحجار المتخذة آلهة والجن لهيبها .. قال تعالى : ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة: 24] ،

و قال : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: 98] ،

وقال تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ [الشعراء: 94 ، 95] ..

ولا يكون الغضب الإلهى إلا عند دخول الخلق فيها من الجن والإنس ، وقبل دخول أهلها فيها ، فلا ألم على ملائكتها وزبانيتها ، فهم فى رحمة الله منغمسون ملتذون يسبحون لا يفترون قال تعالى : ﴿ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ [طه: 81] ، فأضاف الغضب إليه وإذا نزل بهم كانوا محلا له ، وجهنم إنما هى مكان لهم وهم النازلون فيها وهم محل الغضب ..

ويروى عن رسول الله ﷺ ، أن رسول الله ﷺ كان جالسا مع أصحابه فى المسجد فسمعوا هزة أو هده عظيمة فارتاعوا فقال رسول الله ﷺ « **أتعرفون ما هذه الهدة ؟** » ، قالوا :الله ورسوله أعلم ؟؟ قال : « **حجر ألقى من أعلى جهنم منذ سبعين سنة، الآن وصل إلى قعرها فكان وصوله إلى قعرها وسقوطه فيها هذه الهدة** » ..

فما فرغ من كلامه ﷺ إلا والصراخ فى دار منافق من المنافقين قد مات وكان عمره سبعين سنة فقال رسول الله ﷺ :« **الله أكبر** » ،

فعلم علماء الصــحابة أن هذا الحجر هو هو ذاك المنافق وأنه منذ خلقه الله يهوى فى نار جهنم وبلغ عمره ســبعين ســنة فلما مات وصــل إلى قعرها ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء: 145] ، فكان سماعهم تلك الهدة التى أسمعهم الله ليعتبروا ..

فأنظر ما أعجب كلام النبوة وما ألطف تعريفه وما أحسن إشارته ، وما أعذب كلامه ﷺ .. ﴿ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الشعراء: 96 ، 97] ، ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يس: 59] ..

طوائفها ومراتبها ومنازلها :

قال تعالى فى كرمه لإبليس وعموم رحمته حين قال له ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ﴾ [الشعراء: 62 – 64]، فما جاء إبليس إلا بأمر الله تعالى فهو أمر إلهى يتضمن وعيدا وتهديدا ، وكان ابتلاء شديدا فى حقنا ليريه تعالى أن ذريته من ليس لإبليس عليه سلطان و لا قوة ..

ثم إن الذين خذلهم الله من العباد جعلهم طائفتين : طائفة لا تضرهم الذنوب التى وقعت منهم وهو قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلًا﴾ [البقرة: 268] فلا تمسهم النار بما تاب الله عليهم واستغفار الملأ الأعلى لهم ودعائه لهذه الطائفة ، وطائفة أخرى أخذهم الله بذنوبم ..

والذين يأخذهم الله بذنوبهم قسمين :

– قسم أخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين وهم أهل الكبائر من المؤمنين وبالعناية الإلهية وهم أهل التوحيد بالنظر العقلى ..

– وقسم آخر أبقاهم الله فى النار وهذا القسم هم أهل النار الذين هم أهلها وهم المجرمون خاصة الذين يقول الله فيهم ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [يس: 59] أى المستحقون أن يكونوا أهلا لسكنى هذه الدار التى هى جهنم يعمرونها ممن يخرج منها إلى الدار الآخرة التى هى الجنة ..

وهؤلاء المجرمون هم أربع طوائف :

–**الطائفة الأولى**: كلها فى النار لا يخرجون منها وهم المتكبرون على الله كفرعون وأمثاله ممن إدعى الربوبية لنفسه ونفاها عن الله :

﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: 38] ، وقال : ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾[النازعات: 24] ، يريد أنه ما فى السماء إله غيرى وكذلك نمرود وغيره ..

– **الطائفة الثانية** .. المشركون ، والمشركون هم : ﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ [الحجر: 96] ، فقالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾[الزمر: 3] ، وقالوا : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾[ص: 5] ..

– والطائفة الثالثة : المعطلة .. وهم الذين نفوا الإله كجملة وتفصيلا ، فلم يثبتوا إله للعالم و لا من العالم ..

– **والطائفة الرابعة** : المنافقون وهم الذين أظهروا الإسلام من إحدى هؤلاء الطوائف الثلاث السابقة للقهر الذى حكم عليهم فخافوا على دمائهم وذراريهم وهم فى نفوسهم على ما هم عليه من اعتقاد هؤلاء الطوائف الثلاث ..

فهؤلاء أربعة أصناف يمثلون أهل النار لا يخرجون منها من جن وإنس ، وإنما كانوا أربعة طوائف، لأن الله ذكر عن إبليس أنه يأتينا من بين أيدينا ومن خلفنا وعن إيماننا وعن شمائلنا ..

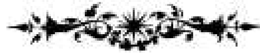
فيأتى للمشــرك من بين يديه ، ويأتى للمعطل من خلفه، ويأتى للمتكبر من عن يمينه ويأتى للمنافق من عن شــماله وهو الجانب الأضــعف فإنه أضــعف الطوائف ، كما أن الشمال أضعف من اليمين ، وجعل المتكبر من اليمين لأنه محل القوة فتكبر لقوته التى أحســها من نفســه ، وجاء للمشــرك من بين يديه ، فإنه رأى إذ كان بين يديه جهة عينه فأثبت وجود الله ، ولم يقدر على إنكاره فجعله إبليس يشــرك مع الله فى ألوهيته وجاء للمعطل من خلفه فإن الخلف ما هو محل النظر فقال له ما ثم شىء أى ما فى الوجود إله ..

والله جعل لجهنم ســبعة أبواب ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر: 44] ، وجعل منازل جهنم 28 منزلا ، وجهنم كلها مائة درك من أعلاها إلى أســفلها ، نظائر أهل الجنة التى ينزل فيها الســعداء ، وفى كل درك من هذه الدركات 28 منزلا ..

ومن أبواب جهنم ، باب الجحيم ، باب سقر ، باب الحطمة ، باب السعير ، باب لظى ، باب الحامية ، باب الهاوية ، وسميت الأبواب بسمات ما ورائها مما أعدت له ..

وقال فى أهل سقر : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [المدثر]

وقال فى أهل الجحيم أنه يكذب بيوم الدين ، ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ [المطففين: 12] ، فوصفه بالإثم والاعتداء ، ثم قال فيهم : ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ [المطففين: 16 ، 17] وهكذا فى الحطمة والسعير وغيرها ..



هل العذاب سرمدي؟

لما كانت الصــفات نســبا وإضــافات والنســب أمور عدمية وما ثم إلا ذات واحدة من جميع الوجوه، لذلك جاز أن يكون العباد مرحومين فى آخر الأمر، ولا يســرمد عليهم عدم الرحمة إلى ما لا نهاية له، إذ لا مكره للحق.

والأ سماء والـصفات ليست أعيانا توجب حكما عليه فى الأ شياء ، فلا ما نع من شمول الرحمة للجميع ، لا سيما وقد ورد سبقها للغضب ، فإذا انتهى الغضب إليها كان الحكم لها فكان الأمر على ما ذهب أهل الله فى عدم سرمدية عدم الرحمة ، لذلك قال الله تعالى ﴿ لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾[الرعد: 31] ..

فكان حكم هذه المـ شيئة فى الدنيا بالتكليف ، وأما الآخرة فالحكم لقوله : ﴿يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾[البقرة: 253] فمن يقدر أن يدل على أنه لم يرد إلا تسرمد العذاب على أهل النار ولا بد أو على واحد فى العالم كله حتى يكون الاســم المعذب والمبلى والمنتقم وأمثاله صــحيحا ، والاســم المبلى وأمثاله نسـبة وإضــافة لا عين موجودة ، فكيف تكون الذات الموجودة تحت حكم ما ليس بموجود ؟؟؟ ..

فكل ما ذكر من قوله ﴿لَّوۡ يَشَآءُ ﴾ [الرعد: 31] ، و« لئن شــاء » (الإســراء 86) لأجل هذا الأ صل فله الإطلاق ، وما ثم نص يرجه إليه لا يتطرق إليه احتمال فى تـ سرمد العذاب

كما لنا تسرمد النعيم ، فلم يبق إلا الجوار وأنه رحمن الدنيا والآخرة ، وإن كان إطلاق الجواز على الله سوء أدب مع الله ، ويحصل المطلوب بإطلاق الجواز على الممكن وهو الأليق ..

يقول الشيخ الأكبر محيى الدين ابن عربى فى فتوحاته أن قوله فى أهل النار ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: 74] ، يريد حالهم فى هذه الأوقات الذين يغيبون فيها عن إحساسهم مثل الذى يغشى عليه من العذاب فى الدنيا من شدة الجزع وقوة الألم المفرط فيمكثون كذلك 19 ألف سنة ثم يفيقون من غشيتهم ،وقد بدل الله جلودهم جلودا غيرها ، فيعذبون فيها 15 ألف سنة ثم يغشى عليهم فيمكثون فى غشيتهم 11 ألف سنة، ثم يفيقون وقد بدل الله جلودهم جلودا غيرها ،ليذوقوا العذاب ، فيجدون العذاب الأليم 7 آلاف سنة ثم يغشى عليهم 3 آلاف سنة، ثم يفيقون فيرزقهم الله لذة وراحة ،مثل الذى ينام على تعب ويستيقظ ، وهذا من رحمته التى سبقت غضبه ووسعت كل شىء ..

هل الخوف من العذاب هو الذى يسرمد ؟؟:

فيكون لها حكم التأبيد من الاسم الواسع الذى به وسع كل شئ رحمة وعلما فلا يجدون ألما ويدوم لهم ذلك ويستنعمونه ويقولون فلا نسأل حذرا أن نذكر بنفوسنا ،

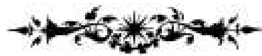
وقد قال الله لنا : ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: 108] ، هم يسكتون فيها وهم مبلسون ولا يبقى من العذاب إلا الخوف من رجوع العذاب عليهم ..

فهذا القدر من العذاب هو الذى يسرمد عليهم وهو الخوف وهو عذاب نفسى لا حسى، وقد يذهلون عنه فى أوقات ، فنعيمهم الراحة من العذاب الحسى بما يجعل الله فى قلوبهم من أنه ذو رحمة واسعة بقول الله تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ ﴾ [الجاثية: 34] ..

النسيان الترك:

وفى هذه يقولون نسينا إذا لم يحسوا بالآلام ، وكذلك قول الله تعالى ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة: 67] ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: 126] أى تترك فى جهنم إذ كان النسيان الترك وبالهمز والتأخير ..

فأهل النار حظهم من النعيم عدم وقوع العذاب ، وحظهم من العذاب توقعه ، فإنه لا أمان لهم ، ويحجبون عن خوف التوقع ، ولا يزالون على حالهم هذه دائما فى جهنم إذ هم أهلها .



الفصل الخامس الموت عند الإحياء

قد يبدو عنوان هذا الفصل متناقضا فى ظاهره ، وهو الموت والأحياء ، ولكن هذا المعنى يخص أهل الله أو أهل الكشـف الذين غاصـوا فى معانى الكلمات ليسـتخرجوا ما كمن فيها من المعانى الوجدانية ، ما تعذر على غيرهم الوصـول إليه بالاكتفاء بالنظر فى ظاهر الأمور رغبة فى عدم إجهاد أنفسهم ، على طريقة سكن تسلم ..

فللموت معانى عند أهل الله من الأحياء ، غير ذلك الموت المتعارف عليه بمفارقة الحياة للجسـد ، فهم يرون أن هناك أربع موتات ، الأول هو الموت الأبيض والثانى هو الموت الأحمر والثالث هو الموت الأخضر والرابع هو الموت الأسود ..

الموت الأبيض :

أما الموت الأبيض لدى أهل الله ،فهو الجوع وعدم إشـباع النفس من الغذاء وامتلاء المعدة بالطعام والشـراب لأنه يثقل كاهل العقل بالأبخرة الناتجة عن الطعام فيثقل الجسد عن أداء حق الله فى العبادة، والسهر لمناجاة الحق وغلبة النعاس على العبد ..

الموت الأحمر:

والموت الأحمر ، هو مخالفة النفس فى هواها ، وعدم تلبية مطالبها والجرى وراء رغباتها و شهواتها والوقوع فى أسر هواها فتجر صاحبها إلى المهالك ، كتلك التى تمشى فى الأرض مرحا تختال بنفسـها فتعرض صـاحبها الى المهالك من الذين فى قلوبهم مرض ، فلا بد من زجرها وإنزال العيب بها فتهدأ فلا تترك سـبيلا للطامعين ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾[الكهف:79] ..

الموت الأخضر:

والموت الأخضـر وهو ترك الرقاع فى الملبس ، وإنما سـميت لباس المرقعات بالموت الأخضر، لأن حالته حال الأرض فى اختلاف النبات فيه والأزهار بأشبه اختلاف الرقاع فى الملبس ، وبالتالى عدم التفاخر على الآخرين والشعور بالتميز عنهم ..

الموت الأسود:

أما الموت الأسود عند الأحياء من أهل الله هو تحمل الأذى من الآخرين ويتصفون بأكثر من عشر من النعوت والصفات ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾[الفرقان:63]﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾[الفرقان:64]

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان:65] ... ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان:67] ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴾ [الفرقان:68] ... ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ [الفرقان:72] ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمًّا وَعُمۡيَانًا ﴾ [الفرقان:73] ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان : 74] ..

أحوال أهل الله :

ولأهل الله أحوال عند الموت ، الذى هو أمر متيقين لا اختلاف فى وقوعه لكل حى ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ ﴾[القصص:88] ، وقال رسول الله ﷺ : «**يموت المرء على ما عاش عليه ويحشــر على ما عليه مات**» ، وقال تعالى ﴿ فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴾ [ق: 22] ، بما يعنى عند أهل الله يعين العبد أمره وحاله عند الموت وهو ما ينفرد به العابدون أهل الله من ربهم إذا أتاهم اليقين ، فاليقين هو الذى يأتى لصـــاحبه ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر: 99] ...

***

الصور عند احتضار أهل الله :

وأهل الله إذا حضـرتهم الوفاة رضـى الله عنهم فلابد لهم من مشـاهدة اثنتى عشـرة صورة يروها كلها أوبعضها وهى : صورة عمله و صورة علمه و صورة حاله و صورة اعتقاده و صورة مقامه و صورة رسوله و صورة ملك ، و صورة اسم من أسماء الأفعال وصورة اسم من أسماء الصفات وصورة اسم من أسماء النعوت وصورة اسم من أسماء التنزيه وصورة اسم من أسماء الذات ، فالموت والنوم سواء فى انتقال هذه المعانى ..

فمنهم من يتجلى له عند الاحتضار عمله فى صورة حسنة ويترواح حسنها بين حسن وجميل ، وهذا الأمر داخل تحت قوله تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصـلت: 53] ..ومنهم من يتجلى له علمه بالجناب الإلهى وهم أصـحاب الكشـف خاصـة ومنهم من يتجلى له اعتقاده فى الله ، ومنهم من يتجلى له عند الاحتضـار رسـوله الذى ورثه إذ كان العلماء ورثة الأنبياء ، فيرى عيسـى عند احتضـاره أو يرى موسـى أو إبراهيم أو محمدا أو أى نبى عليهم السلام جميعا ،

كل حســب الرســول الذى كان هو على قدمه فى الدنيا ، فمنهم من ينطق باســم ذلك النبى الذى ورثه عندما يأتيه فرحا لأن الرسل كلهم سعداء ، فينادى عند الاحتضار باسم الرسول الذى ورثه ،

كأن يقول: يا عيسى أو يا موسى ، فيظن من يسمعه من الجهلة والعامة أنه تنصر أو تهود عند الموت وأن الإســلام قد ســلب منه ولكنه من أكبر الســعداء عند الله ، فإن هذا المشهد لا تعرفه العامة ولا يعرفه سوى أهل الله من أرباب أهل الكشف ..



المراجع

- القرآن الكريم ..
- الأحاديث القدسية ..
- الأحاديث النبوية الشريفة ..
- كشف الغطاء عن أهل البلاء : العارف بالله الشيخ صالح أبو خليل .
- الفتوحات المكية – محيى الدين بن عربى – المجلد الأول ..
- الفتوحات المكية – محيى الدين بن عربى – المجلد الثانى ..
- فلسفة التصوف الإسلامى – محمد المنشاوى (المؤلف) ..
- فلسفة الحب الإلهى – محمد المنشاوى (المؤلف) ..
- قائمة المصطلحات الواردة فى كتاب الحكم العطائية – ابن عطاء الله السكندرى
- الكواكب الدرية :للمناوى ..
- المكتوبات الربانية :السرهندى ..
- لطائف المنن : ابن عطاء الله السكندرى ..
- أبو الحسن الشاذلى : الدكتور عبد الحليم محمود ..

-

- الفتوحات المكية : محيى الدين بن عربى ، المجلد الثالث ..
- الفتوحات المكية – محيى الدين بن عربى ، المجلد الرابع ..
- جامع كرامات الأولياء : النبهانى ..
- الحقائق الوردية فى حقائق أجلاء النقشبندية ..
- بغية المستفيد لشرح منية المريد :محمد العربى التيجانى ..
- كتاب إنشاء الدوائر: محيى الدين بن عربى ..
- الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية : للشعرانى ..
- الطبقات الكبرى :للشعرانى ..
- فن الحب : اريك فروم :ترجمة الدكتور مجاهد عبد المنعم مجاهد
- إحياء علوم الدين : الإمام الغزالى ..
- صيد الخواطر :على الطنطاوى ..
- صيد الخواطر : تحقيق الدكتور عبد الرحمن البر ..
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين : ابن قيم الجوزية ..
- مفتاح الفلاح : ابن عطاء الله السكندرى ..

-

- الحب الإلهى فى التصوف: د. محمد مصطفى حلمى ..

- المنقذ من الضلال : أبو حامد الغزالى : تحقيق د. عبد الحليم محمود ..

- التصوف طريقا ومذهبا : د. محمد كمال إبراهيم جعفر : دار الكتب الجامعية ..

- الرعاية لحقوق الله : الحارث بن أسد المحاسبى : تحقيق د. عبد الحليم محمود ..

- أقطاب التصوف السيد أحمد البدوى :د .عبد الحليم محمود ..

- الطرق الصوفية فى مصر : نشأتها ونظمها وروادها : الدكتور أمر النجار ..

- ابن الفارض والحب الإلهى : المرحوم الدكتور مصطفى حلمى ..

- رسائل ابن عربى :محيى الدين بن عربى ..



سيرة ذاتية



- الكاتب الصحفي / محمد عبد الحليم المنشاوى ..

نائب رئيس تحرير وكالة أنباء الشرق الأوسط «أ ش أ»

- تخرج في كلية الإعلام جامعة القاهرة ..

- عمل لدى مؤسسة // فريدريش نومان // الألمانية ..

- ماجستير في الإعلام ..

- عمل رئيسا لتحرير مجلة // النجوم العربية // وهى مجلة عربية ثقافية فنية كانت تصدر من قبرص..

عمل في وكالة الأنباء العمانية – سلطنة عمان كما تولى تدريب شباب الـ صحفيين في الوكالة العمانية ..

- تم تكريمه بعد حضـــور برنامج تدريبي في العاصـــمة البريطانية لندن ضـــمن 15 صحفيا يمثلون دول الشرق الأوسط .. وقد مثل مصر في هذه المجموعة ..

- عمل في دائرة الشؤون السياسية بالإذاعة المصرية ..

- عمل بالترجمة في قسم وكالة الأنباء الألمانية // د . ب .أ// ..

– عمل مديرا لمكتب وكالة أنباء الشرق الأو سط في العا صمة الأثيوبية أديس أبابا .. كأول مراسل مقيم للوكالة في هذه الدولة الأفريقية ..

– أنتخب لفترتين متتاليتين رئيسا لرابطة المراسلين الأجانب لدول شرق وجنوب أفريقيا.

حصل على شهادة من معهد جوته الألماني فى اللغة الألمانية ..

– عمل محررا دبلوماسيا والشؤون الدولية بوكالة أنباء الشرق الأوسط ..

– عمل كبير محررى رئاسة الجمهورية ورئيس قسم الرئاسة بوكالة أنباء الشرق الأوسط ..

– من مؤلفاته .. « كارت السلطان » مجموعة قصصية تضم 19 قصة قصيرة ، وأخرى مماثلة 18 قصة قصيرة تحت عنوان « بصقة على وجه الميت » و « فلسفة التصوف الاسلامى »– الناشر مدبولى ، و« فلسفة الحب الإلهى » ، الى جانب هذا الكتاب الذى بين أيديكم « فلسفة التذوق بين علماء الر سوم وعلماء الحقيقة » ، نشر له ولا يزال العديد من الأعمال الأدبية والمقالات السياسية والاقتصادية والعسكرية .

– تولى تغطية العديد من الندوات والاجتماعات والمؤتمرات الدولية ومؤتمرات القمة العربية والأفريقية ، كما تولى تغطية الرحلات الخارجية لرئيس الجمهورية في العديد من الدول العربية والأجنبية في أوروبا وآسيا وأفريقيا والولايات المتحدة الأمريكية ..

سافر إلى أكثر من 25 دولة في أفريقيا وأسيا وأوروبا والولايات المتحدة في مهام صحفية مختلفة .. كما دعى لزيارة العديد من هذه الدول من خلال سفاراتها بالقاهرة والتقى ببعض رؤساء الدول ..

– كما شارك في موائد مستديرة وحلقات نقاشية وندوات في الشؤون الإقليمية والدولية بدعوات من هيئات دولية فى الخارج آخرها التى عقدت فى برلين بألمانيا أوائل شهر مارس عام 2012 م حول « التنظيم الذاتى للإعلام بين المسؤولية والحرية » .

– العنوان الالكتروني : mohmensh@hotmail.com

محمد المنشاوى

2012

الفهرس